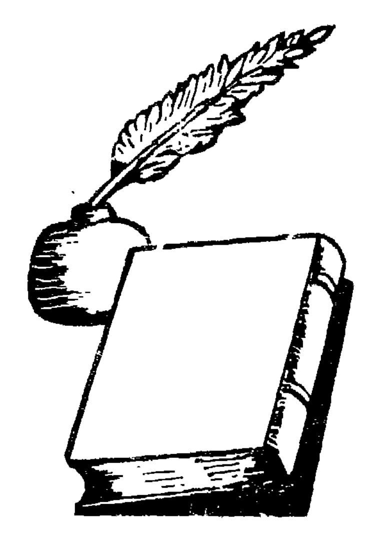
موسوعة
التاريخ الإسلامي

٢

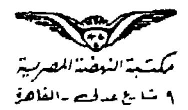
الدولة الأموية
والحركات الفكرية والثورية خلالها



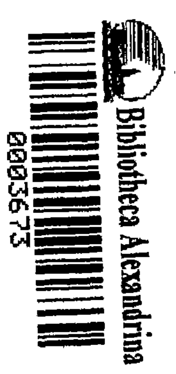
تأليف
الدكتور أحمد شلبي
دكتوراه من جامعة كمبردج

استاذ التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية
بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة

والعائز لوسام « العلوم والفنون » من الطبقة الأولى
لكتاباته فى التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية



مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي ـ القاهرة



موسوعة

التاريخ الإسلامي

والحضارة الإسلامية

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة أجزاء لتاريخ العالم الاسلامى كله من مطلع الاسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى أسهم بها المسلمون فى ترقية العمران وتطوير الفكر البشرى

٢

الدولة الأموية

والحركات الفكرية والثورية خلالهـا

تأليف

الدكتور أحمد شلبى

دكتوراه من جامعة كمبردج
أستاذ التاريخ الاسلامى والحضـارة الاسلامية
بكلية دار العلوم ــ جامعة القاهرة

الطبعة السابعة ١٩٨٤

مع زيادات واسعة وبخاصة عن الاسلام والفرق



الناشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى
القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

ويه نستعين

التاريخ ....

شعاع من الماضي ينير الحاضر والمستقبل .

الطبعة الأولى سنة ١٩٦٠

الطبعة الثانية سنة ١٩٦٦

الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٩

الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٢

الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٨

الطبعة السادسة سنة ١٩٨٢

الطبعة السابعة سنة ١٩٨٤

خطة البحث فى هذه الموسوعة

ان خطة البحث التى اتبعها فى كتابة « التاريخ الاسلامى » خطة جديدة ومريحة ، ويسرنى ان ابرزها فى التخطيط التالى ليعرف القارىء كنهها ، وليسهل عليه متابعتها :

دراسة زمنية فى هذه الأجزاء الثلاثة اذ ان العالم الاسلامى وحدة واحدة .		
	ج ١	العرب قبل الاسلام — السيرة النبوية العطرة — عصر الخلفاء الراشدين
	ج ٢	الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية خلالها
	ج ٣	الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الأول ودور المسلمين خلاله فى خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية

ثم دراسة مكانية (قطاعات جغرافية) فى الأجزاء الخمسة التالية لأن العالم الاسلامى انقسم الى دويلات كثيرة ، ويشمل كل جزء من هذه الأجزاء قطاعا من العالم الاسلامى ، بحيث يتناول تاريخه من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر مبتدئين من الغرب ومتجهين الى الشرق كالتخطيط التالى :

الجزء الثامن
- التاريخ الاسلامى للدول الاسلامية غير العربية بآسيا : ايران — افغانستان — الباكستان — بنجلاديش — باندونيسيا — الاقليات الاسلامية بالصين والاتحاد السوفيتى والهند والفلبين وسنغافورة .

الجزء السابع
- الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق من مطلع الاسلام حتى الآن .
- دول الجزيرة العربية : المملكة العربية السعودية — عمان — اليمن — جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، دولة الامارات العربية — قطر — البحرين — الكويت — العراق

الجزء السادس
- الاسلام والدول الاسلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخلها الاسلام حتى الآن :
- دراسة عن { — وسائل انتشار الاسلام بقلب افريقية . — الدول الاسلامية قبل الاستعمار الأوربى . — الدول الاسلامية الحالية :
- موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيا — مالى — النيجر — نيجريا — تشاد — السودان — الصومال

الجزء الخامس
- الامبراطورية العثمانية (تركيا) منذ ظهورها حتى الآن
- الحروب الصليبية : دوافعها — أدوارها — نتائجها
- مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر

الجزء الرابع
- السنوسية : مبادئها وتاريخها
- المغرب — الجزائر — تونس — ليبيا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر
- الأندلس الاسلامية وانتقال الحضارة الاسلامية منها الى أوروبا

ونختم الموسوعة بدراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصرة :

الجزء التاسع : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد نجيب وعصر عبد الناصر

الجزء العاشر : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد أنور السادات

كتب للمؤلف

أولا : موســوعة التاريخ الاســلامى

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة أجزاء لتاريخ العالم الاســلامى كله من مطلع الاسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى أسهم بها المسلمون فى ترقية العمران ، وتطوير الفكر البشرى :

١ — الجزء الأول : (الطبعة الحادية عشرة)

— مقدمة الموسوعة : نطاق التاريخ الاسلامى — تفسير التاريخ — هل التاريخ علم ؟ .. فلسفة التاريخ — فائدة التاريخ — مراحل تدوين التاريخ — قضية الالتزام فى كتابة التاريخ الاســلامى — علم التاريخ بين المسيحية والاسلام ...
— تاريخ العرب قبل الاسلام : البدو والحضر — حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية .
— **السـيرة النبوية المطهـرة : جوانب من السـيرة تدون لأول مـرة**
— الدعـوة الاســلامية وفلسـفتها — عصر الخلفـــاء الراشـدين

٢ — **الجزء الثانى :** (الطبعة السابعة)

الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية فى عهدها .

٣ — **الجزء الثالث :** (الطبعة السابعة)

الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الأول ، وبدور المسلمين فى خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية .

٤ — **الجزء الرابع :** (الطبعة السادسة)

— **الاندلس الاسلامية ، وانتقال الحضـــارة الاسلامية الى اوربا عن طريقهـا .**
— المغرب — الجزائر — تونس — ليبيـــا (من مطلع الاســلام حتى العهد الحاضر) .
— السنوسية : مبادئها وتاريخها .

٥ — **الجزء الخامس :** (الطبعة السادسة)

— **مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر .**
— **الحروب الصليبية : دوافعها — أدوارها — نتائجها .**
— **الامبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن .**

٦ — **الجزء السادس :** (الطبعة الثالثة)

الاســلام والدول الاســلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخلهــا الاســلام حتى الآن :

— دراسة عن وسائل انتشار الاسلام :
مراكز الشمال — هجرات عربية وغير عربية — التجار — الطرق الصوفية — مراكز داخلية .
— الدول الاسلامية قبل الاستعمار الأوربي :
غانة — مالي — صنغى — دول الهوسا — برنو — باجــرمى — واداى — الفونج — مقدشو — مملكة الزنج .
— الدول الاسلامية الحالية :
موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيــا — مالى — النيجر — نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال — جيبوتى .

٧ — **الجزء السابع :** (الطبعة الثالثة)

الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق :
— دول الجزيرة العربية من مطلع الاسلام حتى الآن :
المملكة العربية السعودية — اليمن — جمهورية اليمن الجنوبية — عمان — دولة الامارات العربية — قطر — البحرين — الكويت .
— العراق من مطلع الاسلام حتى الآن .

٨ — **الجزء الثامن :** (الطبعة الثانية)

الاسلام والدول الاسلامية غير العربية بآسيا من مطلع الاسلام حتى الآن :
ايران — افغانستان — الباكستان — بنجلاديش — ماليزيا — اندونيسيا
الأقليات الاسلامية فى الهند والصين وروسيا والفيليبين ..

دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر

٩ — **الجزء التاسع :** (الطبعة الثالثة)

ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم . عصر محمــد نجيب وعصر جمــال عبد الناصر (عصر المظالم والهزائم) .

١٠ — **الجزء العاشر :**

ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم ، عصر أنور السادات . (عصر النجاح فى الشئون الخارجية والفشل فى الشئون الداخلية) .
(ترجمت أكثر اجزاء هذه الموسوعة لعدة لغات)

كتب المؤلف

ثانيا : موسوعة النظم والحضارة الاسلامية

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة اجـزاء ، تبرز الاتجاهات الحضارية التى جاء بها الاســلام لهداية البشرية فى شـئون العقيدة ، والسياسة ، والاقتصــاد ، وفى مجــال الحيــاة الاجتماعية والتربوية والعســكرية ، والتشريعية والقضائية ، كما تبرز جهود المسلمين فى الحضارة التجريبية ،

واجزاؤها هى :

١١ — الجزء الأول : تاريخ المناهج الاسلامية (الطبعة الثالثة)

مناهج التعليم فى صدر الاسلام — انحرافاتها فى عصــور الظلام — وجوب تصحيحها .

١٢ — الجزء الثانى : الفكر الاسلامى : منابعة وآثاره (الطبعة السادسة)

١٣ — الجزء الثالث : السـياسة (الطبعة السادسة)

فى الفــكر الاســلامى

مع المقارنة بالنظم السياسية المعاصرة .

١٤ — الجزء الرابع : الاقتصــاد (الطبعة السادسة)

فى الفــكر الاســلامى

مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعاصرة . ومع دراسة شاملة للنقاط التالية :

١ — الاســلام والمسلمون فى مواجهة المشكلة الاقتصادية .

٢ — مبادىء الاسلام الاقتصادية .

٣ — الاسلام والقضايا الاقتصادية الحديثة (شهادات الاستثمار ...) .

٤ — من تاريخ الاقتصــاد فى الاسلام (بيت المال : موارده ومصارفه ...) .

٥ — النظم الاقتصادية فى العالم عبر العصور واثر الفكر الاسلامى فيها .

١٥ — الجزء الخامس : التربية الاسلامية (الطبعة الثامنة)
نظمها — تاريخها — فلسفتها

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة التربية عند المسلمين ، ولمناهج التعليم وأمكنته ، ولحالة المدرسين المالية والاجتماعية ، والاجازات العلمية ، والعقوبات ، والجوائز ، والمكافآت ، وملابس المدرسين ، ونقابة المعلمين ، وتكافؤ الفرص بين التلاميذ ، وتوجيههم حسب مواهبهم ..

١٦ — الجزء السادس : المجتمع الاسلامى (الطبعة السادسة)
اسس تكوينه .. أسباب ضعفه .. وسائل نهضته

١٧ — الجزء السابع : الحياة الاجتماعية (الطبعة الثالثة)
فى الفكر الاسلامى

— فى نطاق الأسرة : كالختان وتحديد النسل وعمل المرأة ...

— وفى نطاق المجتمع : كالأفراح والمآتم والموسيقى والغناء ...

١٨ — الجزء الثامن : تاريخ التشريع الاسلامى (الطبعة الثالثة)
وتاريخ النظم القضائية فى الاسلام
مع بحوث واسعة عن القرآن الكريم : المصدر الأول للتشريع
ومع دراسة شاملة لمصادر التشريع الأخرى

١٩ — الجزء التاسع : الجهاد والنظم العسكرية (الطبعة الثالثة)
فى الفكر الاسلامى

بحث علمى يبرز موقف الاسلام من السلم والحرب ، كما يبرز اتجاهات الاسلام فى مشكلات الحرب كالاستعداد للجهاد ووسائله ، واخلاق المجاهد ، والخديعة فى الحروب ، والثبات والفرار ، والرباط ، والتجسس والخيانة ، والهدنة والأسرى ..

٢٠ — الجزء العاشر : رحلة حياة (الطبعة الثالثة)
تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الاسلامية

كتب للمؤلف

ثالثا : مقـــارنة الأديـــان

سلسلة من الكتب فى مقارنة الأديان ، تعتمـد على أدق المراجـع بمختلف اللغات ، وتمتاز دراستها بالجدة والعمق وتشمل :

٢١ — الجزء الأول : اليهـودية : (الطبعة السابعة)

— دراسة لشتى المسائل اليهودية : اليهـود فى التاريخ من عهـد ابراهيم حتى الآن : الصهيونية ، انبياء بنى اسرائيل ، عقيدة بنى اسرائيل ، يهوه اله بنى اسرائيل ، التعدد والتوحيد فى الفكر اليهودى ، التابوت والهيكل ، الكهنة والقرابين ...

— مصادر الفكر اليهودى : العهد القديم ، التلمود ، بروتوكولات حكماء صهيون .
— اليهود فى الظلام : الماسونية ، والروتارى ، الاغتيال ، التجسس ، البابية والبهائية .
— من صور التشريع فى اليهودية .

٢٢ — الجزء الثانى : المسيحية : (الطبعة السابعة)
— المسيح والمسيحية فى نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة .
— بولس واضع المسيحية الحالية ، التثليث ، صلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر .
— شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية ، المجامع ، طبيعة المسيح والآراء فيها ، الطوائف المسيحية ، الرهبنة والاديرة ، خرافة ظهور العذراء فى كنيسة الزيتون ، حركة الاصلاح الدينى ونتائجها ونقدها .

٢٣ — الجزء الثالث : الاســـلام : (الطبعة السابعة)

— الله فى التفكير الاسلامى ، النبوة فى التفكير الاسلامى ، غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى ، الدين المعاملة ، المرأة فى الاسلام ، الرق وموقف الاسلام منـه ، السياسة والاقتصاد فى الاسلام .

٢٤ — الجزء الرابع : اديان الهند الكبرى : (الطبعة السابعة)
« الهندوسية — الجينية — البوذية »
— تقديم عن : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات فى الهند ، الأديان فى الهند .
— دراسة الكتب المقدسة الهندية : الويدا : مهابهارتا : يوجاواسستها ، كيتـا .
— أهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الانطلاق والنرفانا ، وحدة الوجـود .
— تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ واضعيها .

كتب للمؤلف

رابعا : كتب فى الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية

٢٥ — كيف تكتب بحثا او رسالة (الطبعة السابعة عشرة)

دراسة منهجية لكتابة البحوث واعداد رسائل الماجستير والدكتوراه

كتابان باللغة الانجليزية هما :

٢٦ — ISLAM : Belief - Legislation - Morals
٢٧ — History of Muslim Education
مكتبة النهضة المصرية

وكتب باللغة الاندونيسية والماليزية :

٢٨ — Negara dan Pemerintahan Dalam Islam
٢٩ — Masjarakat Islam
٣٠ — Hukum Islam
٣١ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam 1
٣٢ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam 11
٣٣ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam 111
٣٤ — Perbandingan Agama (Jahudi)
٣٥ — Perbandingan Agama (Masihi)
٣٦ — Perbandingan Agama (Islam)
٣٧ — Perbandingan Agama (Agama2 yang Terbeser di India : Hindu-Jaina-Buddha)
٣٨ — Sadjarah Pendidikan Islam
٣٩ — Politik dam Ekonomi Dalan Islam
٤٠ — Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam
٤١ — Perkembangan Keagamaan Dalam Islam dan Masehi
٤٢ — Perang Salib
٤٣ — Kurikulum Islam Dalam Perkembangan Sedjarah
٤٤ — Pengajian Al Quraan
٤٥ — Sedjarad Kehakiman Dalam Islam

Pustaka National (Singapore)

كتب للمؤلف

خامسا : المكتبة الاسلامية لكل الأعمار

١٠٠ جزء من سير عظماء الاسلام ومن التاريخ والحضارة وقصص القرآن للأولاد والشباب والسيدات والرجال
ظهر منها الأجزاء التالية :

المجموعة الأولى : السيرة النبوية العطرة :

ج ١ محمد قبل البعثة
ج ٢ من غار حراء .. الى غار ثور (قصة الاسلام فى مكة)
ج ٣ الاسراء والمعراج : دراسة تصحيح للقضاء على الشطحات .
ج ٤ الهجرة للمدينة ووسائل الاستقرار بها
ج ٥ الرسول الداعية ومربى الدعاة
ج ٦ الرسول فى بيته : ازواجه — أولاده واحفاده — خدمه
ج ٧ الرسول فى بيته : مشكلات الحياة فى بيت الرسول وكيف عالجها
ج ٨ الرسول بين أصحابه — الرسول يربى الفرد المسلم ويربى المجتمع الاسلامى
ج ٩ الرسول يربى القضاة ، ويربى القوة العسكرية ، ويربى الولاة والحكام
ج ١٠ الرسول والشباب — الرسول والعمل
ج ١١ توجيهات طبية يقدمها الرسول — مكرمات للرسول — الرسول والمنافقون
ج ١٢ الرسول والنصارى — الرسول واليهود
ج ١٣ الاسلام والقتال ، وهل انتشر الاسلام بالقوة او بالدعوة — غزوة بدر ودراسات جديدة حولها — أهم احداث غزوة بدر
ج ١٤ غزوة أحد والهزيمة التى اخافت المنتصر — غزوة الأحزاب وكلمة عن سلمان الفارسى
ج ١٥ صلح الحديبية — كتب الرسول للملوك والرؤساء — غزوة مؤتة وبدء الصراع ضد الروم .
ج ١٦ فتح مكة — غزوة حنين والطائف — غزوة تبوك — الفترة الأخيرة فى حياة الرسول

المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة :

ج ١٧ (١) ابو بكر الصديق : حياته وعصره والمشكلات التى واجهها

ج ١٨ (٢) عمر بن الخطاب والتوسع فى عهده — عمر بانى الدولة الاسلامية

ج ١٩ (٣) عثمان بن عفان والفتنة فى عهده

ج ٢٠ (٤) على بن ابى طالب : شخصيته وحياته والمشكلات التى واجهها

ج ٢١ (٥) طلحة بن عبيد الله (٦) الزبير بن العوام

ج ٢٢ (٧) سعد بن ابى وقاص (٨) ابو عبيدة بن الجراح

ج ٢٣ (٩) عبد الرحمن بن عوف (١٠) سعيد بن زيد بن عمرو

المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية :

ج ٢٤ نظرة عامة للقرآن الكريم — طريقة الوحى — نزول القرآن وتدوينه — أسماء السور وترتيبها — قراءات القرآن — فضائل القرآن — القرآن والعلم — فضائل قراءة القرآن وحكم التطريب فى أدائه والتكسب به .

ج ٢٥ خصائص القرآن والأصول التى جاء بها لخير الناس فى الدنيا والآخرة — اعجاز القرآن ومظاهر الاعجاز — معجزات الرسل فى ميدان المقارنة .

ج ٢٦ غير العرب والاعجاز البلاغى للقرآن — وجوه الاعجاز فى القرآن — مواجهة واقعية بين العرب والقرآن — التكرار فى القرآن : أسراره واعجازه .

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم :

ج ٢٧ دراسات عن القصص فى القرآن — قصة أصحاب الكهف .

ج ٢٨ قصة الرجلين والجنتين — قصة ذى القرنين ويأجوج ومأجوج .

ج ٢٩ قصة موسى والخضر — قصة أصحاب الجنة .

ج ٣٠ قصة عزير — قصة أيوب عليه السلام

ج ٣١ قصة قارون — قصة أصحاب الأخدود .

ج ٣٢ قصة اسماعيل عليه السلام .

ج ٣٣ قصة يوسف عليه السلام .

(**الأجزاء التالية ستظهر تباعا ان شاء الله**)

(لم تدخل أعداد « **المكتبة الاسلامية** » ضمن العدد الخاص بكتب للمؤلف)

كتب للمؤلف

سادسا : تعليم اللغة العربية لغير العرب

وقواعد اللغة العربية

— برنامج شامل ميسّر لتعليم اللغة العربية بكل فروعها لغير العرب .
— أول سلسلة من نوعها فى المكتبة العربية تملأ هذا الفراغ .
— دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف .
— تضم هذه السلسة الكتابين التاليين :

٤٦ — تعليم اللغة العربية لغير العرب : (الطبعة الثالثة)
يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى : مرحلة الهجاء ، ويتطور للقراءة ، فالتعبير ، فالاملاء ، فالخط والنصوص ، ثم يقفز بالطالب الى مرحلة متقدمة فى القراءة والمحادثة والكتابة ، مستعملا فى هذه المرحلة موضوعات جذابة من الفكر الاسلامى والعربى اختيرت من امهات الكتب العربية ثم صيغت فى اسلوب مناسب ، مع أسئلة وتمرينات مفيدة .

٤٧ — قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها : (الطبعة الثالثة)
عرض لجميع ابواب النحو العربى بطريقة تربوية سهلة
ودراسة واضحة لأهم أبواب الصرف

هذا الكتاب ضرورى للمثقف العربى وغير العربى

كتب نفدت ولن يعـــاد طبعها

٤٨ — فى قصور الخلفاء العباسيين :
أكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٣ من هذه القائمة .

٤٩ — مصر فى حربين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) دراسة مقارنة :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٩ من هذه القائمة .

٥٠ — الحكومة والدولة فى الاسلام :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٣ من هذه القائمة .

٥١ — الاشتراكية : دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحى :

٥٢ — النظم الاقتصادية فى العالم عبر العصور وأثر الفكر الاسلامى فيها .
وأكثر مادة هذين الكتابين تضمنها الكتاب رقم ١٤ من هذه القائمة .

محتويات الكتاب

الدولة الأموية

الشيعة

عبد الله بن الزبير

الخــوارج

الموضـــــــوع	الصفحة

المعتزلة والمرجئة والجبرية

فهرس الخرائط والمخططات

مقـدمة الطبعـة الأولى

تاريخ يحتاج الى إنصاف :

باسم الله العلى العظيم نبـدأ دراسـتنا لتاريخ الدولة الأمـوية وللحركات الفكرية والثورية فى عهدها ، ونحن ندرك الصعوبات التى تقابل الباحث وهو مقدم على دراسة تاريخ هذه الحقبة ، فلقد تحالفت ظـروف كثيرة على الحط من شأن الأمويين بقصد أو بدون قصد ، وتكاد المراجـع التى بين أيدينا تخلو خلوا تاما من كلمة مدح أو ثناء على أكثر خلفاء هـذه الدولة ، أما عبارات القذف والطعن فقد أسهبت فيها كتب كثيرة واقتصدت كتب أخرى ، وكان أيسرها ما اكتفى باللوم والتقريع •

ما الأسباب التى دعت الى ذلك ؟ وكيف الطريق لإحقاق الحق ؟

الاجابة عن ذلك أن بنى أمية وقفوا وجها لوجه أمام بنى هاشـم ؛ وقف معاوية فى وجه علىٌ وصارعه وكُتِبَ له النصر ، ووقف يزيد فى وجه الحسين وسقط الحسين بسيوف يزيد ، وسقط زيد بن على بن الحسين وابنه يحيى فى معارك ضد جيوش الأمويين ، ولهـذه الدمـاء أثرها لدى الرواة والكتّاب ، فأما رواة الشيعة وكتّابهم فقد وقفوا يعلنون سخطهم على بنى أمية ، ويصفونهم بالقسوة والوحشية ، وأما غير هؤلاء من الرواة والكتاب فربما لم يروا هذا الرأى ، ولكنهم خافوا شعور الجماهير ، فآثروا السلامة وأغفلوا الموضوع كله أو لم يتعمقوا فيه •

ولا نزاع أن الأمر كان يختلف اختلافاكبيرا لو هبَّ معاوية يتهم رجالا غير علىٌ بأنه آوى قتلة عثمان وكوّن منهم جيشه ، ولو نشط يزيد فى وجه ثائر آخر غير الحسين فهزمه ، وهكذا دواليك ، فالمسألة فى الحقيقة ليست الا استغلالا لدماء القتلى باعتبارهم من آل البيت ، وأمسك من أ[illegible]هم

« مدعى التشيع » بهذا الأمر ، وحركوا به العواطف ، وكان مدعو التشيع فى أغلب فترات ذلك العهد يكوّنون طبقة الغوغاء ، ويثيرون الفوضى للنيل من الاسلام والمسلمين حتى يثأروا لأديانهم وعقائدهم المهزومة ، وكانوا لا خلاق لهم مع علىّ نفسه ، ومع أبناء علىّ ، فطالما خدعوهم ، بل قل إنهم هم الذين قتلوهم بسيوفهم ولما فرغوا من دمائهم أخذوا ينوحون عليهم أو يتظاهرون بذلك ، ويطلبون الأخذ بثأرهم كما سنرى فيما بعد •

وطبقة كهذه من الغوغاء كانت مخيفة أزعجت الرواة فلم ينقلوا من مفاخر الأمويين كل ما كان يمكن أن ينقل ، وأزعجت الكتاب فلم يدونوا ما وصلهم من أقوال الرواة ، وضاعت الحقائق التاريخية بين هذا الظلام الذى أسدله على العالم طغيان من أسموا أنفسهم « شيعة أهل البيت » وهم فى الحقيقة ألد أعداء أهل البيت وألد أعداء الاسلام •

وسقطت الدولة الأموية قبل عهد التدوين وقامت على أثرها دولة بنى العباس ، وقد مسحت دولة بنى العباس كل ما يمكن أن يكون قد بقى حيا من مفاخر بنى أمية ، وبدلا من ذلك أضفت على تاريخ الأمويين ألوانا من الظلام وصنوفا من التشويه •

ولا نزاع أن العلويين عانوا من بنى العباس أكثر مما عانوه من بنى أمية ، ولكن ذلك لم يدوّن تدوينا كافيا ، لأن بنى العباس امتد بهم العمر ودوّن التاريخ فى عهدهم ، فتأثر بسلطانهم ونفوذهم ما كتبه كثير من المؤرخين •

لقد اتُهِم يزيد بن معاوية بالجهل وسوء السيرة ، واتُهِم بذلك يزيد ابن عبد الملك وابنه الوليد ، ولا شك أنه وجد بين خلفاء العباسيين والفاطميين من كانوا كذلك ، ومع هذا فقد أسدل التاريخ الستار على كثير من مساوىء هؤلاء ، واهتم المؤرخون بانتقاص بنى أمية باحثين عن أسباب الانتقاص هنا وهناك •

واذا تركنا هؤلاء الضعاف الذين لا بد من ظهورهـــم فى كل دولة ، فاننا نرفع بعض أسماء الأمويين الى أسمى طبقة بين ساسة العالم كله فى مختلف عصوره ، ونضع دون تردد بين هؤلاء أسماء معاوية وعبد الملك ابن مروان والوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز ، وبعض خلفاء الأمويين بالاندلس ، ونقرر دون تردد أيضا أنه قل من يضارع هؤلاء بين خلفاء بنى العباس وخلفاء الفاطميين والأدارسة .

والعجيب أن أغلب المؤرخين المحدثين من مسلمين أو مستشرقين تلقوا ما كتبه المؤرخون الأول على أنه حقائق ، فجاءت أكثر الدراسات الحديثة بعيدة عن الانصاف كما سنشير الى بعضها فى هـــذا التقـــديم وفى أثناء الدراسة ، **وجدير بتاريخ الأمويين أن يكتب من جديد وأن تتخذ أسســـه من الواقع ، أى من حضارة الأمويين التى لا تزال تنطق بها دمشق وغيرها من العواصم الاسلامية ومدن الأندلس ، ومن صنوف التفكير التى أنتجها العقل الأموى كالبريد والسكة وتعريب الدواوين وتنظيم الجيوش وغيرها ومن انتصارات الأمويين التى ســـجلت زحفا للاســـلام لا يزال واضـــح الجانب ، ومن أسس أخرى ستكون عمادنا فيما نقوم به من دراسة .**

لقد اتهموا الأمويين بأنهم حـــكام عرب وليســـوا حكاما مســـلمين ، واستدلوا على ذلك بأنهم اضـــطهدوا الموالى ، والعجيب أنه وجـــد بين المؤرخين الأوربيين من جذبة هذا الرأى مثل Wellhausen الألمـــانى ولكن هذا الاتهام لا يقوى أمام النقد البرىء وأمام الدراســـة العميقة ، وحقيقة الأمر أن الفرس انضموا لعلى منذ العهد الباكر وحاربوا جيـــوش معاوية ، ثم اثاروا الفتن والدمار والتخريب ، واشعلوا ألوانا من الحروب ضد الأمويين وضد المسلمين على العموم ، وكان من نتيجة ذلك أن استحقوا سخط الأمويين .

فالمسألة لم تكن أكثر من دفاع عن النفس وكراهية متبادلة بين الفرس وبين الأمويين ، وكان المقصود من تحدى الفرس للأمويين إضعاف الجبهة الاسلامية ، ولقد كان بسوريا نفسها — موطن الخلافة الأموية — مسلمون

من غير العرب ، وكان بمصر مسلمون من غير العرب ، وكذلك كان فى شمالى افريقية ، ولم ينل هؤلاء من سخط الأمويين ما ناله أهل فارس الذين بدءوا الخصومة واستمروا يتلمسون السبل لإشعال نارها .

ومما أخذ على بنى أمية أنهم شرعوا سبّ على بن أبى طالب فى حياته، فلما مات استمروا على ذلك المنكر . وتساءل الناس : كيف لم يتسع حلم معاوية لذلك الأمر ، فيترك سب خصمه الذى مات ؟ وقيل فى هذا انه — أن عد عيبا شخصيا — لا يقلل من صلاحية معاوية أو غيره من أبطال بنى أمية للخلافة ، ولا يحط من أقدارهم كقادة وساسة مبرزين ، وربما جاز لنا أن نأخذ الأمر من ناحيته السياسية فنذكر أن بنى امية اضطروا لذلك اضطرارا ليصرفوا العامة من الناس عن تعلقهم بآل البيت لأنهم آل البيت ، فأخذوا يسبون عليا لا لشىء الا لأجل حماية دولتهم ، وقد وضح عبد العزيز بن مروان هذا الأمر فى حديث له مع ابنه عمر ، قال عمر بن عبد العزيز : كان أبى عبد العزيز بن مروان يمر فى خطبته يهدّها هدًّا ، حتى اذا وصل الى ذكر أمير المؤمنين علىّ تتعتع ، فسألته فى ذلك فأجاب : يا بنى أدركت هذا منى ؟ قلت : نعم . قال : يا بنى أعلم أن العوام لو عرفوا من على ما نعرفه لتفرقوا عنا الى ولده (١) .

فمثل هذا السبب كان دواء للعوام ، فلا شك أن الذى يترك معاوية لعلى يستطيع أن يجد وسيلة يسبب بها هذا التصرف ، ولكنه من فعل العوام أن يدع رجل معاوية وينضم الى ولد على لا لكفاءة ، ولا لدهاء سياسى أو مقدرة حربية ، وانما فقط لأنه ابن على ، وشعور العامة هذا هو الذى دفع بنى أمية ليسبوا عليا ولينسبوا اليه أشياء أغلب الظن أنهم لا يؤمنون بها .

والذى يدعونا الى التماس العذر كذلك لمعاوية فى موقفه من سب على أن معاوية كان معروفا بالحلم وغفران السيئات ، فقد اتسع حلمه لعمرو بن

---

(١) ابن طباطبا الفخرى ص ١١٠ — ١١١

العاص وجذبه اليه ، وسنرى فيما بعد أن احساس كل منهما نحو الآخر لم يكن وديا ، واتسع حلمه لزياد بن أبيه ، وكان زياد من أتباع على وقد تأبى على معاوية طيلة حياة على ، فلما مات علىّ أمّنه معاوية واسترضاه وغفر له ، واتسع كذلك للمغيرة بن شعبة الذى كان قد اعتزل الفتنة ، واتسع لمروان بن الحكم الذى كان قد بايع لعلى ، واتسع لغير هؤلاء واتسع حلمه وكرمه للحسن والحسين فلم يمسسهما سوء فى حياته ولا نقص شىء مماوعدهمابه ، فالذى يجعله يستمر على موقفه من سبّ علىّ بعد موته انما هو محاولة توطيد سلطانه بصرف العامة عن علىّ وبنيه .

وفى هذا التقديم نذكر المؤرخين وبخاصة المسلمين منهم بألوان الحلم والاصلاح وسعة الصدر التى امتاز بها رجال مثل معاوية وعبد الملك والوليد وعمر بن عبد العزيز ، ونذكرهم كذلك بالزحف الاسلامى الذى قام به هؤلاء فاتحين أو معلمين مبشرين ، فلقد قام الثلاثة الأول بدفع راية الاسلام الى الأمام فى عدة جبهات حتى أصبحت تخفق على رقعة واسعة من الأرض تشمل الملايين أو مئات الملايين من البشر ، وقام الرابع بمثاليته وصلاحه بجذب هؤلاء الملايين الى الاسلام فاستجابوا أو قل انهم انهالوا وحدهم ينضمون للدين الذى انتج مثل هذا الخليفة النادر ، وقد ضاعت الاندلس التى فتحها الأمويون ولكن ضياعها كان فى غير عهد الأمويين ، فالمسئول عن ضياعها أولئك الذين كان فى أيديهم حكمها .

ذلك شعاع من النور نبدأ به هذه الدراسة نقصد به إحقاق الحق وتنبيه الدارسين ، الذين يسيرون على النهج الذى رسمه الآخرون دون تفكير فى دوافعه ، ودون يقظة ذهنية تعيد الأمور الى نصابها ، وما أحوجنا فى حياتنا الاسلامية الحاضرة الى خلافة كخلافة بنى أمية تعيد وحدة العالم الاسلامى ، وتعيد قوته التى كانت تهدد أعظم الممالك فى ذلك العهد ، وفى ضوء هذا الشعاع سنسير فى دراستنا غير معادين للأمويين ولكن غير مدافعين أيضا . وانما باحثين عن الحق مهما صادفنا من متاعب فى سبيل البحث عنه ، فإذا عثرنا عليه اثبتناه فرحين به غير ناظرين لسواه .

وهذا التقديم يقودنا الى أن ننتقد بقوة ما ذكره Nicholson (١) من أن « المسلمين عدوا انتصار بنى أمية وعلى رأسهم معاوية انتصارا للأرستقراطية الوثنية التى شنت العداء على الرسول وصحبه والتى جاهدها الرسول جهادا طويلا حتى أخضعها لسلطانه » ولسنا ندرى من هم المسلمون الذين يعنيهم نيكلسون ، فالذى يحدثنا عنه التاريخ بصراحة أنه فى أثناء الصراع بين على ومعاوية كانت كفة معاوية تزداد رجحانا يوما بعد يوم ، فى حين كانت كفة على تشيل وتضعف ، وأن كثيرين من أساطين المسلمين وفدوا على معاوية وأيدوه لما رأوا من الاستقرار عنده وما كان من الفوضى والتمرد بين أتباع على ، حتى اذا مات على كان طبيعيا أن التف المسلمون حول معاوية جميعا ، ويثبت معاوية أسباب انتصاره على على فيبين أن منها أنه كان أقرب الى قريش من علىّ ، وتلك حقيقة تكاد تكون واضحة لكل الباحثين فى التاريخ الاسلامى ، يقول معاوية : أُعِنْتُ عَلَى علىّ بأربعة : كنت أكتم سرى وكان رجلا يظهره ، وكنت فى أصلح جند وأطوعه ، وكان فى أخبث جنده وأعصاه ، وتركته وأصحاب الجمل وقلت : إن ظفروا به كانوا أهون علىّ منه وإن ظفر بهم طعنته بقتلهم ، وكنت أحب الى قريش منه (٢) .

وقد سبق أن أوردنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب (٣) رأى الأستاذ الخضرى فى على وأنه لم يكن محبوبا من شيوخ عصره لاهماله مشورتهم ولشدة اعتداده بنفسه ، ويختم الأستاذ الخضرى عرضه لهذا الموضوع بقوله : إن من أكبر الأسباب فى عدم استقامة الأمر لعلى يرجع إلى عقيدته فى نفسه ، وثقته المتناهية بما يراه ، واستغنائه عن رأى الأشياخ من قريش ، وشدته عليهم ، ويقارن الأستاذ الخضرى بين شدة عمر وشدة على بقوله :

---

(١) A Literary History of the Arabs p. 139.

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٣٦٦ — ٣٦٧ .

(٣) ص ٦٣٤ من الطبعة الحادية عشرة .

ان عمر كان يشتد والأمة كلها معه ، ولكن عليا كان يشتد ومعظم الأمة عليه (١) .

ويبدو أن نيكلسون قال بهذا الرأى السطحى معتمدا على تأخر بنى أمية فى دخولهم الاسلام ، وليس ذلك بمقياس صحيح ، فقد تأخر عمر فى دخول الاسلام عن عثمان وسعد وطلحة والزبير .. ولكن ذلك لم يجعل أحدا منهم يرجح عمر ، وقد اعتز المسلمون جميعا وفى قمتهم الرسول صلوات الله عليه بدخول أبى سفيان دين الاسلام ، وكرّمه الرسول بأن جعل بيته حراما يجد فيه الناس الأمن والدعة ، ويوم تولى معاوية تبعه الناس جميعا ولكن يوم تولى على هب فى وجهه الآلاف هنا وهناك ، وهذا الرأى الذى أوردناه يزكيه فان فلوتن اذ يقول : « كان السواد الأعظم من العرب يرى فى حزب بنى أمية حزب الدين والنظام (٢) .

والطريقة التى اتبعناها فى تأليف هذا الكتاب هى الطريقة التى وعدنا بها فى الجزء الأول وسرنا على نهجها هناك ، وهى طريقة دراسة الأفكار مجمّعة موحدة ، فقد جرت عادة المؤرخين أن يتكلموا عن الفتوحات فى عهد معاوية عند الكلام عن معاوية ، وعن الفتوحات فى عهد الوليد عند الكلام عن الوليد ، وهكذا ، كما جرت عاداتهم أن يذكروا نشاط الشيعة ونشاط الخوارج مبعثرة تبعا لكل خليفة ، واعتقادى أن هذا تمزيق للفكرة ، وتركيز لكل نشاط الدولة فى شخص الخليفة ، ولذلك تحدثت عن الخلفاء فيما يتصل بهم وبميولهم وأخلاقهم وأعوانهم ، أما الفتوحات فقد جُمِعَت فى مكان واحد حيث تحدثنا عن « الفتوحات فى عهد الدولة الأموية » فدرسناها فى ميادينها المختلفة ميدانا بعد ميدان ، وأما الشيعة والخوارج وغيرهما من الحركات الفكرية والثورية ، فقد نالت كل منها دراسة مستقلة شملت الناحية الفكرية والناحية الثورية ، وذلك يجعلنا أولا نرى الشعوب وما كان لها من

---

(١) تاريخ الأمم الاسلامية ج ٢ ص ٨٤ .

(٢) فان فلوتن : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات فى عهد بنى أمية ترجمة الدكتور حسن ابراهيم ص ٦٩ .

موجات فكرية وحركات ، ويجعلنا ثانيا نرى الموضـــوع الواحـــد فى مكان واحد ، فذلك أقرب لنيله والتعمق فيه وأرجـــو أن تلاقى هـــذه الطريقة رضـــا القراء .

والآن هيـــا بنا الى دراسة فترة تعـــد فى القمة من فترات التـــاريخ الاسلامى ، هى فترة الخلافة الأموية ، والله المسئول أن يهيىء لنا الهدى والقوة والرشاد وأن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، انه ســـميع مجيب .

جوكجاكرتا فى الثالث من يوليو ١٩٦٠

دكتور أحمـــد شلبى
مدير المركز الثقافى العربى بجاكرتا
والأستاذ بجامعات اندونيسيا

مقـــدمة الطبعـــة الثانيـــة

يسرنى بالغ السرور أن أقدم للقراء الأعزاء الطبعة الثـانية للجزء الثانى من « موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية » ، وهـو جزء يحوى تاريخ فترة من أهم فترات التفوق العربى والاسلامى ، انهـا فترة الأمويين بما لها من مآثر خالدة وآثار عميقة .

وموسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاســلامية بأجزائها التى ظهرت حتى الآن لقيت عناية المؤرخين والقراء ، وقد كتب لى كثيرون منهم يوجهون الثناء ، ومن الحق على أن أوجه الثناء اليهم ، فان اقبالهم هـو الذى دفعنى الى مضاعفة الجهد ومحاولة المزيد من الاجادة ، وكتب آخرون يطلبون تحقيق فكرة أو مزيدا من الشرح ، فاستجبت لرغباتهم ما استطعت السبيل لذلك ، اذ لا بد أن يقوم ارتباط بين المؤلف وقرائه .

والحمد لله مانح التوفيق ، واهب النعم ، وباسمه تعالى أزف هـذه الطبعة للقارىء الكريم بما فيها من تعديلات وزيادات اقتضاها اسـتمرار البحث والتنقيب ودوام الاتصـال بالقـارىء ، الذى نعمـل له ونجـد لارضائه .

والله ولى التوفيق .

المؤلف

فى الرابع من ديسمبر سنة ١٩٦٥

فى التقـــديم للطبعـــات التالية

أحق ما أذكره فى هذه المناسبة :

شكر الله على كريم عونه ،

وشكر القارىء على عظيم اقباله ،

ودعوة أن تظل معنا عناية الله وتأييده ،

ووعد بمضاعفة الجهد فى خـــدمة الدين والوطن باخلاص لا يعرف التردد ، واصرار لا يعرف الكلال .

ومن الزيادات المهمة التى ظهرت فى الطبقات المتأخرة ما يلى

١ — رأس الامام الحسين وأين مدفنها الآن .

٢ — السيدة زينب بنت الامام عـــلى وموقفهـــا فى كربلاء ومدفنها الآن .

٣ — مزيد من التحقيق عن مواقف عبد الله بن الزبير .

ومن الله العلى العظيم نسأل العون و التوفيق .

المؤلف

فى الثانى و العشرين من يناير سنة ١٩٨٢

فى التقـــديم للطبعة السـابعة

وابتداء من الطبعة السابعة كتبت نقطة شـــديدة الأهميـــة هى أن الفرق التى تسمى « الفرق الاسلامية » ليست فى الحقيقة إسلامية ، وليست لها جذور من الفكر الاسلامى ، وانما هى حركات ظهرت فى فترات الضعف متأثرة بعوامل خارجية ، وليست كالفرق فى اليهودية أو المسيحية، وأرجو أن يتدبر القارىء هذا الرأى الجديد بما يستحقه من عناية .

فى الثانى و العشرين من يناير سنة ١٩٨٤

الدولــة الأمـــوية

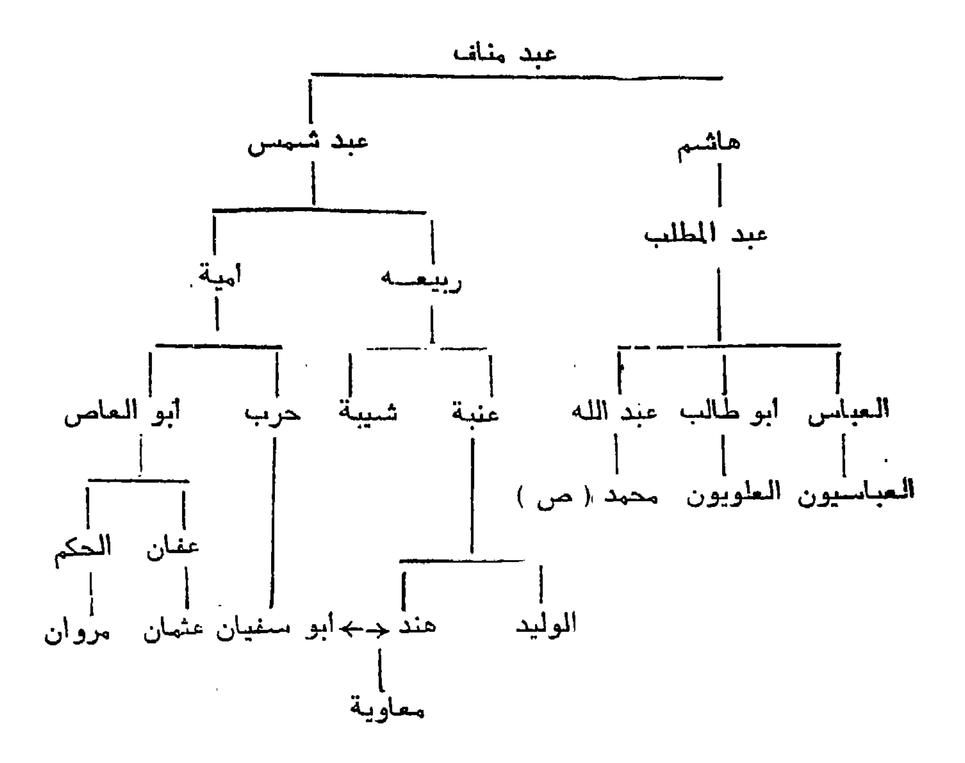
والحركات الفكرية والثورية خلالهـــا

الدولة الأمـــوية (٤١ ــ ١٣٢ هـ)

تعريف بهـــا :

تنسب الدولة الأموية الى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وكـــان أمية هذا سيدا من ســـادات قريش فى الجاهلية ، وكان هو وعمه هاشـــم ابن عبد مناف متنافسين على الرياسة والشرف ، وقد تجمع لأمية عناصر السلطان فى الجاهلية ، فهو منحدر من أرومة مجيدة ، وله مال كثير ، وعشرة من الأولاد النجباء ، واذا تجمعت هذه الأركان الثلاثة لشخص فى الجاهلية ضَمِنَ الشرف السؤدد •

ولما جاء الاسلام تغيرت العلاقة بين بنى أمية وبين أبناء عمومتهم بنى هاشم ، اذ انقلاب التنافس الى عداء ظاهر ، لأن بنى أمية وقفوا موقفـــا حازما ضد الرسول ودعوته ، وأما بنو هاشم فقد عاونوا الرسول وحرسوه سواء منهم من دخل الاسلام ومن لم يدخل فيه ، وفى غزوة بدر كانت قوة قريش متركزة تقريبا فى بنى عبد شمس ، فأبو سفيان كان صـــاحب العير التى كانت قادمة من الشام الى مكة ولما استنفر قريشا لمســـاعدته بعد أن عرف أن المسلمين سيقطعون عليه الطريق ، نفر أهل مكة بقيادة عتبة بن ربيعة بن شمس جد معاوية لأمه•وهكذا كان قائد العير وقائد النفير من بنى عبد شمس ، وكانت حينذاك تتمثل فى هذا الفرع ، من فروع قريش العزة والاباء ، ولهذا كان يضرب المثل بذلك فيقال للخامل : لست فى العير ولا فى النفير ، ولم يدخل بنو أمية الاسلام الا بعد أن لم يبق طريق غير الدخول فيه ، عندما زحف محمد بآلف التابعين له المؤمنين برسالته وقيادته ليدخل بهـــم مـــكة •



عبـد منـاف

الجد الأعلى للأسر الاسلامية التى حكمت فى القرون الاولى

وعلى هذا كان بنو أمية من المتأخرين فى دخـول الاسـلام ، ومن أشد الأعداء له قبل أن يدخلوا فيه ، ولكن ما ان دخلوا فيه حتى أظهـروا بطولة رائعة وحماسة بالغة ، وكأنما كانوا يريدون أن يعوضوا ما فاتهـم من السبق ، وأن يُنسـوا الناس بمـواقفهم مع الاسلام ما فعلوه ضده ، فلقد أبلوا بلاء حسنا فى حروب الردة والمتنبئين ومانعى الزكاة ، كما كانوا سيوفا مشهرّة وقوى هائلة فى زحف الاسلام خارج الجزيرة العربية كمـا سبق القول فى الجزء الأول من هذه الموسوعة ، وحسـبنا أن نذكر هنا أن أبا سفيان زعيم بنى أمية فَقَدَ إحدى عينيه وهو يشـترك مع الرسول فى مغازيه ثم فقد الأخرى فى موقعة اليرموك وهو يقاتل تحت امرة ابنه يزيد ، كما كانت هند زوجة أبى سفيان وأمّ معاوية تشترك فى حـروب الفتوح ، وروى عنها أنها كانت تَصيح فى النساء قائلة : عضّدوا الرجال بسيوفكم .

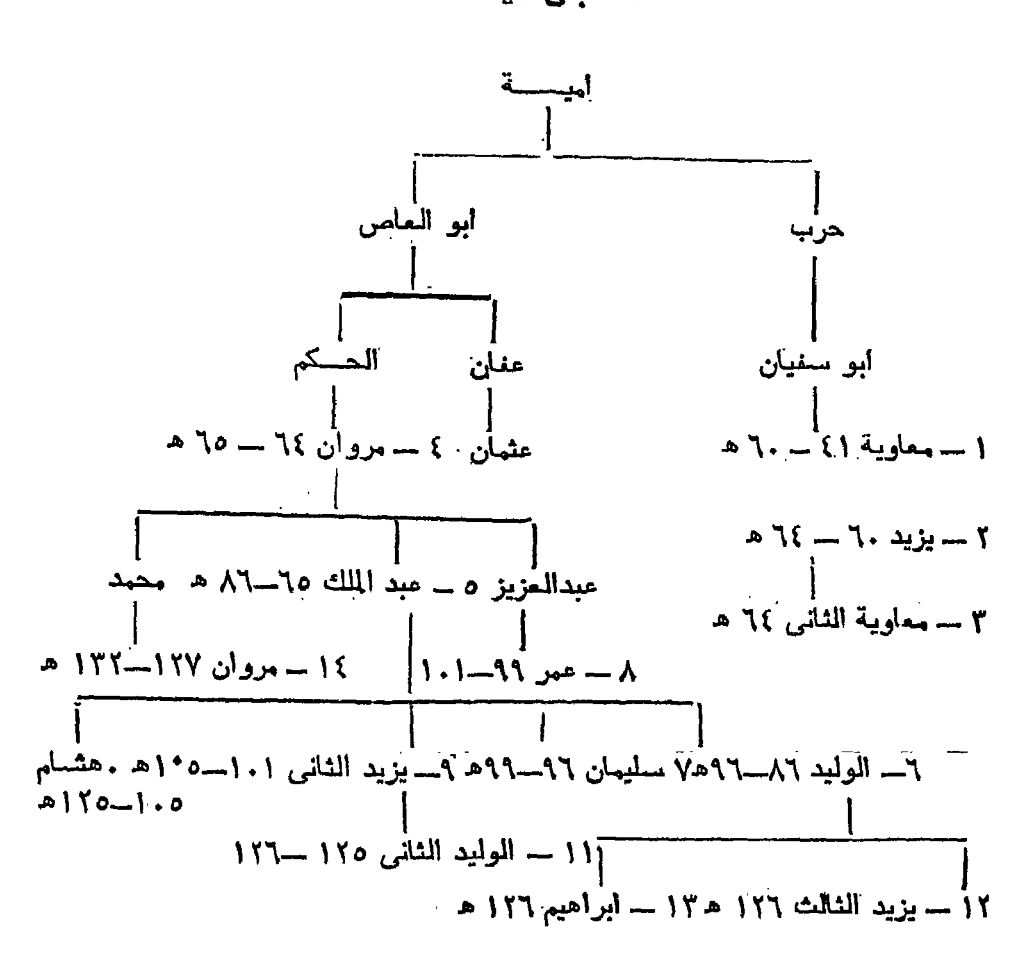
وقد تطلع بنو أمية للخلافة منذ عهدها الباكر ، ولكنهم لم يكن لهـم فيها أمل فى عهد أبى بكر وعمر ، فلما طُعِن عمر وأَسْنَد الشورى لستة من الصحابة فيهم عثمان ظهرا أمل بنى أمية ونما ، وأيدوا ترشيح عثمان علانيةوجهارا وفاز عثمان فاتجه بنو أمية الى تأسيس خلافة أموية منذ ذلك الحين ، حتى ليمكن القول إن الخلافة الأموية بدأت منذ تولية عثمان ، فلقد كان جهد معاوية متجها فى عهد عثمان الى تقوية نفسه واعداد الشام ليكون لها مستقبل السلطان الاسلامى . ويُرْوى أن معاوية دخل على أبيه حينما استعمله عمر على الشـام . فقـال له أبوه : يا بنى ، ان هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا ، فرفعهم سبقهم وقصَّر بنا تأخـرنا ، فصرنا أتباعا وصاروا قادة ، وقد قلّدوك جسيما من أمرهم ، فلا تخالفنّ أمرهم فانك تجرى الى أمد لم تبلغه ، ولو بلغتـه لتنفست فيه (1) ، واسـتجاب معاوية لرأى والده ونُصْحِه ، فأحسن السيرة ومهّد لنفسه فى الشام ، ولم ينزل معاوية عن سلطانه بعد مقتل عثمان ، وظل يصارع عليا حتى خر علىّ وانتقلت الخلافة رسميا الى معاوية .

---

(1) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج 1 ص ١٤ — ١٥ .

ولبنى أمية فرعان كانت فيهما الخلافة ، هما فرع حَرْبِ بن أمية وفرع أبى العاص بن أمية ، وأكثر الخلفاء من الفرع الثانى ، أما الفرع الأول فليس منه الا معاوية وابنه يزيد وحفيده معاوية الثانى ، ولم ينعم يزيد بالملك لحظة ، أما معاوية الثانى فلم يبق فى الملك الا بضعة أيام ، وهكذا ناضل معاوية نضالا طويلا من أجل الخلافة ولما مات لم تستقر الخلافة فى أولاده ، وبذل معاوية جهدا ضخما ليبايع لابنه يزيد من بعده ولكن المشكلات الجسام كانت فى انتظار الابن ، فلم يضعه أبوه فوق السلطان ولكنه وضعه فوق الرحى التى استمرت تدور به دون استقرار حتى سقط ميتا ، فسبحان الله مالك الملك .

خلفاء بنى أميـــة



ومن ملاحظة هذا الجدول يبدو لنا أن خلفاء الدولة الأموية أربع عشرة ومدتها احدى وتسعون سنة ، وهناك أربعة من الخلفاء كانت مدتهم سبعين عاما هم معاوية وعبد الملك والوليد وهشـــام ، أمـــا العشرة الباقون فمدة خلافتهم احدى وعشرون سنة فقط .

تعريف بخلفاء بنى أميــة :

معــاوية (٤١ ــ ٦٠ هـ)

ولد معاوية قبل الهجرة بحوالى خمسة عشر عاما ، ودخل الاســلام يوم فتح مكة مع من دخل من أهل مكة ، وكانت سنه آنذاك ٢٣ عاما ، وكان الرسول حريصا على أن يقرب اليه حديثى العهد بالاسلام من عظماء الأسر حتى يضمن اقبالهم على هذا الدين ويتيح لهم الفرصة ليتعمق الاسلام فى قلوبهم ، وعلى هذا قرب الرسول إليه معاوية وضمه الى كتّاب الوحى(١)، وقد روى معاوية عن الرسول وعن كبار الصحابة وعن أخته زوجة الرسول أم حبيبة بنت أبى سفيان ، كما روى عنه عبد الله بن العباس وسعيد ابن المسيب وآخرون •

وكان يزيد بن أبى سفيان قائد أحــد الجيوش الأربعــة التى وجهها أبو بكر لفتح الشام ، وكانت وجهته دمشق ، ولما أراد أبو بكر أن يرســل مددا لهذه الجيوش كان معاوية على رأس المدد الذى أرسله ليزيد ، وحارب معاوية تحت امرة أخيه ، وتولى قيادة الفيلق الذى فتح صــيدا وبيروت وغيرهما من سواحل الشام ، ولما تم النصر للمسلمين فى عهــد عمر ، ولى يزيد ولاية دمشق ، كما جعل معــاوية واليا عــلى الأردن ، وتوفى يزيد فى طاعون عمواس فى عهد عمر ، فضم عمر الى معاوية ولاية دمشق ، وكــان معاوية قوى الشكيمة ، أمينا الى أبعد حدود الأمانة ، سياسيا بارعا ، وهذا مما حببه لعمر • ولما جاء عهد عثمان جُمعت لمعــاوية ولاية الشــام كله ، وأصبح حكام الشام تحت أمره يوليهم ويعزلهم ، وظل أميرا عشرين عاما كما أصبح بعد ذلك خليفة عشرين عاما (٢) •

وفى عهد عثمان استطاع معاوية أن يكوّن نفسه ، ويضع الأساس

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١٩٤ .
(٢) المرجع السابق ص ١٩٥ .

لملكه ، وأن يجعل الشام تحت نفوذ المطلق بحيث لا تصرف لها حاكما سواه .
فلما قتل عثمان وبويع على كان الأوان قد آن ليبدأ دور معاوية ، واعتقادى أن معاوية ما كان ينزل عن حكم الشام أيا كان الخليفة الذى يتولى بعد عثمان ، وأيا كان السبب الذى ينهى حكم عثمان ، مقتولا مات أو مات ميتة عادية .

وهناك حديث مهم جرى بين معاوية وكبار الصحابة إبان الفتنة التى قتل فيها عثمان ، وهذا الحديث يصور لنا قوة معاوية واستعداده الكامل لما قد تدفع اليه الأحداث . قال ابن قتيبة يروى هذا الحديث :

قدم معاوية بن أبى سفيان فى خلال الفتنة من الشام الى المدينة ، فأتى مجلسا فيه على بن أبى طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعمار بن ياسر ، فقال لهم : يا معشر الصحابة ، أوصيكم بشيخى هذا خيرا ، فوالله لئن قتل بين أظهركم لأملأنها عليكم خيلا ورجالا ، ثم أقبل على عمار بن ياسر — وكان أشد الثائرين على عثمان — فقال له : يا عمار ، ان بالشام مائة ألف فارس كلهم يأخذون العطاء مع أبنائهم وعبدانهم ، ولا يعرفون عليا ولا قرابته ، ولا عمارا ولا سابقته ، ولا الزبير ولا صحابته ، ولا طلحة ولا هجرته ، ولا يهابون ابن عوف ولا ماله . ولا يتقون سعدا ولا دعوته ، فإياك يا عمار أن تقع فى فتنة إن عرفت أولها فقد لا يعرف آخرها (١) .

وفى ضوء هذا الاستعداد عارض معاوية خلافة على ، ووجد العذر الذى يظهره وهو أنه ولى دم عثمان ، وأن عليا تهاون فى الدفاع عن عثمان وآوى قتلته ، وبدأت سلسلة من المعارك أهمها صفين التى هزم فيها معاوية فى ميدان القتال ، وانتصر فى ميدان الحنكة والسياسة كما قلنا عند الحديث عن على فى الجزء الأول من هذه الموسوعة ، وبعد معركة صفين قامت عدة

---

(١) الامامة والسياسة ج ١، ص ٢٨ .

معارك انتقص فيها معاوية ملك على وضيق عليه ، وكان على يعانى عناد خصمه وقوته ، ويعانى عناد الخوارج وقوتهم ، ويعانى فى العراق تمرد أتباعه وتفاقهم وقعودهم عن نصرته ، وفى نفس الوقت كان معاوية مسموع الكلمة ، يعلو شأنه السياسى من يوم الى يوم ، واستراح على من هذه المشكلات عندما طعنه ابن ملجم طعنة قاتلة ، وخلا الأمر لمعاوية .

وبعد مقتل على قامت محاولة ضئيلة ترمى الى البيعة للحسن بن على، أو قل انه قد بويع فعلا من بعض الشيعة ، ولكن هذه المحاولة سرعان ما انهارت حينما أشيع أن قائده قيس بن سعد بن عبادة قد قتل ، فاذا ببعض أهل العراق — الذين كانت الفوضى ونكث العهد قد أصبحا من أبرز خصائصهم — ينهالون على بيت الحسن ، يهتكون حرماته ، وينهبون متاعه حتى نازعوه بساطا كان يجلس عليه ، ولم يسلم الحسن نفسه من بعض الطعنات من هؤلاء البرابرة الغادرين (١) .

على أن الحسن بن على كان قد عاصر المشكلات التى عاناها أبوه ، وعرف الحسن أن أباه لم يستطع أن يتغلب عليها ، واذا كان البطل عجز عن حل هذه المشكلات فما أحرى الحسن بطلب السلامة ، ايمانا منه أن تيار الأحداث كان أقوى منه ، على أن صفات الحسن لم تكن تهيئه للخلافة . فلم تكن له ميزة أعظم من أنه ابن على ابى طالب ، وهذه لا تكفى قطعا لنيل المكانة ، فلم يكن للحسن علم أبيه ، ولم تكن له بطولة أبيه ، ولم تكن له سليقة أبيه ، ومع هذا غلبت أباه الأحداث ، فأنى للشاب الذى يروى أنه تزوج مائة زوجة (٢) أن يملأ هذا الفراغ ، لقد قيل انه كان يجر على أبيه المتاعب ويخلق له الأعداء بسبب كثرة الزواج والطلاق حتى أوصى على الناس ألا ينكحوه بناتهم(٣)، فكيف يستطيع الحسن أن يقود الناس

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ١٢٢ .

(٢) عقيدة الشيعة ص ٨٦ وفى تاريخ الخلفاء للسيوطى (ص١٩١) أن زوجاته كن تسعين ، أما سرارية فكن مئات ، واعتقادى أن هذه الأرقام مبالغ فيها وأنها من وضع أعدائه ، ولكن يبدو أنه كان كثير التزوج على أى حال .

(٣) عقيدة الشيعة ص ٩٠ .

ويوجه الأمور ؟ لذلك نجده يقنع بشروط اشترطها لنفسه ولذويه ، ويتعهد بالتنازل عن حقه فى الخلافة اذا قبل معاوية هذه الشروط وهى :

١ — ألا يأخذ معاوية أحدا من أهل العراق بإحنة •

٢ — وأن يؤمن الأسود والأحمر ، ويحتمل ما يكون من هفوات الناس •

٣ — وأن يجعل له خراج الأهواز مسلمًا كل علم •

٤ — وأن يحمل الى أخيه الحسين ألفى ألف درهم •

٥ — وأن يفضل بنى هاشم فى العطاء على بنى شمس (١) •

ولم تكن هذه الشروط موضع نظر من معاوية ، فانه كان مستعدا أن يعد بأى شىء نظير تنازل الحسن ، ولذلك يقال انه عندما عرف ميل الحسن للصلح على أساس التنازل نظير شروط ، أرسل له صحيفة بيضاء ممضاة ليكتب فيها ما يشاء من شروط •

وتم الصلح على هذا الأساس وتنازل الحسن لمعاوية وأعلن أنه سامع له مطيع (٢) •

ودخل معاوية الكوفة بعد ذلك (ربيع الثانى سنة ٤١هـ) حيث التقى الحسن ومعاوية ، وبايع الناس معاوية ، وبايع معهم الحسن والحسين ، وسُمِّى ذلك العام عام الجماعة لاجتماع الناس فيه على خليفة واحد ، وعاد معاوية بعد ذلك الى دمشق حيث اتخذها عاصمة للخلافة بعد أن كانت عاصمة امارته ، وعاد الحسن وأسرته الى المدينة وبقى بها حتى توفى سنة خمسين أو احدى وخمسين ، ويقال أنه توفى مسموما ، وأن زوجته هى التى سمته بايعاز من يزيد بن معاوية حتى يخلو له الجو بعد معاوية ، ولكن ذلك

---

(١) عقيدة الشيعة ص ٨٦ •
(٢) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٢٤ •

الاتهام لم يثبت ، فقد روى أن الحسين جهد به ليخبره عمن سقاه ، فأجاب : الله أشد نقمة ان كان الذى أظن ، وإلا فلا يقتل بى برىء (١) .

ويروى ابن قتيبة قطعة من الأدب الرفيع تتصل بموت الحسن ، قال : لما بلغ معاوية خبر موت الحسن أظهر فرحا وسرورا ، فلما عرف عبد الله بن العباس ذلك دخل على معاوية ، فقال له معاوية : يا ابن عباس ، هلك الحسن . فأجاب ابن عباس : نعم هلك ، انا لله وانا اليه راجعون ، وقد بلغنى الذى أظهرت من الفرح والسرور لوفاته ، أما والله ما سد جسده حفرتك ، ولا زاد نقصان أجله فى عمرك ، ولئن أصبنا به لقد أصبنا بمن كان خيرا منه ، جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجبر الله مصيبته ، وخلف علينا من بعده أحسن الخلف . وبكى ابن عباس وبكى الحاضرون جميعا ، قال معاوية : كم ترك بنين صغارا . قال ابن عباس : كلنا كان صغيرا فكبر . قال معاوية : كم له من العمر ؟ فأجاب ابن عباس . الحسن أعظم من أن يجهل أحد مولده . قال معاوية : أصبحت يا ابن عباس سيد قومك . قال ابن عباس : أما ما أبقى الله أبا عبد الله الحسين فلا . قال معاوية : لله أبوك يا ابن عباس ما استنبأتك الا وجدتك مستعدا (٢) .

صفات معاوية ومبتكراته :

وصفات معاوية أهلته للنجاح فى المنصب الكبير الذى تولاه ، فمنصب الحاكم يحتاج الى حزم أحيانا والى سماحة أحيانا أخرى ، وكان معاوية موهوبا فى الناحيتين ، يقول ابن طباطبا (٣) : كان معاوية جيد السياسة ، حسن التدبير لأمور الدنيا ، عاقلا حكيما ، فصيحا بليغا ، يحلم فى موضع الحلم ويشتد فى موضع الشدة ، الا أن الحلم كان أغلب عليه ، وكان كريما

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١٩٢ .
(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ١٦٦ — ١٦٧ .
(٣) الفخري في الآدب السلطانية والدول الاسلامية ص ٩٢ — ٩٣ .

باذلا للمال محبا للرياسة مشغوفا بها ، حسن الصلة بأفذاذ رعيته ، فلا يزال أشراف قريش مثل عبد الله بن العباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله ابن عمر ، وعبد الرحمن بن أبى أبـكر ، وأبان بن عثمان بن عفان ، وناس من آل أبى طالب يفدون عليه بدمشق فيكرم مثواهم ويحسن قراهم ويقضى حوائجهم ولا يزالون يحدثونه أغلظ الحديث ويجبهونه أقبح الجبه وهـو يداعبهم تارة ويتغافل عنهم أخرى ، ولا يعيـدهم الا بالجوائز السـنية والصلات الجمـة • ومن حلمه أنه قال يومـا لقيس بن سـعد بن عبادة : يا قيس ! والله ما كنت أود أن تتكشف الحروب التى كانت بينى وبين على وأنت حى • فأجابه قيس : والله انى كنت أكره أن تتكشف هذه الحـروب وأنت أمير المؤمنين • فلم يقل له شيئا • ومما أثر عن معاوية قـوله : انى لا أضع سيفى حيثيكفينى سوطى ، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى ، ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ، كانوا اذا شـدوها أرخيتها • واذا أرخوها شددتها (١) •

ويرى المبرد (٢) فلسفة لمعاوية فى معاملته خصـومه اذ يقول : انى لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وان لـم تكن الا كلمة يشتفى بهـا مشتف جعلتها تحت قدمى ودبر أذنى • ووصفه عبد الله بن العباس فقال : ما رأيت أليق من أعطاف معاوية بالملك والرياسة ، ومر عبد الملك بن مروان بقبر معاوية فأكثر الترحم عليه ، فقيل له : قبر من هذا ؟ فأجاب قبر رجل كان والله ينطق عن علم ويسكت عن حلم ، كان اذا أعطى أغنى واذا حارب أغنى (٣) • ويروى عن معاوية قوله : انى لأرفع نفسى عن أن يكون ذنب أعظم من عفوى ، وجهل أكثر من علمى ، وعورة لا أداريها بسترى ، واساءة أوسع من احسانى • ويروى عنه قوله كذلك : ما من شىء ألذ عندى من غيظ أتجرّعه (٤) •

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ١ ص ٢٩ •
(٢) الكامل جـ ١ ص ٦١ •
(٣) الفخرى لابن طباطبا ص ٩٥ — ٩٦ •
(٤) الطبرى جـ ٤ ص ٢٤٨ •

وقد ابتكر معاوية فى خلافته أشياء لم يسبق اليها ، فهو الذى أمر أن ترفع الحراب بين يديه ، وهو الذى وضع المقصورة ليصلى بداخلها فى المسجد ليأمن هجمات الأعداء عليه حين صلاته ، وقد كان ذلك بسبب قتل عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وهما يصليان (١) • ومن مبتكرات معاوية كذلك تَرْقِيَة نظام البريد بحيث كانت الخيل المضمرة تقف مستعدة فى مراكز على طول الطريق ، فيركب صاحب البريد واحدا منها ويسرع به حتى يصل الى محطة أخرى فيستبدل به غيره ويتركه ليستريح وهكذا ، وأنشأ معاوية كذلك ديوان الخاتم (٢) •

أعوان معاوية :

ومن أعوان معاوية الذين اعتمد عليهم فى تذليل الصعاب وكبح جماح المتمردين عليه عمرو بن العاص ، وقد مر بعض الحديث عنه ، ولكنا نضيف نقطة مهمة توضح فطنة معاوية ودهاءه ، تلك أن أحاسيس عمرو تجاه معاوية لم تكن ودية ، ولا كانت أحاسيس معاوية ودية تجاه عمرو ، ولكن ادراك معاوية أن عمرا أحد الدهاة المشاهير وحاجته لمثل هذا الداهية ، وادراك عمرو أنه يستطيع أن يجنى ثمار ما يقدمه لمعاوية من خدمات ، هذا الادراك من الداهيتين جعلهما يتعاونان ويتبادلان المنفعة ويخفى كل منهما ما فى نفسه تجاه الثانى ، وقد كان ذلك الاحساس المكنون يظهر من حين لآخر ، ولكن كلا منهما كان من القوة والفطنة بحيث يستطيع أن يعيد هذا الاحساس الى ستره ومخبئه • حدث ابن طباطبا (٣) قال : « ومن دهاء معاوية استمالته لعمرو بن العاص أحد الدهاة المشاهير ، وقد كان عمرو عندما نشبت الفتنة بين على ومعاوية معتزلا الفريقين ، فرأى أن يستميله

---

(١) المرجع السابق ٩٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٤ وصبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٦٨ وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٠٠ والسياسة فى الفكر الاسلامى للمؤلف ص ١٥٦ وما بعدها .

(٣) الفخرى ص ٩٣ .

ويتقوى به ، ووعده ولاية مصر ، ومصر كانت الأمل الذى تهفــو له نفس ابن العاص ، وبهذا انضم عمرو الى معاوية وساعده مساعدة كبيرة مع أنه لم يكن بينهما مودة قلبية ، وكان يتباغضان سرا ، وربمــا ظهــر ذلك على صفحات وجهيهما وفلتات ألسنتهما ، ومما يدل على ذلك أن معاوية ســأل يوما جلساءه وفيهم عمرو : ما أعجب الأشياء ؟ فكانت اجابة عمرو قوله : أعجب الأشياء أن المبطل يغلب المحق • وكان بذلك يعرّض بعلى ومعاوية ، فقال معاوية يرد عليه : بل أعجب الأشياء أن يعطَى الانسان ما لا يستحق اذا كان لا يخاف • وكان معاوية بذلك يعرض بعمرو وولاية مصر • ومع ما كان بين الاثنين فقد اتسعت نفس معاوية لعمرو واستفاد منه وأفاده » •

ومما يدل على ذلك أيضا ما رواه الطبرى (١) أن عليا شــق الجموع فى موقعة صفين حتى أصبح على مقربة من معاوية ، ثم صاح به : يا معاوية علام يقتتل الناس بيننا ؟ هلم أحاكمك الى الله فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور • فقال عمرو لمعاوية : أنصفك الرجل • فقــال معــاوية لعمرو : ما انصفت اذ حثثتنى على مبارزته وانك لتعلم أنه لم يبــارزه رجــل قط الا قتل • قال عمرو : ولكن لا يجمل بك الا مبارزته • فأجاب معاوية : طمعت فيها بعــدى •

ويروى الطبرى (٢) كذلك أنه لما بايــع الحسن معاوية ودخــل هذا الكوفة واجتمع بالناس فى المسجد أراد معاوية أن يخطب الناس فأشــار عليه عمرو أن يقدّم الحسن ليخطب الناس ، ولكن معاوية كان سيىء الظن بعمرو فقال له : أما تريدنى أن أخطب الناس ؟ فأجاب عمرو : بلى ، ولكنى أريد أن يبدو عىّ الحسن للجماهير ، والح على معاوية فاستجاب وقــدم الحسن ، فأجاد هذا فى خطابه القصير وغمز فيه معاوية وختم خطابه بقوله

---

(١) تاريخ الأمم والملوك جـ ٤ ص ٣٩ ، وانظر كذلك الامامة والسياســة لابن قتيبة جـ ١ ص ١٠٣ •
(٢) تاريخ الأمم والملوك جـ ٤ ص ١٢٤ •

تعالى « وان أدرى لعله فتنة لكم ومتاع الى حين » (١) فاغتاظ معاوية من عمرو وقال له : هكذا أردت يا ابن العاص •

ولما كمل الأمر لمعاوية أعطى مصر لعمرو طعمة له جزاء خدماته ، فظل واليا عليها حتى مات سنة ٤٣هـ ، وبعده ولاها معاوية عبد الله بن عمرو ابن العاص فبقى واليا عليها حوالى سنتين (٢) •

ومن أعوان معاوية كذلك المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه وعبيد الله ابن زياد •

والمغيرة بن شعبة كان والى الكوفة لمعاوية ، والكوفة والبصرة أكثر البلاد عداء للأمويين ، ولذلك كان يختار لهما أقوى الولاة وأكثرهم إخلاصا ، وكان المغيرة من أحسن الولاة الذين ساسوا الكوفة لأنه استطاع أن يضمن الطاعة لأمير المؤمنين بأقل ما يمكن من الضحايا والدماء ، وقد وضح سياسته بقوله : لا أحب أن أبدأ أهل المصر بقتل خيارهم وسفك دمائهم فيسعد الخليفة بذلك وأشقى ، ويعز فى الدنيا معاوية ويذل المغيرة فى الآخرة ، ولكنى قابل من محسنهم ، وعاف عن مسيئهم ، وحامد حليمهم ، وواعظ سفيههم ، حتى يفرق بيننا الموت : ولكن يؤخذ على المغيرة استمراره على الطعن واللعن له ، ولعل ذلك كان اتباعا لسياسة ذلك العصر • وقد ظل المغيرة واليا على الكوفة حتى مات سنة ٥١ هـ فضم معاوية ولاية الكوفة الى والى البصرة ذى اليد الحديدية والقلب القاسى زياد بن أبيه •

وزياد بن أبيه هذا كان واليا لعلى على فارس ، وقد حاول معاوية أن يستميله فى حياة على فلم يستطيع ، فلما قتل على خشى زياد على نفسه فاعتصم بفارس ولم يبايع ، ورأى معاوية أن يتغلب عليه بالحكمة فأرسل اليه المغيرة بن شعبة وما زال به حتى بايع بعد أن أرسل اليه معاوية كتاب أمان •

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٦ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك جـ ٤ ص ١٣٧ — ١٣٨ •

ويعرف زياد هذا بزياد بن أبيه أو بزياد بن سمية نسبة الى أمه سميا ، اذ لم يكن له أب معروف ، فقد حملت به أمه نتيجة اتصال غير شرعى ، ويقال إن أبا سفيان اعترف قبيل موته بحضرة بعض الشهود بأنه الذى اجتمع بأم زياد ، وزياد على كل حال ليس مسئولا عن هذه الجريمة التى ارتكبتها أمه أو ارتكبها الرجل الذى اتصل بأمه ، ووهب الله زيادا براعة فائقة وبطولة نادرة ، مما حدا بأبى سفيان أن يصغر بأنه أبوه . ولكن نسب زياد الى أبى سفيان لم يثبت الا فى عهد معاوية سنة ٤٤ هـ حيث اعترف معاوية بأخوته له لينتفع به وبمواهبه ، ومنذ ذلك الحين أصبح يطلق عليه زياد بن أبى سفيان(١) .

وقد ولاه معاوية البصرة وخراسان وسجستان ، وكانت بلاد العراق كثيرة الشغب على معاوية ، وكان الفسق والفجور والفواحش كثيرة الانتشار فى بلاد العراق ، ولذلك استعان معاوية على هذه البلاد بأمتن الناس صلة به وأقواهم الى اعادة الأمور الى نصابها ، ولما دخل زياد البصرة خطب الناس خطبته المعروفة بالبتراء لأنه لم يبدأها بحمد الله ، وهى خطبة قوية جدا عدد فيها مساوىء أهل البصرة وتوعدهم بالويل والثبور ، وأقسم لهم فيها « ليأخذن الولى بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصى .. حتى تستقيم قناتهم » (٢) . وبر زياد فى قسمه بل زاد عليه أن أخذ بالشبهة . ومما يروى عن أخذه الناس بغير حق أن العسس قبضوا على أعرابى وجد فى الخلاء مساء ، وكان زياد قد حرم على الناس أن يخرجوا من بيوتهم ليلا ، فلما مثل الأعرابى بين يديه سأله زياد : هل سمعت النداء ؟ فأجاب : لا والله ، قدمت بحلوبة لى وغشينى الليل فأقمت لأصبح ، ولا علم لى بما كان من الأمر . فقال زياد : أظنك صادقا ، ولكن فى قتلك صلاح الأمة ، وأمر به فضربت عنقه(٣)

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٦٣ .
(٢) اقرأ هذا الخطاب فى الطبرى ج ٤ ص ١٦٥ — ١٦٦ .
(٣) الطبري ج ٤ ص ١٦٧ .

تلك كانت سياسته الطاغية ، ولكنا نتفق مع المرحوم الأستاذ الخضرى فى قوله « ان عهد زياد بالعراق على ما فيه من قسوة كان عهد رفاهة وأمن ، وهذا مما يسطره التاريخ لعرب العراق آسفا ، وذلك أنهم قوم لا يصلحهم الا الشدة ، واذا وليهم وال فيه لين ورحمة فسدوا وارتكبوا المصاعب وأجرموا الى الأمراء والخلفاء من غير بينة واضحة (١) .

وقد ظل زياد واليا على البصرة ، فلما مات المغيرة بن شعبة والى الكوفة ضم معاوية الكوفة الى زياد سنة ٥١ هـ ، كما قلنا من قبل ، وكان زياد أول من ولى الكوفة والبصرة معا (٢) ، وقد ظل زياد واليا عليهما حتى مات سنة ٥٣ هـ . فكان يقيم ستة أشهر بالكوفة وستة أشهر بالبصرة كما روى ذلك الطبرى (٣) ولم تكن الكوفة والبصرة وحدهما هما التابعتين لزياد وانما امتد حكمه الى نصف الامبراطورية الشرقى برمته ، وتركز اهتمام معاوية فى الغرب (٤) .

واذا قورن زياد بالمغيرة رجحه المغيرة ، فالمغيرة حقق الهدف الذى حققه زياد بضحايا أقل ، وذلك هو مقياس عظمة الرجال .

ويرى أستاذنا الخضرى ونرى معه أن الطريقة التى اتبعها زياد ، واتبعها المغيرة أحيانا ، هى بمثابة النظام العرفى الذى تلجأ له الدول فى الظروف الخاصة ، فليس بطبيعة الحال نظاما عاما خاضعا للقانون الاسلامى العادل (٥) .

ومن ولاة العراق القساة عبيد الله بن زياد ، وكان يسير سيرة أبيه ، وقد بدأ معاوية بتوليته خراسان عقب وفاة زياد فأبلى فيها بلاء حسنا .

---

(١) محاضرات فى التاريخ الاسلامى ٢ : ١٧٤ .
(٢ ، ٣) الطبرى جـ ٤ ص ١٧٤ .
(٤) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ١ : ١٤٧ .
(٥) محاضرات فى التاريخ الاسلامى ص ١٠٧ .

ثم نقله معاوية الى البصرة سنة ٥٥ هـ عندما عرف فيه قـوة الشكيمة التى كان يعرفها فى أبيه ، فلم يزل واليا على البصرة حتى توفى معاوية (١) فلمـا ثارت الكوفة فى عهد يزيد ، وكتب أهلها يستدعون الحسين ، وأرسل هـذا ابن عمه مسلم ابن عقيل ليرود له الطريق فاجتمع حوله أهل الكوفة ، حينئذ أشار ناصحو يزيد عليه أن يعزل والى الكوفة النعمان بن بشير وأن يضم ولاية الكوفة لعبيد الله بن زياد والى البصرة فعمل يزيد بذلك (٢) ، فقدم عبيد الله الى الكوفة وسارت الأحداث على نحو ما سنوضح فيما بعد عند الحديث عن الشيعة .

ونختم حديثنا عن معـاوية ذاكرين أن عهـده كان من أنضر عهـود الخلافة الاسلامية ، كان فيه الأمن الداخلى مستتبا ، فقد غلبت على أمرها كل العناصر المعادية لمعاوية ، غلبت بخلقه وعطائه أو بسيفه ومضائه ، وكان عهده حافلا بالرخاء والغنى ، أما العلاقات الخارجية فقد كان للمسلمين فيها النصر والغلبة ، كما سنوضح ذلك عند الحديث عن الفتوحات الاسلامية . لقد كان عهد معاوية طويلا ولكنه كان عريضا أيضا ، حفل بكل الأسـباب التى تنبىء عن دولة عظيمة وأمة ناجحة .

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ٢٥٨ .
(٢) المرجع السابق .

يزيد (٦٠ — ٦٤ هـ)

هو يزيد بن معاوية وأمه ميسون الكلبية ، وهى امرأة بدوية تزوجها معاوية قبل أن يلى الخلافة ولكنها لم تحتمل حياة الحضر ، ويروى عنها شعر تحن فيه الى حياة الخيام ودنيا البادية وتذم القصور واللباس الشفوف ، فأعادها معاوية الى أهلها ومعهاابنها يزيد ، فنشأ هذا فى البادية حيث أجاد اللغة والأدب والصيد ، بقدر ما جهل الخداع والسياسة والادارة .

البيعة ليزيد :

بدأت فكرة المبايعة ليزيد سنة ٤٩ هـ وكان الذى بدأ بها المغيرة ابن شعبة ، ويروى أنه أحس بأن معاوية ينوى عزله عن الكوفة ، فذهب الى الشام وقابل يزيد وقال له : ذهب أعيان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبراء قريش وذوو أسنانهم ، وانما بقى أبناؤهم وأنت من أفضلهم ولا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة . قال : أو ترى ذلك يتم ؟ قال : نعم (١) .

وأخبر يزيد أباه بذلك الرأى ، فاستدعى معاوية المغيرة وسأله فى ذلك ، فحسن المغيرة هذا الرأى ،ووصفه بأنه الطريق لحقن الدماء وجمع الكلمة ، فسأله معاوية : ومن لى بهذا ؟ فأجاب المغيرة : أنا أكفيك الكوفة ويكفيك زياد البصرة . وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك .

ويروى السيوطى(٢)دور المغيرة فى بيعة يزيد بصيغة أخرى ،قال : كتب معاوية الى المغيرة يقول : اذا قرأت كتابى فأقبل معزولا . فأبطأ المغيرة على معاوية ، فلما حضر سأله : ما أبطأ بك ؟ فأجاب : أمر كنت أوطئه وأهيئه ،

---

(١) انظر الطبرى ج ٤ ص ٢٢٤ .
(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٠٥ .

قال : وماهو ؟ قال : البيعة ليزيد من بعدك . قال : أو قد فعلت ؟ قال : نعم
قال معاوية : ارجع الى عملك .

ورواية ابن عبد ربه فى العقد الفريد قريبة من هذا (١) .

وعلى كل حال فقد وضع المغيرة هذه البذرة فى أرض خصبة فبدأت تنمو وتزدهر ، وكوفىء عليها بأن عاد الى الكوفة دون أن يعزل ، وقل كذلك ان حركة المغيرة كانت تعبيرا عن هوى فى نفس معاوية . هوى أغلب الظن أنه ساوره منذ مدة ، ولكنه كان ينتظر الأوان لابرازه ، فانتهز معاوية هذه الفرصة ليتحسس صدى هذا الرأى عند الآخرين ، فكتب الى زياد يستشيره ، فأجابه زياد بأن يتريث ، وأضاف بأن يزيد صاحب تهاون مع ما قد أولع به من الصيد (٢) . وكان القوم يعدون الصيد من أمور النزق والطيش فى ذلك الوقت ، فهدأت الفكرة الى حين .

ومات المغيرة ثم مات زياد ، وأصر معاوية على أن يحقق لابنه أمله ، واعتمد على عبيد الله بن زياد وأمثاله ممن بدءوا يرسلون اليه الرسل يؤيدون هذا الرأى ويثنون على يزيد . ولم يبق أمامه الا الحجاز يقوده الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن ابن أبى بكر ، وعبد الله بن عباس ، وقد أعلن هؤلاء رفضهم لتعيين يزيد وهاجموا هذه الفكرة ، فاضطر معاوية أن يذهب بنفسه اليهم بالمدينة ، فانتقل هؤلاء الى مكة ، فلحق بهم معاوية ، وهناك حادثهم وذكرهم ببره بهم وبأهليهم ، وصلته لأرحامهم مع كرههم له ، ودعاهم لمبايعة ابن عمهم يزيد ، فنفروا وثاروا فتوعدهم معاوية ، وصاح فيهم : « انى كنت أخطب فيكم فيقوم الى القائم منكم فيكذبنى على رؤوس الناس فأصفح ، وانى اليوم قائم بمقالة ، وأقسم بالله لئن رد علىّ أحد منكم كلمة فى مقامى لا ترجع اليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف الى رأسه ، فلا يبقين رجل

---

(١) اقرأ الجزء الأول ص ٩٧ — ٩٨ .
(٢) الطبرى جـ ٤ ص ٢٢٥ .

الا على نفسه » ثم دعا صاحب حرسه أمامهم فقال له : أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين مع كل منهما سيف ، فان ذهب رجل منهم يرد على وأنا أخطب بكلمة تصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما ، ثم خرج الى المسجد وأخذهم معه ، ورقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا يبتز أمر دونهم ، ولا يقضى الا عن مشورتهم ، وانهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا على اسم الله ولما سمع الناس هذا القول اعتقدوا أن زعماءهم بايعوا فأقبلوا فبايعوا (١) .

ولما مات معاوية تجددت البيعة ليزيد رضى الناس أو كرهوا ، وامتنع عن البيعة الزعماء السابقون ، فكتب يزيد الى واليه على المدينة أن يشدد على هؤلاء النفر ، فبايع ابن عمر وابن عباس ، وابن أبى بكر ، وامتنع الحسين ، وعبد الله بن الزبير وظلا على عنادهما ، وعمل كل منهما على أن ينال الأمر لنفسه ، وبدأ صراع سنعرض له فيما بعد ، سقط فيه الحسين فى كربلاء فى عهد يزيد ، فخلا جو المعارضة لابن الزبير الذى كون له خلافة استمرت بضع سنوات وظل يدافع عنها حتى سقط فى عهد عبد الملك بن مروان على يد الحجاج بن يوسف .

معاوية والبيعة ليزيد :

هل كان معاوية مصيبا أو مخطئا فى تعيينه ابنه يزيد خليفة من بعده ؟
عندى أن الاجابة عن هذا السؤال تكمن فى بضع نقاط هى :

أولا : كان معاوية مصيبا فى فكرة تعيين خليفة من بعده ، فالعالم الاسلامى آنذاك لم يكن قد نسى الأهوال التى مرت بعد قتل عثمان بسبب الطمع فى الخلافة ، وقد أيد فكرة التعيين كبراء الحجاز الذين سبق ذكرهم

---

(١) انظر رواية الطبرى ج ٤ ص ٢٢٥ وما بعدها ، وقد أورد السيوطى فى تاريخ الخلفاء ص ١٩٧ رواية اخرى تؤدى لنفس النتيجة ، وانظر كذلك العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٤ ص ٣٧١ وما بعدها .

عندما كتب معاوية لواليه على المدينة مروان بن الحكم يقـول له : « انى كبرت سنى ودق عظمى وخشيت الاختلاف على الأمة من بعدى ، وقـد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بهذا الأمر بعدى ، وكرهت أن أقطع أمرا دون مشورة من عندك ، فاعرض ذلك عليهم وأعلمنى بالذى يردون عليك » فلما أخبرهم مروان بنيّة معاوية فى تعيين خليفة من بعده وافقوا ، مع العلم أنه لم يحدد فى هذه المرحلة من سيكون ذلك الخليفة (١) .

ثانيا : نقم زعماء المدينة السالفو الذكر أن يعين معاوية ابنه خلفا له وصاح عبد الرحمن بن أبى بكر قائلا : « ما الخيـار أردتم لأمة محمـد ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل » ووافقه على ذلك غيره من الزعماء بالمدينة ، ولعمرى إن سؤالا مهما يخطر بالبال ويعجز الباحث أن يجد له جوابا وهو : لماذا لم يقل مثل هذا القول عندما كان على يطالب بالخلافة باسم قرابته من الرسول ؟ أو عندما تولى الحسن مكان أبيه عقب مقتل الأب ؟ ألا يجعلنا هذا نعتقد أن بنى هاشم هم الذين بدأوا بخلق فكرة التوارث فى الحكم الاسلامى ؟

ثالثا : ومن الناحية العملية كان نقل الخلافة من الأمويين الى غيرهم فى ذلك الوقت مطلبا يكاد يكون مستحيلا ، فالولاة على الأقاليم كانوا من بنى أمية أو من اتباعهم ، وانتقال الحكم الى الحسن مثلا سيكون معناه عـزل هؤلاء الولاة ، ثم رفضهم العزل أو رفض بعضهم ، ثم تكرار معارك الجمل ومعارك صفين على نحو أوسع . فلا يمكن أن نطالب بشىء دون أن يكون ممكن التنفيذ ، لقد كان الحكم فى عهدى أبى بكر وعمر يتبع هيئة معنـوية هى الخلافة الاسلامية ، فأصبح بحكم الظروف آنذاك يتبع شخص الخليفة .

رابعا : لم يكن معاوية يقصد الخير للمسلمين فى تعيينه ابنه يزيد بقدر

(١) اقرأ « السياسة فى الفكر الاسلامى » للمؤلف ص ١١٠ وما بعدها

ما كان يقصد تهيئة أسباب السعادة لابنه ، وهذا مما يؤخذ عليه ، ولو كان يريد الخير للمسلمين لاختار من بنى أمية من هو أصلح من يزيد .

خامسا : على أن معاوية مع عظم سلطانه لم يستطع أن يهمل ديمقراطية الاسلام ، فنجده يعمل عدة سنوات لتولية ابنه ، ويبذل العطاء ويقرب البعيد ، ويقوم برحلات نائية يسأل فيها الناس أن يبايعوا ليزيد ، ولولا ديمقراطية الاسلام لعين معاوية ابنه دون هذا العناء الذى تشعب وطال .

سادسا : لم يكن يزيد كفئا لهذا الأمر الضخم ، ولكن هل كان معارضوه أفضل منه ؟

هل يعد أفضل منه عبد الله بن الزبير الرجل الذى ينسب اليه أكثر من أى شخص آخر أنه أثار حرب الجمل ، ودفع بخالته عائشة وهى زوج الرسول الى أتون الحرب ، ففض بهذا عنها الحجاب الذى فرضته الآية الكريمة « وقرن فى بيوتكن » (١) ، وتسبب فى معركة خر فيها الآلاف من المسلمين (٢) ؟ وهو كذلك الرجل الذى دفع بالحسين ليقاوم بنى أمية لا أملا فى نجاح الحسين ولا تأييدا له ، ولكن ليموت الحسين فيخلوا لابن الزبير الجو كما قال عبد الله بن العباس (٣) ، فاعتقادى أن مثل هذا الرجل لا يستوفى الصلاحية ليلى خلافة المسلمين .

وأما الحسين بن على ففضله أنه من الأرومة الطيبة ، وأنه قريب النسب بالمصطفى صلوات الله عليه ، وفيما عدا ذلك لا يثبت له التاريخ تجارب سياسية أو ادارية متعددة أو بارزة تجعله يفضل غيره فى حمل العبء ، ولعله أخطأه التوفيق حينما قبل دعوة أهل العراق وسار اليهم مع نسائه وأولاده ، وهو يعلم أن أهل العراق خذلوا أباه ، وأنهم كما

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٣ .
(٢) اقرأ تحقيق هذه الافكار وأسانيدها فى الجزء الأول من هذه الموسوعة
(٣) سيأتى هذا الموضوع عند الكلام عن الشيعة فيما بعد .

وصفهم الفرزدق له : قلوبهم معه وسيوفهم مع بنى أمية وسنشرح فيما بعد فلسفة الحسين رضى الله عنه فى هـذا الموقف عنـد الكلام عن موقعـة كربلاء .

وأما عبد الله بن عمر فرجل آخره أكثر منه رجل سياسة وادارة .

وأما عبد الرحمن بن أبى بكر فيصفه معاوية بقوله : اذا رأى أصحابه فعلوا شيئا فعل مثله ، ليس له همة الا فى النساء واللهو (١) . واذا صـح ذلك أو بعضه قلت أسهمه التى ترفعه الى حمل أعباء الخلافة .

وخلاصة القول أن تعيين معاوية خلفـا له عمل حـكيم ، وأن كون الخليفة الجديد من بنى أمية أمر مسلم به للضرورة ، ولم يبق الا تحـديد الأموى الذى يتولى الخلافة بعد معاوية ، ونعتقد أنه كان فى بنى أميـة من يفضل يزيد كعبد الملك بن مروان مثلا ، وان كان يزيد لم يكن أقل من منافسيه كما سبق القول ، وقد أخذ على يزيد قتله للحسين ورميه الكعبة بالمنجنيق ،ولكن يجب أن يقتسم معه هـذا الذنب أولئك الذين دفعـوا الحسين لثورة لا أمل فيها ، وعرضوا مـكة لمقذوفات المنجنيق ، وسيأتى تفصـيل ذلك .

ونختتم هذا الموضوع بملاحظة واضحة هى أن أكثر الذين طمعوا فى الخلافة ، أو رشحوا أنفسهم لها ، أو رشحهم الناس هم من أولاد الخلفاء ، ومعنى هذا أن النظام الوراثى كان قـد وجـد طريقـة الى أكثر القلوب والعقـول .

موقعـة الحـرة

ومن أهم الرجال الذين اعتمد عليهم يزيد ، عبيد الله بن زياد بن أبيه ومسلم بن عقبة المرى ، وقد مر الكلام عن الأول وسيجـىء فيما بعد مزيد

---

(١) اقرأ وصفة معاوية لهؤلاء الأربعة فى الطبرى ج ٤ — ص ٢٢٨ — ٢٢٩ .

من الكلام عنه ، أما مسلم بن عقبة فأهم ما يرتبط باسمه موقعة الحـرة ، ومن حديثها أن أهل المدينة خلعوا يزيد ، وسجنوا من بالمدينة من بنى أمية ثم أخرجوهم منها ، فأرسل اليهم يزيد ليعـودوا الى الطـاعة دون قتال فامتنعوا ، فأرسل لهم جيشا كثيفا بقيادة مسلم بن عقبة المرى ، وقال له يزيد : ادعهم الى البيعة ثلاثة أيام دون حرب ، ولا تقاتلهم الا بعد انقضاء هذه المدة ، ففعل مسلم ، ولكن أهل المدينة استمروا فى عصيانهم ، فهاجمهم مسلم من جهة الحرة ، وانتصر عليهم ، وأباح المدينة لجنده ثلاثة أيام(١) ، وكان ذلك فى ذى الحجة سنة ٦٣ هـ .

ومن الأسباب الهامة التى أدت الى هزيمة أهل المدينة نذكر سـببين رئيسيين .

الأول : أن أهل المدينة أخرجوا بنى أمية منها ، واكتفوا منهـم بأن أخذوا عليهم العهود ألا يدلوا على عوراتهم ، وألا يظاهروا عليهم ، وذلك كما ترى عمل ساذج ، فلا بد لبنى أمية المطرودين أن يسـاعدوا ذويهم ، وأن يرشدوهم الى أيسر الطرق للتغلب على هؤلاء المتمردين على سلطان أسرتهم ، وهذا ما كان ، فقد أدلى عبـد الملك بن مروان لمسـلم بن عقبة بمعلومات وأفكار كانت من أهم أسباب النصر السريع ، فبناء على رواية الطبرى نصح عبد الملك مسلما أن يختار الحرة مكانا لهجومه ، وأن يبـدأ الهجوم فى مطلع النهار حيث تكون الشمس بين أكتـاف أهل الشـام فلا تؤذيهم ، وتكون فى وجوه أهل المدينة فيصيبهم أذاها ويعميهم شعاعها(٢) .

الثانى : أن أهل المدينة ولوا عليهم رجلين ، فولى الأنصـار عبد الله ابن حنظلة ، وولت قريش عبد الله بن مطيع ، وكان هذا دليل تفكك وانقسام من أول الأمر ، ويروى أن عبد الله بن عباس لما سمع بذلك قال : أميران !! هلك القوم (٣) .

---

(١) تاريخ الأمم والملوك جـ ٤ ص ٣٧٠ وما بعدها . والفخـرى فى الآدب السلطانية ص ١٠١ — ١٠٢ .
(٢) تاريخ الأمم والملوك جـ ٤ ص ٣٧٣ .
(٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد جـ ٤ ص ٣٨٨ .

ولقد سقط فى موقعة الحـرة خيرة أبناء الأنصـار والمهاجرين ، فمن المسئول عن هذه المعركة وهؤلاء الضحايا ؟

لست أستطيع أن أخلى أهل المدينـة من مسـئولية كبيرة ، فهب أن يزيد لم يكن صالحا للخلافة ، ولكن التفكير الاسلامى واضح فى أن « الامام الجائر خير من الفتنة ، وكلّ لا خير ، وفى بعض الشر خيـار » كما قـال الرسول صلى الله عليه وسلم (١) ، ولم يكن أهل المدينة يسـتطيعون أن يقفوا فى وجه جيش الشام بعدده وعدده ، فلماذا استمروا فى عصيانهم ؟ وقد دعاهم مسلم ثلاثة أيام وهو يحدق بهم ، ولكن العصـبية والكبرياء دفعا القـوم الى الاستمرار فى اشعال هذه النار التى صاروا لهـا حطبا بعد وقت وجـيز .

لا نخلى مسلم بن عقبة من مسـئولية باهظة لحمقـه وإسرافه فى إراقة الدماء ، فالرجل كان مريضا ، وكانت إحدى رجليه فى المعركة والأخرى تتقدم إلى القبر ، ولكنه أراد أن يختم حياته بهذه القسوة وتلك الوحشية فلم يكتف بالانتصار واخضاع الثائرين ، ولكنه أباح مدينة الرسول ثلاثة أيام للجيش المنتصر ، كما استمر فى إراقة الدماء بعـد أن كتب له النصر ، وإذا كان ليزيد فى هـذا التصرف الأهوج فهـو شريك لمسـلم فى هذه المسـئولية .

نهـاية يزيد :

كانت نهاية يزيد قريبة ، فقد كان حكمه حوالى ثلاث سنوات فقط ، ومات وهو فى شباب غض ، ولم يهنأ يزيد بالخلافة يوما واحدا فقد ثارت فى وجهه الأحداث ، فأخذ يعالجها ، ولكن العلاج كان أقسى من الداء ، ثار فى وجهه الحسين كما سـيأتى تفصـيله عند الكلام عن الشـيعة ، فقتله له عبيد الله ابن زياد ، وفتح قتله بابا من الشر على بنى أمية لم يقفـل قط .

---

(١) اقرأ من هذا الموضوع فى كتاب « السياسـة فى الفكر الاسـلامى » للمؤلف .

وثارت عليه المدينة فكانت موقعة الحرة المشئومة التى أراق مسلم بن عقبة فيها دماء مئات من الصحابة الأجلاء ومن أبنائهم ، فجلب ذلك الفعل سخط المسلمين على يزيد .

وثار عليه ابن الزبير بمكة فأرسل جيشا رمى الكعبة بالمنجنيق وهدمها كما سيأتى بيانه عند الحديث عن ثورة ابن الزبير ، ويقول ابن طباطبا أن ولاية يزيد كانت ثلاث سنين وبضعة أشهر ، ففى السنة الأولى قتل الحسين ابن على ، وفى السنة الثانية نهب المدينة وأباحها ثلاثة أيام ، وفى السنة الثالثة غزا الكعبة (١) .

ومات يزيد وخلف هذه التركة المثقلة ، فناء بها ابنه ، وحملها مروان ابن الحكم مدة عام ، ثم تولى حملها البطل عبد الملك بن مروان فاستطاع أن يلم الشعث ويوحد العالم الأسلامى مرة أخرى ، ويضمن عمرا جديدا للخلافة الأموية ، بعد أن كانت هذه الخلافة على وشك الزوال كما سيأتى فيما بعد .

---

(١) الفخرى فى الاداب السلطانية ص ٩٨ ورواية الطبرى (جـ ٦ ص ٣٧٠) تجعل موقعة الحرة سنة ٦٣ ، ومعنى هذا ان سنة ٦٢ لم يكن فيها اى من هذه الأحداث الثلاثة .

معاوية الثـانى (٦٤ هـ)

لا نخصص فراغا طويلا للحديث عن معاوية الثانى ، فقد كان شـابا ضعيفا لم تطل خلافته أكثر من أربعين يوما ، ثم تنازل عن الخلافة لمرضه ، وانزوى فى بيته حتى مات بعد ثلاثة أشهر •

كيف آلت الخلافة الى هذا الشاب المريض الذى لم يطمع فيها قط ؟ الجواب أن جده معاوية وضع أسس الوراثة فى الخلافة ، وكـافح سـنين عدة لتتم البيعة ليزيد ، وبالتالى تهيأ الناس للأخذ بهـذا النظام ، ولذلك بايع أهل الشام لمعاوية الثانى بعد موت أبيه ، ولكن ابن الزبير كان قـد أعلن نفسه خليفة فى عهد يزيد ، ومات يزيد قبل القضـاء على ابن الزبير ، ولما مات يزيد كبر أمل ابن الزبير فى النجاح ، وجاء معاوية الثانى فى هذه الظروف فأدرك أنه لا قوة له للاشتراك فى هـذا الصراع ، فجمع النـاس بالمسجد وخطب فيهم خطبة قال فيها ، انى قد ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهـم ، فأنتم أولى بأمركـم ، فاختاروا له من أحببتم ، فما كنت لأتزودها ميتا وما استمتعت بها حيا (١) •

وانتهت بذلك صفحة معاوية الثانى من التاريخ ، وانتهى بانتهـائه العهد السفيانى وبدأ العهد الأموى الثانى ، وهو عهد بنى الحكم بن أبى العاص بن أمية ، ويروى أن عبد الملك بن مروان كان يرى أن سرعة نهاية الفرع السفيانى جاءت نتيجة لقتل الحسـين ، ولذلك كتب الى الحجـاج يقول : جنبنى دماء بنى عبد المطلب فليس فيها شفاء الحرب (بفتح الراء ومعنـاه الغضب) وانى رأيت بنى حرب تداعى ملكهم لمـا قتلوا الحسـين ابن على (٢) •

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ٤٠٩ ، وانظر كذلك الفخرى لابن طباطبا ص ١٠٢ وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣١١ •

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٤ ص ٤٠١ •

مروان بن الحكم (٦٤ — ٦٥ هـ)

مر بنا الحديث عن مروان بن الحكم فى عهد عثمان وفى موقعة الجمل ولما انتهت موقعة الجمل اعتزل مروان السياسة وبايع عليا وأقام بالمدينة ، ولما آلت الخلافة الى معاوية قربة معاوية اعترافا بالمساعدات التى قدمها اليه يوم كان حاملا لخاتم عثمان ، وايمانا منه بأن مروان لعب دورا هاما فى حرب الجمل أضعف به عليا وقضى بسهمه على طلحة ، وأما مبايعته لعلى بعد ذلك فقد أخذها معاوية على أنها ضرورة لحماية مصالح بنى أمية بمكة والمدينة ، يضاف الى ذلك حلم معاوية الذى اتسع للجميع ، ورغبته فى الاستفادة من الكفاءات المختلفة .

وعلى هذا ولى معاوية مروان ولاية المدينة ، وفى عهد يزيد كان مروان مقربا اليه وكان بين مشيريه بدمشق . ومات يزيد ، ثم تنازل خلفه عن الخلافة دون أن يعين من يخلفه . واختلفت كلمة بنى أمية فيما بينهم ، واختلف الناس عليهم ، فأوشك ملكهم أن يضيع ، ويروى أن مروان نفسه كان على وشك أن ينطلق لابن الزبير فيبايعه لولا أن عبيد الله بن زياد قال له : « استحييت لك مما تريد ، أنت كبير قريش وسيدها تصنع ما تصنعه؟» فدب الأمل فى نفس مروان وأجاب : ما فات شىء (١) .

وكانت حالة ابن الزبير فى ذلك الوقت فى تقدم واضح ، فقد دان له الحجاز ، وتبعه أهل الكوفة والبصرة — وكان عبيد الله بن زياد قد أخلاهما وفر تحت ضغط الأحداث — كما تبعه أهل الجزيرة وأمراء الشام وهم من قيس ، ولم يبق على الولاء لبنى أمية الا الأردن وكان واليها حسان بن مالك من كلب (٢) . وتلك النتيجة التى حققها عبد الله بن الزبير أو تحققت له ، جعلت بعض المؤرخين يراه خليفة ذلك العصر ، ويعد مروان بن الحكم

---

(١) تاريخ الأمم والملوك جـ ٤ ص ٤٠٩ ، ٤١٢ .
(٢) الطبرى جـ ٤ ص ٤٠٨ ، ٤١٠ .

متمردا عليه ولا يعترف هؤلاء بخلافة مروان ، كما لا يعـترفون بخلافة عبد الملك الا من يوم موت ابن الزبير واجتماع الكلمة على عبـد الملك (١) •

ويجدر بنا أن نعطى بعض التفاصيل عن الحـالة بالشـام فى ذلك العهد ، فان العصبية كانت قد بدأت تظهر بين عـرب الشـمال (قيس) وعرب الجنوب (كلب) ، وكان عـرب الشـمال يميلون الى ابن الزبير فبايعوا له وعلى رأسهم الضحاك بن قيس أمير دمشق ، والنعمان بن بشير أمير حمص ، وزفر بن الحارث الكلابى أمير قنسرين ، أما كلب فكانت تعضد الأمويين ولكنها انقسمت على نفسها ، فبعضها يريد البيعة لخالد بن يزيد ابن معاوية لأنهم أخوال أبيه ، ولأن منزلته ستكون لهم كما عبر عن ذلك مالك بن هبيرة ، وبعضهم يريد البيعة لمروان بن الحكم لسـنه وتجاربه ، وكان على رأس هؤلاء الحصين بن نمير الذى أجاب : لا ، بعمر الله لا تأتينا العرب بشيخ ونأتهم بصبى ، وأخيرا اجتمعت كلمة كلب وبنى أمية فى مؤتمر الجابية الذى عقد فى ذى العقدة سنة ٦٤ على البيعة لمروان بن الحكم ، ثم خالد بن يزيد من بعده ، ثم عمرو بن سعيد بن العاص (٢) • وبهـذا رضى كل الطامعين فى الخلافة من بنى أمية كما رضى أتباعهم •

كان أمام مروان صراع طويل ، أوله صراع بالشام مع القيسـية الذين يقودهم الضحاك بن قيس ، وبعـد ذلك يخـرج الصراع الى العـراق والحجاز ومصر وغيرها ، وقد حصلت موقعة كبيرة بين الضحاك وبين مروان فى « مرج راهط » فى المحرم سنة ٦٥ هـ قتل فيها الضـحاك وكثيرون من قومه وفر بعدها النعمان وزفر ، وخلت الشـام بذلك لمروان(٣) • وبعـدها سار الى مصر فافتتحها وبايعه أهلها وترك بها ابنه عبد العزيز والياً عليها ، وأرسل عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق الى فلسطين حيث كان مصعب بن الزبير قد زحف عليها ، فانتصر عمرو فى هذه المعركة ، وعاجلت المنيـة

---

(١) اقرأ تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٥ والعقد الفريد جـ ٤ ص ٣٩٣ •

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٤ ص ٤٠٩ — ٤١٤ •

(٣) المرجع السابق ص ٤١٥ — ٤١٧ •

مروان قبل أن تظهر نتيجة الصراع الذى بدأ فى الحجاز والعراق فمات فى رمضان سنة ٦٥ هـ بعد أن عهد بالخلافة من بعده لابنه عبد الملك ثم عبد العزيز وأهمل قسم مؤتمر الجابية السالف الذكر (١) ٠

وكان مروان يتمتع بحكمة وسداد رأى وفصاحة وشجاعة ، وكان يجيد قراءة القرآن ، ويروى كثيرا من الحديث عن كبار الصحابة وبخاصة عن عمر بن الخطاب وعثمان ، واليه يرجع الفضل فى ضبط المكاييل والموازين ٠

ومن أهم الرجال الذين اعتمد عليهم مروان ، عبيد الله بن زياد وعبد الملك بن مروان وعبد العزيز بن مروان ٠ وقد تحدثنا من قبل عن عبيد الله وسنعود للحديث عنه فيما بعد ، أما عبد الملك فلنا عنه حديث طويل عند الكلام عن خلافته ، والحديث على خلافة عبد الملك سيشمل كذلك حديثا عن أخيه عبد العزيز بن مروان ٠

---

(١) تاريخ الأمم والملوك جـ ٤ ص ٤٧٤ ٠

عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ)

عبد الملك هو المؤسس الثاني للدولة الأموية ، تولى الخلافة والعالم الاسلامى متفكك ، فابن الزبير أعلن نفسه خليفة فى الحجاز ، والشيعة ثائرون ، والخوارج متمردون ، والمختار بن أبى عبيد الثقفى يقود جيشا كبيرا يبطش به دون أن يعرف لماذا يبطش ، وسيأتى تفصيل الكلام عنه ، وقد استطاع عبد الملك أن يرد البلاد كلها الى الطاعة ، وأن يقضى على كل تمرد وعصيان ، فاستحق أن يوصف بأنه المؤسس الثانى للدولة الأموية .

وعبد الملك كان يتمتع بثقافة عالية وكان يعد أحد فقهاء المدينة ، من طبقة سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير ، ويقول الشعبى عنه ما ذاكرت أحدا الا وجدت لى الفضل عليه الا عبد الملك فانى ما ذاكرته حديثا الا زادنى فيه ، ولا شعرا الا زادنى فيه [١] . وكان يقال فقهاء المدينة أربعة : سعيد بن المسيب وعبد الملك بن مروان وعروة بن الزبير وقبيصة بن ذؤيب . وقال ابن عمر عنه : وَلَدَ الناس أبناء وَوَلَدَ مروان أبا [٢] .

وقد عهد له أبوه بالخلافة بعد فترة قصيرة من مؤتمر الجابية الذى تقرر فيه أن يلى خالد بن يزيد الخلافة بعد مروان ، ثم يليها من بعده عمرو بن سعيد بن العاص ، ولم يحدث التغيير الذى قام به مروان أثرا عند خالد وأنصاره لأن العالم الاسلامى — كما قلنا من قبل كان قد اتجه الى نظام التوارث السياسى ، ثم لأن شخصية عبد الملك كانت ترجح كل شخصيات ذلك العهد تقريبا ، وقد سخط على بيعة عبد الملك عمرو بن سعيد فدفع رأسه ثمنا لهذا السخط كما سيأتى فيما بعد .

---

(١) الفخرى ص ١٠٦ .
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢١٦ .

ويبدو أن عبد الملك كان رجل الساعة ، فقد كان ثابت الجاش لا تزعزعه الشدائد ، بل كان يميل الى مصارعة الشدائد ليزعزعها هو . ويروى المسعودى(١) أن عبد الملك سار على رأس الجنود الشامية ليساعد عبيد الله ابن زياد الذى كان يحارب المختار بن أبى عبيد ، وحط عبد الملك رحاله فى الطريق ليلة ، فجاءه خبر مقتل عبيد الله وانهزام جنده ، ثم جاءه بعد قليل خبر انهزام جيشه الذى أرسله لمحاربة ابن الزبير بالمدينة ، وتلاه خبر ثالث بدخول جنود ابن الزبير أرض فلسطين ، وخبر رابع بمسير امبراطور الروم مهاجما حدود الدولة الاسلامية عند المصيصة ، وخبر خامس بأن عبيد دمشق وأوباشها أطلقوا المسجونين وهاجموا السكان ، وخبر سادس أن بعض الاعراب أغاروا على حمص وبعلبك . . . قال المسعودى : يُرْوَى أن عبد الملك لم يُرَ فى ليلة قبلها أشدَّ ضحكا ولا أحسن وجها ولا أبسط لسانا ولا أثبت جنانا من تلك الليلة تجلدا وسياسة . وواجه هذه الأحداث وانتصر عليها ، وأعاد الأمن وقطع دابر الفتنة .

ومن أهم الأحداث التى واجهت عبد الملك ثورة عمرو بن سعيد الأشدق ، وقد كان عمرو يطمع فى الخلافة بعد مروان ، وكان مروان فيما يبدو يطمعه أن يقدمه على خالد لحداثه سن خالد ولانشغاله بالعلوم عن الخلافة ، ولهذا نجد عمرو بن سعيد يجاهد جهاد الأبطال ليثبت الأمر لمروان ولكن مروان خدعه وولى عهده ولديه عبد الملك ثم عبد العزيز .

ورأى عبد الملك من الحكمة أن يداهن عمرا فيبدو أنه وعده بالخلافة من بعده وذكره أن من العار أن يختلف بنو أمية وهناك ابن الزبير على وشك أن ينتصر أمره ويسحق أعداءه ، فبقى عمرو بين القناعة بهذا الوعد وبين الرغبة فى اعلانه وتثبيته ، وظل الحال على ذلك حتى سنة ٦٩ أو سنة ٧٠ هـ حيث خرج عبد الملك تجاه العراق يريد مصعب بن الزبير ومعه عمرو ، فقال هذا لعبد الملك : قد كان أبوك وعدنى هذا الأمر من بعده ، وعلى هذا

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ١١٣ ، وانظر كذلك تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٢١ .

جاهدت معه وكان من بلائى معه ما لـم يخف عليك ، فاجعل لى علناً هـذا الأمر من بعدك • فلم يجبه عبد الملك بشيء • فانصرف عمـرو عائدا الى دمشق فى غفلة من عبد الملك ، وهناك استولى عليهـا وتحصن بها ، ولمـا عرف عبد الملك ذلك عاد الى دمشق ودارت مناوشات بين الاثنين ولعبت السياسة دورا هاما فاصطلح الاثنان وعاد مظهر الصـفاء بينهما ، ولكن عبد الملك لم يغفر لعمرو خروجه عليه ، ووجد أن ملكه مزعزع ما دام عمرو سيىء النية به •

وفى احدى الليالى أعد عبد الملك عدته واستدعى عمرا لزيارته فخرج هذا اليه فى عدة من مواليه وأتباعه ، ودخل عمرو ولكن أتباعه كانوا يحجزون أولا بأول خلف الأبواب ، فلما وصل عمرو الى حيث يجلس عبد الملك كان عمرو وحده ليس معه الا وصيف واحد ، وفتك عبد الملك بعمـرو ، ولمـا أحس بأعوان عمرو يهتفون به ويحيطون بالقصر ألقى اليهم رأسه وألقى معها بـِدَرَ الأموال،فلما رأى الناس رأس عمرو يئسوا من مساعدته وانهالوا على بدر الأمـوال يلتقطونهـا وينصرفون بهـا ، واستتب أمر دمشـق لعبد الملك (١) •

عبد الملك : كفاءته وأعماله :

كان عبد الملك يقود جيوشه بنفسه فى أكثر الأحـوال • وكان النصر حليفه ، ومن أهم المعارك التى قادها معركة العراق ضد مصعب بن الزبير وقد انتصر فيها عبد الملك وقتل مصعب ، وسيأتى مزيد من الكلام عن عبد الله بن الزبير وصراعه مع الدولة الأموية ، ولكنا هنا نقول أن عبد الملك حينما أراد أن يقود جيش الشام ليلتقى بمصعب أشار عليه رؤساء أهـل الشام أن يقيم هو بالشام ويبعث على الجيوش قائدا غيره ، فان لقرت جيوشه فذاك والا أمدهم بجيوش أخـرى ، وقالوا له : اننـا نخشى أن

---

(١) اقرأ القصـة كاملة فى الطبرى جـ ٤ ص ٥٩٦ — ٦٠٠ ، والعقـد الفريد جـ ٤ ص ٤٠٨ — ٤٠٩ ، والامامة والسياسـة جـ ٢ ص ٢٣ — ٢٥ •

تصاب بسوء فلا يكون للناس ملك يدبر أمرهم ، فأجاب عبد الملك : أنه لا يقوم بهذا الأمر الا قرشي له شجاعة وله رأى فى الحروب وله فراسة وسياسة ، وانى أجد هذه الشروط فى نفسى ، فأوثر أن أتولى أنا قيادة هذه الجيوش (١) .

ومن أخلاق عبد الملك اعتداده بنفسه وايمانه أنه ليس هناك من يضارعه من معاصريه ، وهو يقول فى ذلك : ما أعلم أحدا أقوى على هذا الأمر منى ، وأن ابن الزبير لطويل الصلاة كثير الصيام ، ولكن لبخله لا يصلح أن يكون سائسا (٢) .

ومن أعمال عبد الملك المجيدة أنه عرّب الدواوين ، فقد كان ديوان الشام يكتب باليونانية ، وكان ديوان فارس يكتب بالفارسية ، وكان ديوان مصر يكتب بالقبطية ، فعزم عبد الملك على نقلها جميعا الى اللغة العربية وقد تم فى حياته نقل ديوان الشام الى العربية على يد سليمان بن سعد ونقل ديوان فارس على يد صالح بن عبد الرحمن ، أما ديوان مصر فقد تم نقله فى عهد الوليد (٣) وهناك مزيد من الكلام عن حركة التعريب عند الكلام على الدواوين فى كتاب « السياسة فى الفكر الاسلامى » .

ومن الأعمال المجيدة لعبد الملك أيضا سك النقود الاسلامية سكا منتظما (٤) .

ومن أعظم رجال عبد الملك أخوه عبد العزيز وقائده الشهير الحجاج ابن يوسف الثقفى ، أما أخوه عبد العزيز فقد صحب أباه مروان بن الحكم عندما ذهب ليسترد مصر من عامل ابن الزبير ، ولما تم لمروان ذلك ولى ابنه

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٦ — ٧ (٢) المرجع السابق ٢١٣ .
(٣) عن نقل ديوان الشام اقرأ البلاذرى ص ١٩٦ — ١٩٨ ، وعن ديوان فارس اقرأ ص ٣٩٨ .
(٤) عن امر النقود اقرأ البلاذرى ص ٢٤١ و ٤٥١ — ٤٥٦ و « الاقتصاد فى الفكر الاسلامى للمؤلف .

عبد العزيز عليها وعاد هو . وقد كان عهد عبد العزيز من أحسن العهود على مصر ، أدخل خلاله ألوانا من الاصلاحات ، فبنى مقياس النيل ، وأقام قنطرة على خليج أمير المؤمنين ، كما أعاد بناء جامع عمرو وزاد فيه من جهاته الأربع (١) ، وقد عنى عبد العزيز بمدينة حلوان عناية كبيرة ، واتجه لاعدادها لتكون عاصمة امارته ، فأنشأ بها بركة ماء ، وغرس الأشجار والنخيل ، وأقام المساجد ، ونقل لها بيت المال ودواوين الحكومة ، وكان عبد العزيز سمحا كريما لم يدخر مالا يذكر مع أن مصر كانت طعمة له ، أى لا يرسل من دخلها شيئا لعاصمة الدولة الاسلامية ، ويروى أنه أنفق كل ثروته ، فلما مات لم يترك غير سبعة آلاف دينار وهو مبلغ زهيد اذا قيس بهذا الرجل ومكانته وثرائه .

الحجاج بن يوسف ، ماله وما عليه :

كان الحجاج فيما نعرف أشهر القواد المسلمين ، وربما جاءت شهرته من ناحية بطولته ومقدرته الحربية التى استطاع بها أن يثبت عرش بنى أمية وكان يهتز تحت خلفاء الأمويين ، وربما جاءت هذه الشهرة من ناحية قسوته وعنفه وسفكه الدماء بحق أو بدون حق ، ومن المؤرخين من يلومه على ما أزهق من أرواح وما سفك من دماء ، ومنهم من يلتمس له العذر ذاكرين أن الفتن بالعراق كانت متصلة ، وأن تاريخ العراق يثبت أنه لم يعرف الدعة الا فى ظل القهر والدماء والتنكيل ، فالمؤرخون بهذا يلقون اللوم على الثائرين لا على من أطفأ الثورة ، ولكن المقياس الذى نراه صحيحا هو اباحة الشدة اللازمة لضمان الأمن والسلام ، وأعتقد أن الحجاج كان يستطيع أن يحقق ذلك بأقل مما سفك من دماء وما أزهق من أرواح ولذلك لا نخليه من مسئولية ما سفك من دماء وما وزع من أموال بدون مبرر . وقد أدرك عبد الملك اسراف الحجاج فى الدماء والأموال فكتب اليه « أما بعد ، فقد بلغ أمير المؤمنين سرفك فى الدماء وتبذيرك فى الأموال،

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢١٥ .

ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من الناس ، وقد حكم عليك أمير المؤمنين فى الدماء بالدية فى الخطأ وبالقود فى العمد ، وحكم عليك فى الأموال بردها الى مواضعها •• » وقد رد الحجاج بكتاب جاء فيه : « أما بعد فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرفى فى الدماء وتبذيرى فى الأموال ، ولعمرى ما بلغت فى عقوبتى أهل المعصية ما هم أهله ، وما قضيت حق أهل الطاعة بما استحقوه ••• ووالله ما قتلت الا فيك ولا أعطيت الا لك ••• » •

وسنرى من استعراض الأحوال فى ذلك العهد أن قسوة الحجاج كانت ضرورية ، ولكنها كما قلنا قد دخلها السرف :

الصراع حول الكوفة بين عبد الملك والمختار وابن الزبير :

كان المختار بن أبى عبيد الثائر بالكوفة عدوا لكل من عبد الملك وعبد الله بن الزبير ، ولذلك اشترك الاثنان فى محاربته ، لأن كل واحد من هذين الاثنين كان يرغب فى ضم مُدُن العراق اليه ، ومن أهم المعارك التى وقعت موقعة الجازر ، وكان يقود جيش عبدالملك قائده عبيد اللهبن زياد ، أما جيوش المختار ، فكان يقودها ابراهيم بن الأشتر ، وقد دارت الدائرة على ابن زياد وقتل هو وحصين بن نمير وعدد كبير من جند الشام واستقرت الكوفة بذلك للمختار (١) •

وحينئذ ولى ابن الزبير أخاه مصعبا على البصرة وأمره بتخليص الكوفة من المختار ، فسار بجيش كبير وكانت ضلالات المختار قد ظهرت ، فتخلى عنه لذلك ابراهيم بن الأشتر ووجوه أهل الكوفة ، فقتله مصعب وقتل من بقى معه وخلص العراق بذلك لابن الزبير (٢) •

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٤ : ٤٠٤ ويروى صاحب الفخرى ان عبيد الله بن زياد قتل فى عهد مروان بن الحكم فى معركة ضد جيوش المختار (انظر ص ١٠٤) •

(٢) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٠٥ .

ولم يهنأ ابن الزبير بالنصر الذى أحرزه ضد المختار ، اذ أن عبد الملك سرعان ما سار بنفسه ومعه قادته وجنده الى العراق والتقى بمصعب ومعه جنده العراقيون ، ولكنهم سرعان ما انفضوا من حوله فهزم وقتل غيلة (١) ، وكان الحجاج ضمن قادة عبد الملك فى هذه المعركة ، ولما قتل مصعب استسلم قادته فأمنهم عبد الملك وأبقاهم فى مناصب القيادة ومن هؤلاء المهلب ابن أبى صفرة الذى أصبح من خيرة القادة للخلفاء الأمويين وابراهيم بن الأشتر الذى كان قد اصطنعه مصعب ثم أمنه عبد الملك بعد قتل مصعب .

ولم يبق أمام عبد الملك الا الحجاز حول ابن الزبير ، فأرسل عبد الملك قائده الحجاج لمقاتلته ، فسار الحجاج سنة ٧٢ هـ وحاصر مكة ورماها بالمجانيق . واشتدت الحال على أهل مكة حتى تخلوا عن ابن الزبير ، وكان ممن تخلى عنه ابناه حمزة وحبيب ، واستشار ابن الزبير أمه فيما يفعل ، فأشارت عليه أن يظل يدافع عن عقيدته حتى يموت كما مات أصحابه ، فاستجاب لرأيها وصمد فى المعركة حتى قتل وعين عبد الملك الحجاج واليا على الحجاز .

وتجددت الفتن بالعراق كالعهد به ، فلم يجد عبد الملك بدا من تعيين الحجاج واليا على العراق ليقمع تمرده فنقله من ولاية الحجاز الى ولاية العراقين فسار للكوفة سنة ٧٥ هـ ودخلها فى اثنى عشر راكبا ، وصعد المنبر وهو ملثم ثم كشف اللثام وألقى خطابه الشهير الذى جاء فيه :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا
متى أضع العمامة تعرفونى

يا أهل الكوفة انى لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها وانى

---

(١) العقد الفريد جـ ٤ ص ٤١٠ .

لصاحبها ، وكأنى والله أنظر الى الدماء بين اللحى والعمائم ••• وانكم كأهل قرية « كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » (١) •
وبعد أن أتم خطابه القاسى المملوء بالتهديد والتحذير أمر غلامه أن يقرأ عليهم كتاب الخليفة اليهم فقرأ الغلام : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الملك أمير المؤمنين الى من الكوفة من المسلمين ، سلام عليكم • فلم يردوا السلام ، فقال الحجاج للغلام : توقف ، والتفت الحجاج للناس وصاح فيهم : يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون ، والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن ، اقرأ يا غلام • فبدأ الغلام يقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الملك أمير المؤمنين الى من بالكوفة من المسلمين ، سلام عليكم • فلم يبق أحد بالمسجد الا قال وعلى أمير المؤمنين السلام(٢).
وترك الحجاج الكوفة الى البصرة حيث كرر شدته ووعيده ، وخضع أهل البصرة واستكانوا كما فعل أهل الكوفة • وامتد نفوذ الحجاج بعد ذلك حتى شمل الشرق كله ، فعين من قبله المهلب بن أبى صفرة واليا على خراسان وظل هذا فى خراسان حتى وفاته سنة ٨٣ هـ (٣) •

ويعلق الأستاذ الخضرى على موقف أهل العراق من الحجاج بقوله : رتبين هذه الخطبة حال أهل العراق وسكونهم الى الذلة ، يجيئهم الحجاج فى بضعة عشر راكبا ، وفيهم الأشراف والرؤساء فيخطبهم ويتوعدهم بالمصائب وهم ساكتون لا يرد أحد منهم عليه قولا ، ويوبخهم على ترك السلام على أمير المؤمنين فيستكينون ويخضعون ، وهم الذين فتحوا أبواب الشرور (٤) •

---

(١) سورة النحل الآية ١١٢ •
(٢) المبرد : الكامل جـ ١ ص ٣٣٣ — ٣٣٤ •
(٣) ابن قتيبة : المعارف ص ٢٠٤ •
(٤) محاضرات فى التاريخ الاسلامى جـ ٢ ص ١٤٥ •

فتنة ابن الأشعث :

وخضع أهل العراق لتهديد الحجاج وأمرهم بالانضمام لجيوشه ففعلوا ، فجند من الكوفة عشرين ألفا ، ومن البصرة عددا مثل ذلك ، وأمَّر عليهم عبد الرحمن بن الأشعث الذى ينحدر من كندة ، تلك القبيلة التى كان منها ملوك فى الجزيرة العربية قبل الاسلام [١] • وأرسل الحجاج عبد الرحمن وجيشه الى سجستان لحرب الملك رتبيل ملك الترك ، وكان بين هذا الملك وبين المسلمين عهد على أن يدفع جزية ، ثم نقض العهد ، وهجم على سجستان الاسلامية ، وهزم جيش المسلمين ، وقتل والى سجستان عبيد الله بن أبى بكرة ، فسير اليه الحجاج جيش العراق بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث الذى نجح فى جولته الأولى نجاحا عظيما ، وفتح كثيرا من البلاد ، ثم توقف من تلقاء نفسه زاعما أن من الخير ألا يتعمق فى تلك البلاد دفعة واحدة ، بل أن يأخذها مرحلة مرحلة ، وأن يجعل كل مرحلة فى عام وكتب للحجاج بذلك ، فرد عليه الحجاج مسفها رأيه ، طالبا منه أن يستمر فى السير ، فعرض عبد الرحمن بن الأشعث الأمر على جنوده واستشارهم ايطيع أم يخالف ، وهيهات أن يشير أهل العراق بالطاعة ، وهم يرون فى الحجاج عدوهم الأول ، وقائد أعدائهم بنى أمية ، ثم أن الفتنة من طبيعتهم ، فزينوا له المخالفة ، وأكدوا له طاعتهم له واتباعهم لأمره فيما يتخذ من خطوات [٢] •

وهكذا استدار الجيش الذى أعده الحجاج ، ليحارب الحجاج ، وهكذا كانت فتنة ابن الأشعث الشهيرة ، وقدر لها أن تصادف بعض النجاح فقد هزم ابن الأشعث جيوش الحجاج واستولى على البصرة سنة ٨١ هـ ثم استولى ابن الأشعث على الكوفة سنة ٨٢ هـ ، وجرت بعد ذلك سلسلة من المعارك الفاصلة الطويلة فى المكان المعروف بدير الجماجم سنة ٨٤ هـ ، واستمرت هذه المعارك حوالى مائة يوم ، وواصل عبد الملك ارسال المدد

---

(١) اقرا عن بنى الأشعث ملوك كندة فى الجزء السابع من هذه الموسوعة
(٢) الطبرى جـ ٥ ص ١٤٠ — ١٤٦

الى الحجاج حتى تم له النصر فى هذه المعارك وفى معارك مسكن » حيث استنزف القتال بين الحجاج وبين ابن الأشعث مع فلول جيشه ، وفى فتنة ابن الاشعث هذه سقط الاف لا تحصى من أشراف العراق ورؤسائه ، ولم يرف الحجاج فى قتل الأسرى بعد موقعتى دير الجماجم ومسكن ، فكان ذلك مما أضعف فتن العراق بعد ذلك ، أما ابن الأشعث فقد فر ولجأ الى رتبيل فطلبه الحجاج فقتل نفسه وأرسلت رأسه الى الحجاج (١) .

وقبل أن نترك فتنة ابن الأشعث يجدر بنا أن نشير الى رؤية أوردها الطبرى لأنها أن صحت تعد سقطة كبيرة من سقطات الحجاج ، فقد روى الطبرى (٢) أن ابن الأشعث كان أبغض رجل الى الحجاج بالعراق ، وأن الحجاج كان يقول : ما رأيته قط الا أردت قتله ، ويروى الطبرى كذلك أن الحجاج لما عين ابن الأشعث على جيش العراق جاء اسماعيل بن الأشعث الى الحجاج فقال له : لا تبعثه فأنى أخاف خلافه ، ووالله ما جاز جسر الفرات قط فرأى لوال من الولاة عليه طاعة وسلطانا . فقال الحجاج : ليس هناك ما هو أرغب لى من أن يخالف أمرى أو يخرج من طاعتى . وأمضاه على ذلك .

ان عهدنا بالحجاج أنه فطن ذكى لا يولى عدوا يبادله الكراهية على أحد جيوشه الكبيرة ، ولكن اذا صحت هذه الروايات فأنها كما قلنا آنفا سقطة عظمى تحسب على الحجاج ويحتمل وزرها ، وبخاصة أن الجيش عراقى دأبه العصيان والتمرد ما وجد لذلك سبيلا ، وبين هذا الجيش وبين الحجاج ترات عظيمة وغل قديم ، ويقول الطبرى (٣) أن أهل العراق أغروا ابن الأشعث بالثورة لاجتماعهم على بغض الحجاج والكراهية له .

وقد بلغ من قسوة هذه الفتنة أن عبد الملك أبدى استعداده للتضحية بقائده الحجاج وعزله عن العراق اذا كان ذلك يرضى العراقيين ويعيدهم

---

(١) انظر الطبرى ج ٥ ص ١٤٦ — ١٨٨ .
(٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ١٤٠ — ١٤١ .
(٣) المرجع السابق ج ٥ ص ١٦٥ .

الى الطاعة (١) ، ولكن أهل العراق ما كانوا يطلبون غـير التمرد وسفك الدماء ، ولم يكن لهم فيما يبدو هدف ثابت فى تلك الأثناء •

اصـلاحات الحجـاج :

بقى هناك شىء ذو بال يوضع فى الميزان عند الحكم على الحجاج ، ذلك هو ما قام به من اصـلاحات عمرانيـة ، والعجيب أن الذى يدرس الحجاج لا يجده عقليـة عسكرية فقـط ، بل يجـده كذلك ذا عقلية بنـاءة فى زمن السلم ، وقد قام بإصلاحات مدنية جليلة النفـع ، فهـو الذى بنى مدينة واسط فى منتصف الطريق تقريبا بين الكوفة والبصرة وجعلها مقـر حكمه ومنزل جنده الشاميين • وعمل على انعاش البلاد بعد أن أنهكتهـا الحروب عشرين عاما ، فأصلح القنوات التى تحمل مياه دجلة والفرات الى أطراف البلاد وتعهدها بالعناية الدائمة ، وأصلح السـدود التى تصـون خصب الأرض من عادية الصحراء ، وقاوم الحجاج بشدة الهجرات الريفية الى المدن ، وأقام التجارة على قواعد الطمأنينة والثقة باصلاح نظام النقد ونظام الموازين والمكاييل والمقاييس ، وتذهب الروايات كذلك الى أنه عنى بإعجام القرآن (٢) •

على أن الحجاج لم يكن يعمل لنفسه ولا يعمل باسمه ، وعلى هـذا فعبد الملك وابنه الوليد شريكان للحجاج فى كل ما قام به من خـير وشر ، وقد وضح يزيد بن أبى مسلم ذلك لسليمان بن عبد الملك عندما سـأله هذا : أترى الحجاج استقر فى قعر الجحيم بعد ؟ فأجاب أبو مسـلم : يا أمير المؤمنين لا تقل ذلك فى الحجاج فانه عن يمين أبيك وعن يسار أخيك ، فحيث كانا كان (٣) •

وبعد ، فهذا هو الحجاج وذلك قبس من حياته وتصوير سريع له فى

---

(١) المرجع السابق .
(٢) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية جـ ١ ص ١٧٦ — ١٧٧ •
(٣) المبرد : الكامل جـ ٢ ٥٤٧ — ٥٤٨ •

حالتى السلم والحرب ، ولمحة خاطفة للظروف التى أحاطت به والمشكلات التى عاش فيها ، فهل يميل القارىء بعد ذلك الى لومه أو الى الاعتذار عنه ؟

ماذا فعل منصب الخلافة بعبد الملك :

ولنعد الى عبد الملك الخليفة العالم ، والرجل النادر بين الرجال لنصور انقلابا فى حياته عندما تولى الخلافة ، فقد روينا شيئا عن مكانته العلمية وكيف كان معدودا بين مشاهير الفقهاء ، وكان فى القمة بين الباحثين والمجتهدين ، ثم ضاع منه هذا الاتجاه العلمى بين صليل السيوف الذى غمر معظم عصره ، ووقع القنا الذى شغل لبه ، ويبدو أن عبد الملك اندمج فى حياة الخلافة ، وسعد بها واطرح ماضيه العلمى فلم يؤثر عنه فى أثناء خلافته بحث علمى ذو بال ، ويروى أن الخلافة آلت اليه والمصحف فى حجره ، فأطبقه وقال : هذا آخر العهد بك (١) ، ولم يَصْحُ عبد الملك من سكرته بحب الجاه والسلطان الا فى آخر أيامه حيث سجل صحوته فى مقطوعة شعرية رقيقة نقتطف منها الأبيات التالية :

لعمرى لقد عمرت فى الدهر برهة
ودانت لى الدنيا بوقع البواتر

فأضحى الذى قد كان مما يسرنى
كلمح مضى فى المزمنات الغوابر

فيا ليتنى لم أُعْنَ بالملك ساعة
ولم أَلْهُ فى لذات عيش نواضر

وكنت كذى طمرين عاش ببلغة
من الدهر حتى زار ضنك المقابر (٢)

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢١٧ .
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٠ — ٢٢١ .

الحجـــاز من السياسة .. للأدب والفن :

الحجاز هو مهبط الدعوة الاسلامية وعاصمة الدولة فى عهدها الأول ولما انتقل على الى الكوفة اعتبر الحجاز أن ذلك عمل استراتيجى مؤقت دعت له دواعى الحرب بين على وأصحاب الجمل ، أو بينه وبين معـــاوية والخوارج ، وأمل الحجاز أن يعـــود له الســلطان عقب الانتهاء من تلك الحروب ، فلما تم النصر لمعاوية واتخذ دمشق عاصمة له لم يمت أمل أهل الحجاز إذ اعتبروا ذلك شيئا مؤقتا أيضا سببه أن معاوية كان والياً عــلى دمشق وكانت دمشق عاصمة لولايته عشرين عاما قبل خلافتـــه ، وعلى كل حال لم يستطع الحجاز أن يقاوم معاوية لما أحرزه من انتصارات وما حققه من دهـــاء .

وفوجىء الحجاز بعد ذلك بحقيقـــة مرة هى انتقـــال الخـــلافة من الشورى الى الوراثة ، واستمرار الخلافة فى بنى أمية ، ومعنى ذلك ضياع سلطان الحجاز نهائيا ، فهب الحجاز يناضل ، ولعل أهم سبب لنضاله هو محاولته استعادة سلطانه الغابر ومجده الذى أوشـــك أن يزول ، فكانت وقعة الحرة التى قصصنا طرفا من حديثها من قبـــل ، وفى هـــذه الموقعة المشئومة سقط زهرة شباب الأنصـــار والمهـــاجرين ، كما ســـقط كثير من الصحابة والتابعين ، وهناك من نجا من هول المعركة ولكن حكم الاعدام كان ينتظره من مسلم بن عقبة .

وتجدد أمل الحجاز بعد ذلك فى ابن الزبير بعد موت يزيد ، واتسع شأن ابن الزبير ، ولكن مكة تعرضت فى عهد ابن الزبير لأهوال جيش الشام مرتين : احداهما فى عهد يزيد حينما سار إليها جيشه عقب الانتهاء من موقعة الحرة ، وقد آلت رياسة هذا الجيش الى الحصين بن نمير لموت مسلم ابن عقبة قبل أن يصل الجيش الى مكة ، وقد أنزل هذا الجيش النوازل بمكة ، ولكنها نجت من التدمير بموت يزيد وانسحاب ذلك الجيش .

وثانيتهما فى عهد عبد الملك حيث قضى الحجاج على ابن الزبير وقضى فى نفس الوقت على أمل الحجاز فى استرداد سلطانه .

وهكذا أصبح الحجاز ولا أمل له فى السلطان السياسى ، وقد ضحى الحجاز بأغلى ما به من دماء ليستعيد مكانته ولكن هذه التضحيات لم تأت بطائل . ونشأ بعد ذلك جيل جديد فى الحجاز ، جيل لم يطمع فى سلطان سياسى ، ولم يكن موضع ثقة خلفاء دمشق فلم توكل لهم أعمال ذات بال ، وورث هذا الجيل ثروة طائلة جمعها الجيل السابق الذى كانت له الصدارة من قبل ، فاجتمع بذلك فى أبناء مكة والمدينة الشباب والفراغ والجدة ، واتجهت المدينتان المقدستان الى الأدب والفن تجد فيهما السلوى عما فقدتاه من جاه عريض وسلطان ضخم ، وهكذا أصبح النسيب فناً قائماً بذاته بعد أن كان يظهر فى مطلع القصائد فقط ، وظهر بمكة عمر بن أبى ربيعة شاعر الغزل الشهير ، وظهرت الصالونات الأدبية وحلقات الغناء والموسيقى ، فظهر طويس وابن سريج والغريض ، وقد أبدع الغريض فى الغناء حتى توهم الناس أنه يتلقى غناءه من الجن ، ويروى أنه خرج مرة الى طريق الحجاج وتوقف حيث يراهم ولا يرونه وأخذ يغنى من شعر عمر بن أبى ربيعة :

أيها الرائح المجد ابتكارا
قد قضى من تهامة الأوطارا

فملك الطرب قلوب السامعين وقالوا : طائفة من حجاج الجن [1]

وهكذا انتقل الحجاز من قمة الى قمة ، من قمة فى السياسة الى قمة فى شئون الأدب وشئون الفن .

---

(١) الأغاني ٣ : ٣٠٢ وما بعدها .

الوليد بن عبد الملك (٨٦ ــ ٩٦ هـ)

ولد الوليد سنة خمسين للهجرة ، وتلقى بعض الثقافات الاسلامية ، ولكن ثقافته فى اللغة العربية كانت ضعيفة فكان بسبب ذلك لحانا ، ويروى أن أباه عبد الملك قال : أضَرَّ بالوليد حبنا له فلم نرسله البادية • وكانت البادية مدرسة لمن أراد أن يتعلم اللغة الفصحى بعيدا عما انتشر بالمدن الاسلامية من لحن بسبب اختلاط العرب بغير العرب ، ولكن أباه لم يدعه فى لحنه وخطئه بل قال له فى حزم : انه لا يلى أمر العرب الا من يحسن كلامهم • ولهذا دخل الوليد بيتا وأخذ معه جماعة من علماء النحو وأقام مدة يشتغل به (١) •

وكان مروان بن الحكم قد بايع لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز ، ولكن عبد العزيز مات قبل وفاة عبد الملك فعين عبد الملك ولديه : الوليد ثم سليمان سنة ٨٥ هـ ، وكتب بذلك الى البلدان فبايع الناس ولم يمتنع غير سعيد بن المسيب بالمدينة (٢) ولما مات عبد الملك جدد الناس البيعة للوليد •

وقد مر بنا الجهد الكبير الذى بذله عبد الملك ليعيد وحدة العالم الاسلامى ، والعناء المتصل الطويل الذى استلزم صراعا امتد حوالى عشرين عاما ، ولكن عبد الملك استطاع أن يحقق أمله وأن يصل الى غايته وترك لابنه الوليد ملكا مستقرا هادئا متحدا • وكان الوليد خير من يتسلم هذا الملك ، وأعظم من يرعى هذا التراث ، وكان عبد الملك رجل صراع فى عهد يحتاج للصراع ، وكان الوليد رجل سلم واصلاح فجاء فى عهد سلم وقام بالاصلاح • ولقد بنى عبد الملك البناء شاهقا وجاء الوليد فزينه وحسنه ونماه •

---

(١) الفخرى ص ١٠٩ •
(٢) اقرأ قصة ذلك فى الطبرى جـ ٥ ص ٢٠٩ ــ ٢١٠ •

اصلاحات الوليد الداخليـــة :

أن ما قام به الوليد من اصلاحات داخلية يدل دلالة واضـحة على سمو روح الاسلام وعظـم مبادئه وتوجيهاته ، ويدل كذلك عـلى عبقرية عظيمة لهذا الخليفة العظيم ، إنها أعمال لو تمت فى العصر الحـديث لكانت مفخرة ، فما بالك وقد تمت منذ حوالى ثلاثة عشر قرنا أى فى عهـد كان الظلام والجهل مطبقين على أكثر بقاع الدنيا ، تعال بنا نجل جولة سريعة فى اصلاحات هذا الخليفة الفذ .

من أعمال الوليد العظيمة أنه تعهد الأيتام وكفلهم ورتب لهم المؤدبين، كما رتب للزمنى من يخدمهم ، وللمكفوفين من يقودهم ، ورتب لهؤلاء جميعا الأرزاق المنتظمة (١) ، كما وضـع المجذومين فى بيت يرعاهم طبيـا حتى لا يخرجوا على الناس بعاهاتهم ورتب لهم الأرزاق الوافية ، وأعطى كل مُقْعَدٍ خادما يهتم بأمره وأجرى لهم الأرزاق الوافية (٢) .

واهتم الوليد كذلك بالعمران فأنشأ الطرق ومهدها وبخاصة الطـرق المؤدية للحجاز ، كما حفر الآبار على طول هذه الطرق ، ووظف من يعنى بهذه الآبار ويمد الناس بمائها (٣) ، ويروى أن الوليد كان شديد الـكلف بالعمارات والأبنية واتخاذ المصانع حتى اشتهر بذلك شُهْرَةَ سليمان بحب النساء والطعام ، وشهرة عمر بن عبـد العزيز بالتقـوى والورع ، وكان الناس يلتقون فى عهد الوليد — والناس كما يقولون على دين ملوكهـم — فيسأل بعضهم بعضا عن البناء والعمـران ، فلما تولى سـليمان واهتم بالنساء والطعام كان الناس يتساءلون عن التزويج والجوارى ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز وبرز فى التقوى كان الرجل فى عهده يقابل الرجل فيسأله: ما وردك الليلة ؟ وكم تحفظ من القرآن (٤) .

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٣ .
(٢) الطبرى : جـ ٥ ص ٢٢٤ — ٢٦٥ والفخرى ص ١٠٩ .
(٣) المرجعان السابقان .
(٤) الطبرى جـ ٥ ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .

ومن آثار الوليد الخالدة فى العمارة المسجد الأموى بدمشق ، وكان يعد أحد عجائب الدنيا ، ولا يزال حتى اليوم ناطقا بعظمة الوليد وجهده البالغ ، ومن آثاره كذلك عمارة المسجد النبوى وقد قام بذلك والى المدينة آنذاك عمر بن عبد العزيز ، فهدم البناء القديم بأمر الخليفة وأعاد بناءه بعد أن وسعه بادخال حجرات أزواج الرسول فيه ، وكذلك بادخال دور أخرى اشتريت لهذا الغرض .

وكان الوليد يميل الى العدل والقسطاس ، روى أن محمد بن يوسف عامله على اليمن حمل له هدايا وألطافا ، فقيل للوليد أن محمداً غصب هذه الهدايا من الناس وكلفهم عملها دون أجر ، فامتنع الوليد عن أخذ الهدايا وأصر محمد على أنها من ماله الخاص ، فلم يقبلها الوليد حتى حلف محمد بين الركن والمقام فى مكة خمسين يمينا ما غصب شيئا منها ولا ظلم أحدا ولا أصابها الا من طيب (١) .

وكان عهد الوليد على العموم عهد سعة ورخاء وأمن واطمئنان ، وفى ظل هذا اليُسْرِ وتلك الوحدة القوية ، ثم فى ظل إيمان الوليد وقوته اتسع العالم الاسلامى وامتد حتى شمل الأندلس وشمل السند وغيرهما من البقاع على ما سيأتى ايضاحه .

ومن أهم الرجال الذين اعتمد عليهم الوليد الحجاج قائد أبيه وقد مر ذكره ، وقد أوصى عبد الملك ابنه الوليد بالحجاج وصية تمثل مكان الحجاج فى ملك بنى أمية ، قال عبد الملك : وانظر الحجاج فأكرمه فانه هو الذى وطأ لكم المنابر ، وهو سيفك يا وليد ويدك على من ناوأك ، فلا تسمعن فيه قول أحد ، وأنت اليه أحوج منه اليك (٢) . وقد كانت هذه الوصية عميقة الأثر فى نفس الوليد وجدير بها أن تكون كذلك روى عن الوليد قوله :

---

(١) المرجع السابق ص ٢٦٧ .
(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٠ .

كان عبد الملك يقول : الحجاج جلدة ما بين عينى وأنفى وأنا أقــول : انه جلدة وجهى كله [١] •

وتختلف الروايات عن احساس الوليد تجاه الحجاج فى آخريات أيام الحجاج ، فيروى الطبرى أن الحجاج ثقل على الوليــد قبيل مــوته ، ولكن الوليد لم يستطع أن يعزله أو يمسه بسوء وبقى الحجاج حتى مات ففرح الوليد بموته [٢] ولكن ابن عبد ربه يروى أنه لما مات الحجاج فى آخر أيــام الوليد بن عبد الملك تفجع عليه الوليد [٣] وتتفق رواية المبرد مغــزى مــع رواية ابن عبد ربه • فقد روى عن الأصمعى أن الوليد خرج يوما عــلى الناس وهو مشعان الرأس (منتفخ الشعر متفرقه) فقال : مات الحجاج ابن يوسف وقرة بن شريك وجعل يتفجــع عليهما [٤] • وذلك الرأى هو مــا نميل اليه ، فكل الدلائل تدل على عمق الصلة بين الوليــد والحجاج حتى آخر اللحظـــات •

ومن الرجال الذين اعتمد عليهــم الوليد كذلك عمــر بن عبد العزيز الذى ولاه المدينة سنة ٨٧ هـ وسيأتى مزيد من الكلام عنه عند الحديث عن خلافته ، ومنهم محمد بن القاســم وقتيبة بن مســلم وموسى بن نصــير وسنتحدث عن هؤلاء الثلاثة عند الحــديث عن الفتوحات فى عهــد الدولة الأمــوية •

---

(١) ابن عبد ربه : العقــد الفريد جـ ٥ ص ٥٥ •
(٢) تاريخ الأمم والملوك جـ ٥ ص ٢٦٦ •
(٣) العقــد الفريد جـ ٥ ص ٥٥ •
(٤) الكامل فى اللغة والادب جـ ٣ ص ٤٥٢ •

سليمان بن عبد الملك (٩٦ — ٩٩ هـ)

ولد سليمان بن عبد الملك سنة ٦٠ هـ وبويع له بعد موت أخيه الوليد وكان الوليد قبيل وفاته قد فكر في عزل أخيه سليمان من ولاية العهد وتولية ابنه ، ولما تشاور الوليد لذلك [illegible] الحجاج [illegible] ومحمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم (١) [illegible] سليمان [illegible] عمر بن عبد العزيز [illegible] أن لك ولأخيك سليمان بيعة واحدة في أعناقنا فإما أن تبقى كلها أو تسقط كلها ولكنها لا تتجزأ ، ولم يتم رأي الوليد لذلك ، ولهذا نقم الوليد على عمر بن عبد العزيز فعزله عن ولاية المدينة .

وقد كانت حادثة تغيير ولي عهد الوليد حادثة مشئومة ، صبغت مطالع عهد سليمان بلون كريه ، وجعلت الفترة الأولى من حكمه مملوءة بالانتقام المر ، الانتقام لشخصه من القادة البارعين الذين ملأ ذكرهم البقاع ، وقد كان الحجاج يحس بالفجوة والكراهية بينه وبين سليمان ، وكان يتمنى أن يموت قبل الوليد ، وقد حقق الله أمنيته فنجا الحجاج بالموت من غضب سليمان ، أما آل الحجاج ومحمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم فقد ذاقوا العذاب الوبيل من سليمان ، وهكذا عذب وقتل محمد بن القاسم درة عصره والذي على يده دخل الاسلام السند ، وقتل قتيبة بن مسلم الذي دفع الفتح الاسلامي الى خراسان وما وراء النهر والذي كان ميمون النقيبة ويلقب عند أهل خراسان بملك العرب . ويقال أن قتيبة بن مسلم هو الذي بادر — لخوفه من سليمان — بعزله ، فثار عليه بنو تميم وكانوا يكونون عنصرا هاما في جيشه وولى الثائرون أمرهم رجلا منهم أسمه وكيع ابن حسان التميمي ثم هجموا على قتيبة فقتلوه ، وعلى كل فقد قتل قتيبة من جراء ولاية عهد الوليد (٢) ويروى الطبري (٣) أن رجلا من أهل خراسان

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٢٦٧ وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٩٩ .

(٢) اقرأ تفاصيل قتل قتيبة فى الطبرى ج ٥ ص ٢٧٣ وما بعدها وفى البلاذرى ص ٤١١ وما بعدها .

(٣) تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٢٨٣ .

قال للعرب : يا معشر العرب قتلتم قتيبة ، والله لو كان قتيبة منا فمات فينا جعلناه فى تابوت فكنا نستفتح به اذا غزونا .

وهناك تنكيل أوقعه سليمان بالقائد العظيم موسى بن نصير ، ولم يكن هذا التنكيل مرجعه ولاية العهد ، ولكن سببه — فيما يروى — شره سليمان وحبه للدنيا ، وتقول الرواية ان موسى بن نصير قدم من الأندلس ومعه هدايا وطرف ، ولما كان فى الطريق مرض الوليد وطمع سليمان فى الحصول على هدايا الأندلس وطرفه لنفسه ، فكتب الى موسى يطلب منه أن يتريث فى سفره ريثما يموت الوليد ، فلم يقبل موسى وواصل سفره فنقم عليه سليمان وعذبه وحبسه وصادر أمواله وألزمه غرامة كبيرة جعلته يسأل العرب المعونة لسدادها (١) .

تلك كانت مأساة الانتقام التى حدثت فى عهد هذا الخليفة ، وهى بلاشك نقطة سوداء فى تاريخه ، وفيما عدا هذه النقطة فاننا نجد بعض المؤرخين يذكرونه بخير ، فيقول الطبرى (٢) ان الناس كانوا يقولون عن سليمان أنه مفتاح الخير ، أطلق الأسارى ، وعفا عن المسجونين ، وأحسن الى الناس ، واستخلف عمر بن عبد العزيز .

ويقول السيوطى (٣) ان سليمان كان من خيار بنى أمية وكان فصيحا مفوها ، مؤثرا للعدل ، محبا للغزو ، ويروى كذلك عن ابن سيرين أنه قال : يرحم الله سليمان ، افتتح أيامه باحيائه الصلاة لمواقيتها ، واختتمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز .

والحقيقة أنه كان عملا نبيلا من سليمان أن يترك ولديه ويولى عهده ابن عمه ، وقد رأى سليمان بنفسه حرص الآباء على تولية أبنائهم ، رأى

---

(١) ابن قتيبة : فى الامامة والسياسة جـ ٢ ص ٧٩ — ٨٠ .
(٢) تاريخ الامم والملوك جـ ٥ ص ٣٠٤ .
(٣) تاريخ الخلفاء : ٢٢٥ — ٢٢٦ .
(٤) انظر فتوح البلدان ص ١٤٣ والأغانى جـ ١٣ ص ١٦٠ ومعجم البلدان عند الكلام عن بلدة « الرملة » .

ذلك في بيتيه معاوية ومروان ، وفى أبيه عبد الملك وأخيـه الوليد ، ولكن سليمان كان من القلائل الذين آثروا المصلحة العامة للمسلمين وجعلوهـا ترجح مصلحة أبنائهم وتتغلب على عواطف الأبوة ، ثم ان اختياره كـان موفقا الى أبعد حدود التوفيق ، فوضع بين خلفاء بنى أمية الرجـل الذى يعتبر بحق فى عداد الخلفاء الراشدين .

وقد عرف عن سليمان حبه لقصره الصـحراوى فى الرملة وامضاؤه أغلب وقته فيه ، وكان اتجاها عاما للأمويين قبل سليمان وبعده أن يتخذوا القصور الصحراوية لتنقلهم من ضجيج الحياة بدمشق الى هدوء الصحراء ونسيمها العليل وجوها الصحى السليم من الأوبئة ، ولكن سليمان يمتـاز عن غيره بأنه تأنق فى قصره بالرملة ، فلما تولى الخـلافة استكمل القصر أناقته فأصبح كأنه عاصمة صغيرة ، لأن الخليفة بنى مسجدا بجوار القصر وحفر الآبار ومد الأنهار وأذن لكثير من أتباعه بالبناء حول قصره (١) .

وسليمان كان يمتـاز بشباب مورق وجمال رائع ، وكان يعجب بنفسه اذا نظر فى المرآة ويقول : أنا الملك الفتى ، ويروى أنه فى يوم لبس حلة خضراء وعمامة خضراء واتجه الى المرآة فأعجب بنفسه وطرب بها ،وشهدته جارية من جواريه وهو فى عجبه وتهيهه فأنشدت :

أنت نعـم المتـاع لو كنـت تبقـى
غـير ألا بقـاء للانسـان

أنت خـلو من العيـوب وممـا
يـكره النـاس ، غـير أنك فـان

فلم يمض أسبوع واحد حتى مات (٢) .

ومن الرجال البررة الذين اعتمد عليهم سـليمان رجاء بن حيـوة وسنتكلم عنه عند الكلام عن عمر بن بد العزيز ، ومن رجال سليمان المبرزين

(١) انظر فتوح البلدان ص ١٤٣ والأغانى ج ١٣ ص ١٦٠ ومعجم البلدان عند الكلام عن بلدة الرملة .

(٢) الطبرى ج ٥ ص ٣٠٥ والعقد الفريد ج ٤ ص ٣٢٥ .

كذلك يزيد بن المهلب بن أبى صفرة الذى خلف أباه كعامل على خراسان قبل عهد سليمان ، ولكن سرعان ما نشب الخلاف بين يزيد وبين الحجاج الذى كان له الاشراف على الشرق كله ، وكان الحجاج قد تزوج أخت يزيد ولكن ذلك لم يقلل من حدة الخلاف ، وانتهى الأمر بأن قبض الحجاج على يزيد وأسرته وأطلق أعوانه يعذبونهم ، ولم يقبل شفاعة زوجته فيهم بل طلقها عندما رأى سخطها لما ينزل بآلها ، واستطاع آل المهلب الهرب من سجن الحجاج ، ولحقوا بسليمان بن عبد الملك فى الرملة فاستجاروا به ، وكانت بينهم وبينه صلة فأجارهم • وكتب الحجاج للوليد يوغر صدره ضدهم ، فطلب الوليد من سليمان أن يرسل له آل المهلب مقيدين فأرسلهم سليمان مقيدين فى سلسلة تضم ابنه أيوب أيضا ومعه خطاب من سليمان يستعطفه ويرجوه ألا يمس جواره ، فاستجاب له الوليد وكتب للحجاج أن يكف عن بنى المهلب فسكت الحجاج عنهم (١) •

ولما تولى سليمان الخلافة شغل آل المهلب له خير الأعمال ، وأصبح يزيد من كبار رجال دولته ، فأسندت له ولاية خراسان وقيادة جيوش المسلمين فى نواحى جرجان وطبرستان ، وقد انتصر فى معاركه بهذه النواحى انتصارا عظيما ، ولما كان فى قمة النصر كتب الى الخليفة يصف له الفتح العظيم والغنائم الكبيرة التى حصل عليها ويقول « وقد صار عندى من خمس ما أفاء الله به على المسلمين — بعد أن صار الى كل ذى حق حقه من الفىء والغنيمة — ستة آلاف ألف وأنا حامل ذلك لأمير المؤمنين ان شاء الله » (٢) •

ومات سليمان دون أن ترسل هذه الأموال ، فطالبه عمر بن عبد العزيز بها ، فادعى أنه كان يبالغ اعتقادا منه أن سليمان ما كان ليأخذ منه شيئا • فحبسه عمر (٣) ، وظل فى محبس عمر حتى مرض عمر ففر يزيد من المحبس وأعلى عصيانه ليزيد بن عبد الملك ، وسيأتى بعض التفصيل لموقفه من يزيد بن عبد الملك عند الكلام على هذا الخليفة •

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٢٣٠ وما بعدها .
(٢) المرجع السابق ٣٠٣ .
(٣) المرجع السابق ص ٣١٢ .

عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١) هـ

نحن الآن أمام صفحة رائعة من صفحات التاريخ الاسلامى ، صفحة وسطت ما انقطع من تاريخ أبى بكر وعمر ، ومن الممكن أن نقرر أن عهد عمر بن عبد العزيز — على قصره — كان عهدا قائما بذاته ، له خواصه وله طابعته الاسلامية الصافية ، التى لم تتأثر بما يؤخذ على بنى أمية من انحرافات ومظالم .

ولد عمر بن عبد العزيز بمدينة حلوان بالقرب من القاهرة فى أثناء ولاية أبيه على مصر ، كما جاء فى تهذيب الأسماء للنووى (١) ، ويروى ابن عبد الحكم أنه ولد بالمدينة (٢) ، ويتصل نسبه من جهة أمه بالخليفة الثانى عمر بن الخطاب ، ولعله ورث منه كثيرا من الخلال الكريمة والصفات النادرة ، كما أمضى سنيه الأولى مع أعمام أمه بالمدينة ، فتلقى فى هذا الجو العطر كثيرا من التوجيهات الرشيدة ونبت نباتا حسنا ، وكان لتربيته تلك أثر كبير فيما عرف عنه من مزايا ومحامد .

ولما شب تزوج فاطمة بنت عمه عبد الملك ، وكان عبد الملك يقربه ويحبه ، وفى عهد الوليد كانت لعمر ولاية المدينة ، فأحسن السيرة ولكنه كما يقول ابن عبد الحكم كان يعصف عطره ، ويسترسل شعره ، ويطول أزاره ، ويتبختر فى مشيته ، وهو مع ذلك لا يعاب فى بطن ولا فرج ولا حكم (٣) .

وقد عزله الوليد عن ولاية المدينة لخلاف بين عمر وبين الحجاج أو لرفض عمر الموافقة على عزل سليمان بن عبد الملك والبيعة لابن الوليد كما مر .

---

(١) أنظر ترجمة حياة عمر بن عبد العزيز فى تهذيب الأسماء .
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٩ .
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٢٠ .

وعمر من الخلفاء القلائل الذين سعت لهم الخلافة دون أن يسعوا اليها ، أو يحاولوا الحصول عليها ، بل أنه كان حريصا على ابعادها عن نفسه ، ويرى فيها امتحانا قاسيا يثقل عليه حمله ، ولكن سليمان ابن عبد الملك كان يظهر اعجابه بعمر ويراه أكفأ بنى قومه ، فلما مرض (سليمان) استشار وزيره رجاء بن حيوة فيمن يعهد له بالخلافة وسأل رأيه فى عمر ابن عبد العزيز ، فأثنى رجاء على عمر وحسن لسليمان أن يعهد اليه ، وأدرك عمر بفطنته اتجاه سليمان اليه ، فخلا برجاء وقال له : يا رجاء ، انتى أرى أمير المؤمنين فى الموت ، ولا أحسبه الا سيعهد ، وأنا أناشدك الله إن ذكرنى بشىء من ذلك إلا صددته عنى ، وإن لم يذكر ألا تذكرنى له فى شىء من ذلك . وأراد رجاء أن يصرف عمر بن عبد العزيز عن الحديث فى ذلك الموضوع فقال له : لقد ذهب ظنك مذهبا ما كنت أحسبك تذهبه ، أتظن بنى عبد الملك يدخلونك فى أمورهم (١) وهكذا خدع عمر فسكت ولم يفتح بعد ذلك هذا الموضوع ، ولكن الأمر كان قد دبر على نحو الاتفاق الذى تم بين سليمان وبين رجاء ، فان سليمان عهد لعمر بن عبد العزيز ، وجعل من بعده يزيد بن عبد الملك وكتب بذلك عهدا وأعطاه لرجاء ، وطلب سليمان من بنى أمية ومن قادة الجند أن يبايعوا لمن ارتضاه الخليفة لهم فبايعوا ، ومات سليمان بعد ذلك ، فكتم رجاء خبر وفاته وجمع وجوه الناس وطلب منهم تكرار البيعة ففعلوا ، ثم نعى رجاء لهم سليمان وفض الكتاب ، وأعلن أن عمر هو الخليفة الجديد ، فاسترجع عمر حين ذلك وقال: والله ان هذا الأمر ما سألته قط فى سر ولا علانية (٢) ، ثم صعد المنبر وانطلق يقول : أيها الناس ، انى قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأى كان منى فيه ، ولا طلبة لى ، ولا مشورة من المسلمين ، وانى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى فاختاروا لأنفسكم . وأخذ عمر ينزل من فوق المنبر ، ولكن الناس صاحوا به : قد اخترناك ، وأقبلوا عليه وبايعوه (٣) .

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٣٠ — ٣١ .

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٣١ .

(٣) الطبرى ج ٥ ص ٣٠٧ وابن الجوزى ص ٥٥ والفخرى ص ١١٠ .

وسار عمر يدفن سليمان ، ولما رجع رآه مولاه مغتما ، فسأله : مالى أراك مغتما ؟ قال : لمثل ما أنا فيه فليغتم ، ليس أحد من الأمة الا وأنا ملزم أن أوصل اليه حقه ، غير كاتب الى فيه ولا طالبه منى (١) . وهكذا كان ادراك عمر للمسئولية منذ اللحظة الأولى ، ويروى أن زوجته دخلت عليه عقب توليته الخلافة فوجدته يبكى فقالت له : ألشىء حدث ؟ قال : لقد توليت أمر أمة محمد ، ففكرت فى الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعارى المجهود ، والمقهور والمظلوم ، والغريب والأسير ، والشيخ الكبير ، وعرفت أن ربى سائلى عنهم جميعا ، فخشيت ألا تثبت لى حجة فبكيت (٢) .

نمـوذج فريد :

ويمكن القول إن الخلافة شطرت حياة عمر شطرين ، فشطر حياة عمر كان فيه خيلاء وغناء ، وعطر وثراء ، وكثير من مظاهر الجاه والسؤدد ، وأما الشطر الآخر فكان خشونة وصراعا ، ويغلب أن تكون كذلك حياة الملوك ، ولكن حياة الخشونة والحرمان يعرفها الملوك قبل أن ينالوا الملك ، فاذا نالوه نالوا معه نعيم الحياة ورخاء البال ، ولكن عمر بن عبد العزيز كان على العكس من ذلك ، كان شطر حياته قبل الخلافة شطر السعادة والثراء ، أما بعد الخلافة فكانت حياته حياة الكفاح والقناعة والعمل الدائب وسنذكر فيما يلى بعض التفاصيل لهذا الاجمال :

عمر سليل بنى أمية وأبوه عبد العزيز بن مروان ، وعمه الخليفة العظيم عبد الملك ، وزوجته فاطمة بنت عبد الملك وأخت الوليد ، ومن هنا انفسح له الرزق ، وعرف حياة القصور وعاش فيها ، وتربى فى نعيم وبحبوحة ورخاء ، وامتد ثراؤه فأصبحت له قطائع يستغلها فى الحجاز والشام وفى مصر واليمن والبحرين ، وقد ورد عليه منها دخل ضخم من المال قدر بأربعين ألف دينار كل عام (٣) .

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٣١ .
(٢) ابن عبد الحكم ص ١٧٩ وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٣٦ .
(٣) عبد العزيز سيد الأهل : الخليفة الزاهد ص ٣٢ — ٣٣ .

وعرف عمر قبل الخلافة الطيب ومطرف الخز ، كما عرف الغناء وطرب له ، وصفق للمغنين ، ثم تمادى فى ذلك فغنى ووضع الألحان للغناء ، وزود غفر قصوره بأفخر الأثاث وأغلى الرياش [١] ، ويروى أنه كان مما يؤخـذ على عمر قبل الخلافة مبالغته فى التنعيم وافراطه فى حسن المظهر واختياله فى مشيته [٢] • وكانت مشيته تسمى العمرية نسبة اليه ، وكان الجـوارى يتعلمنها من حسنها وتبخترها بها ، وكان يستعمل نوعا رائعا من الطيب فاذا مشى ضاعت رائحته فى المكان الذى يمر فيه [٣] •

ثم جاءت الخلافة الى عمر فكانت حدا فاصـلا بين حياته السـابقة وحياته اللاحقة ، فقد أحس بالمسئولية ضخمة ، وبالمظالم كثيرة ، والتبعات ثقيلة ، كما ذكرنا ، فبدأ يعمل بجد من اللحظة الأولى ، وأول ما ابتدأ به أنه جىء له بمراكب الخلافة عقب دفن سليمان ، وكانت هذه المراكب تشمل البراذين والخيل والبغال • فأجاب : دابتى أوفق لى ، وباع هذه المراكب ووضع ثمنها فى بيت المال كما باع السرادقات والفرش والأوطئة المخصصة للخلفاء وضم ثمنها كذلك الى بيت المال [٤] •

وعاد عمر بعد ذلك الى نفسه يحاسبها ، فجرد نفسه من كل نعيم ، ورد القطائع التى كانت قد وهبت له ، وتخلص من القطائع والأموال التى كان قد ورثها اعتقادا منه أنها لم تكن حلالا طيبا [٥] ونزع ثيـابه واستبدل به كساء بثمانية دراهم ، ويروى ابن الحكم أن عمر كان قبل خلافته يرى الكساء الذى يبلغ ثمانمائة درهم خشنا ، فأصبح يرى الكساء الذى يبلغ ثمنه دراهم لينا ويبحث عن كساء أكثر منه خشونة [٦] ، وغسل عمر الطيب

---

(١) المرجع السابق من الصفحات ١٦ ، ١٧ ، ٤٠ ، ٤١ •
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٩ •
(٣) ابن الحكم ص ٢١ •
(٤) ابن عبد الحـكم ص ٣٥ والطبرى ج ٥ ص ٣٠٩ وتاريخ الخـلفاء للسيوطى ص ٢٢٧ — ٢٢٨ •
(٥) ابن عبـد الحـكم ص ٤٥ ، ٦٠ ، والسـيوطى : تاريخ الخـلفاء ص ٢٣١ — ٢٣٢ •
(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٤٨ •

عن نفسه ، ودعا الحجام فقص فضلة شعره ، وباع ما عنده من ملبس وعطر ووضع الثمن فى بيت مال المسلمين وترك عمر ألوان الطعام الجميلة ، وأخذ يأكل الطعام الجاف ، وتولى خدمة نفسه بنفسه ولم يسمح لأحد أن يخدمه (١) .

وانثنى عمر الى زوجته وهى — كما قلنا — حفيدة خليفة وبنت خليفة وأخت خلفاء ، وقد انحدر لها من هذا المحتد أغلى الجواهر واللآلىء ، وأثمن المتاع والرياش ، فقال لها عمر : قد علمت حال هذا الجوهر ومن أين أصابه ذووك ، فإما أن تختارينى وتدعى كل هذا المتاع ، وإما أن تختارى متاعك وأسرحك . فاختارته وقبلت العيش معه فى البساطة التى أرادها (٢) .

وكان الخدم حين استخلف عمر ظنوا أنهم قد سادوا الناس ، فلما صارت حالهم الى هذا الشر حزنوا لولايته وتفرقوا عنه ، وكان له غلام يقال له درهم ، فقال له عمر بعد أن مضت أيام من خلافته : ما يقول الناس يا درهم ؟ فأجاب : وما يقولون ؟ الناس كلهم بخير وأنا وأنت بشر . قال عمر : كيف ذلك قال : انى عهدتك قبل الخلافة عطرا ، لباسيا ، فاره المركب طيب الطعام ، فلما وليت رجوت أن استريح واتخلص من العمل والجهد ، فزاد عملى شدة وصرت أنت فى بلاء . قال عمر : أنت حر ، فاذهب عنى ودعنى وما أنا فيه حتى يجعل الله لى منه مخرجا (٣) .

وبذلك أصبح عمر وزوجته وبيته فى حالة أقرب الى الفقر كالصورة التى ترسمها القصة التالية :

قدمت الى عمر امرأة من العراق تطلب عطاء لها ولبناتها الخمس ، فلما صارت الى باب الخليفة قالت : هل على باب أمير المؤمنين حاجب ؟

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٤٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٦٠ — ٦١ وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٣٢ .
(٣) ابن الجوزى ص ١٢٥ وابن عبد الحكم ص ٤٦ والعقد الفريد جـ ٤ ص ٤٣٥ .

فقالوا : لا ، ادخلى ان احببت • فدخلت المرأة على فاطمة زوجة عمر وفي يدها قطن تغزله فسلمت وجلست ، ثم رفعت بصرها فلم تر فى البيت شيئا ذا بال فقالت : انما جئت لأعمر بيتى من هذا البيت الخراب • فقالت فاطمة : انما خرب هذا البيت عمارة بيوت أمثالك • ولما جاء عمر وعرف حالة المرأة بكى وفرض لها ولبناتها ما يكفيهن (١) •

ولما فعل عمر بنفسه ذلك أصبح مستعدا أن يفعل ذلك بالآخرين ، وكان كثيرون من بنى أمية قد نالوا بعض أموال المسلمين أو أموال البلاد المفتوحة عن طرق غير مشروعة كالاستيلاء ، أو عن طرق تبدو مشروعة وهى ليست كذلك كالقطائع والهبات ، ويروى ابن الجوزى (٢) أن عمر انقطع عن الناس ثلاث ليال اضطرب لها وجوه بنى مروان وبنى أمية وأشراف الجند والعرب ، ووقفوا ببابه ينظرون ما يخرج عليهم منه ، أما هو فقد أخذ مع مزاحم وزيره ومستشاره يجمعان سجلات القطائع التى اقطعت للأمراء وسجلات الهبات الضخمة التى صرفت لهم ، وعهود الأموال التى تجرى عليهم ، فلما اجتمعت السجلات والكتب أمر عمر أن ينادى بصلاة جامعة ، فأجتمع الناس وخرج عمر فصعد المنبر ووقف مزاحم دونه وكان عمر يرتدى ثيابا رخيصة ، ثم خطب فقال : ان السابقين أعطوا عطايا ما كان لهم أن يعطوها وما كان لها أن تقبل ، وانى قد بدأت بنفسى فرددت الحقوق الى أصحابها ، رددت القطائع والأموال الى بيت مال المسلمين ، وثنيت بأهلى : اقرأ يا مزاحم فأخذ مزاحم يقرأ سجلا سجلا ، ثم يأخذه عمر فيمزقه ويعلن عودة الأرض الى بيت المال أيا كان المعطى ، وأيا كان الموهوب له ، ومازالا كذلك حتى جاء وقت الظهر •

أما الأرض المغتصبة والتى لا سجل لها ، فقد أعلن عمر عودتها الى أصحابها أو الى بيت المال ان لم يكن لها صاحب •

---

(١) ابن عبد الحكم ص ١٧٧ .
(٢) عمر بن عبد العزيز ١٠٦ .

وسارع عمر فخلع الولاة الظالمين والعمال القساة ، فعزل أسامة ابن زيد التنوخى عن صدقات مصر ، وكان غاشما ظلوما كثير الاعتداء ، وعزل يزيد بن أبى مسلم عن افريقية ، وصالح بن عبد الرحمن عن العراق ، والحارث بن عبد الرحمن الثقفى عن الأندلس (١) •

وأوقف عمر الحروب مع غير المسلمين أو مع المتمردين من المسلمين ، واستبدل بذلك دعوة غير المسلمين للاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، كما حاجج المتمردين والخوارج ليتغلب عليهم بالدليل والاقناع ، وقد انتصر عمر فى الحالتين ، انتصر فى دعوته غير المسلمين للاسلام ، وانتصر فى مناظراته مع الثائرين من المسلمين ، وكانت سيرته العطرة خير مساعد له لتحقيق هذا الانتصار ، فدخل كثير من ملوك السند الاسلام بدعوته وتبعتهم شعوبهم ، كما دخل الاسلام كثير من المصريين والسوريين والفرس الذين لم يكونوا قد دخلوا الاسلام من قبل على الرغم من دخول الاسلام بلادهم ، مكتفين بدفع الجزية والدخول فى الذمة ، ثم جذبتهم سماحة عمر الى الاسلام مما جعل عصره يسمى « عصر إسلام البلاد المفتوحة (٢) » •

أما الخوارج — وسيأتى حديث خاص عنهم — فقد بهرتهم سيرته وأعماله فأوقفوا نشاطهم الثورى والتقوا مع عمر للتفاهم معه بالحجة ، فغلبهم بخلقه وعلمه وبيانه ، وانصاع إليه كثيرون منهم (٣) •

وخفف عمر من أثقال الخراج الذى يؤخذ من النصارى ، وأوقف أخذ الجزية ممن دخل الاسلام منهم ، فانهال الناس على الاسلام تقديرا للاسلام ولعمر خليفة المسلمين ، فكتب له عامل أهوج يقول : ان هذا يضر بالجزية • فتلقى عمر الجواب الآتى : قبح الله رأيك ، ارفع الجزية عمن

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٣٤ ـ ٣٥ •

(٢) الطبرى جـ ٥ ص ٤٠٩ ، واقرا كذلك « التاريخ السياسى للدولة العربية للدكتور ماجد » عند الحديث عن عمر بن عبد العزيز •

(٣) الطبرى جـ ٥ ص ٣١١ وابن عبد الحكم فى الصفحات ٨٣ ، ٨٩ ، ١٣٠

أسلم ، فإن الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا ، ولعمري عمر أشقى من أن يسلم الناس جميعهم على يدية (١) .

وسوى عمر بين العرب وغيرهم كما تقضى بذلك شريعة الاسلام ، فأوقف مشكلة الموالى التى أكثر المؤرخون الحديث عنها ، وقد أوردنا شرحها فى كتابنا « الاقتصاد فى الفكر الاسلامى » .

وامتاز عهد عمر بكثير من الاصلاحات التى تدل على نضج فى التفكير وعلى الوعى الكامل ، وله فى ذلك كتاب أرسله فى صيغة نشرة دورية الى جميع العمال ، شرح فيه بعض ما كان مشكلا ، ويمكن أن يمثل هذا الكتاب مواد القانون الأساسى فى عهد عمر ، ونحن نقتطف من هذا الكتاب بعض الأفكار (٢) .

نظم عمر الدعوة للاسلام وبين سبلها ، وأباح الهجرة لمن يشاء الى حيث يشاء ، ونظم الحمى ، وتحدث عن الفىء والغنيمة والأخماس ، وشرح مضار الخمر والنبيذ ... ونظم عمر الكيل والميزان حتى لا يوجد بخس ولا تطفيف ، والغى عمر المكس والسخرة وقال ان المكس بخس والله نهى عن البخس بقوله « ولا تبخسوا الناس أشيائهم (٣) » .

ومن اصلاحات عمر أنه أصلح كثيرا من الأرض للزراعة ، وحفر الآبار ، وعمر الطرق ، وأعد الخانات لأبناء السبيل ، واهتم اهتماما كبيرا بالمحتاجين والمرضى ، كما أكثر المساجد ولكنه لم يكن يتأنق فى اعدادها ، ولما طلب اليه أن يدفع مبلغا كبيرا لذلك ، أجاب ، لأن أنفقه على أكباد جائعة أحب الى من أن أنفقه على الجدران والأثاث .

وقد انتقلت الحالة الاقتصادية فى عهد عمر بن عبد العزيز الى مستوى

---

(١) اقرأ « الاقتصاد فى الفكر الاسلامى » للمؤلف .
(٢) اقرأ الكتاب كاملا فى ابن عبد الحكم ص ٩٣ — ١٠٠ .
(٣) سورة هود الآية ٧٤ .

يدعو للدهشة ، فكل المراجع التي بين ايدينا تؤكد أن الفقر والعوز والحاجة قد اختفت فى عهده ، ولم يعد لها وجود تقريبا ، حتى كان دافع الزكاة لا يجد من يأخذها منه ، ويروى ابن عبد الحكم عن رجل من ولد زيد ابن الخطاب قوله : انما ولى عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفا ، فما مات حتى جعل الرجل يأتى بزكاة ماله يبحث عن مستحق لها ، فما يبرح حتى يرجع بماله ، قد أغنى عمر الناس (١) .

ومثل ذلك أيضا يرويه يحيى بن سعيد قال : بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات افريقية فاقتضيتها ، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيرا ، ولم نجد من يأخذها منا ، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ، فاشتريت بها رقابا فأعتقتهم (٢) .

ومن اهتمام عمر بالفقراء ما يروى أن مولاة سوداء اسمها فرتونة من مصر أرسلت له خطابا تقول فيه أن عندها حائطا قصيرا وأن دجاجها يضيع بسببه ، فرد عليها عمر يذكر أنه كتب لعامل مصر ليرفع لها الحائط ويؤمن دجاجها ، وكتب فى الحال الى العامل يطلب منه أن يمشى الى فرتونة ويباشر رفع حائطها وتأمينها وتأمين دجاجها (٣) .

ومن اصلاحات عمر فى البريد أنه لم يجعله لحمل الأخبار الرسمية اليه فقط من العمال والموظفين كما كان من قبل ، وانما أصبح لخدمة الناس كذلك ، فقد أمر أن يتسلم عامل البريد كل الرسائل التى تعطى اليه لتوصيلها الى ذويها (٤) ، وكان خطاب فرتونة سالفة الذكر أحد الرسائل غير الرسمية التى حملها البريد الى الخليفة .

وكان من الطبيعى أن يسير عمال عمر سيرته ، فلقد أحسن اختيارهم وأحسن مراقبتهم ، ويروى ابن عبد الحكم أنه خرج يوما مع وزيره مزاحم

---

(١) ابن عبد الحكم ص ١٢٨ .
(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦٩ .
(٣) المرجع السابق ص ٦٥ — ٦٦ .
(٤) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦٥ .

للغسس ، فرأيا راكبا قادما تجاه الشام من المدينة فاستقبلا الركب ، وسألا المسافرين عما خلفهم ، فقال رئيس الركب وهو لا يعرفهما : ان شئتما جمعت لكما الخبر وان شئتما بعضته لكما تبعيضا . فقالا : بل اجمعه فقال : انى تركت المدينة والظالم بها مقهور ، والمظلوم بها منصور ، والغنى موفور ، والعائل مجبور ، فسر بذلك عمر وقال : لأن تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحب الى مما طلعت عليه الشمس (١) .

ومن سياسة عمر فيما يتعلق بالعمال أنه رفع مرتباتهم حتى وصل مرتب العامل أحيانا ثلاثمائة دينار ، ولما سئل عن ذلك أجاب : أردت أن أغنيهم عن الخيانة (٢) .

وقطع عمر بن عبد العزيز سب على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكان بنو أمية يسبونه على المنبر ، كما سبق القول ، وجعل مكانه قوله تعالى « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون »(٣) . وقد رثاه الشريف الرضى لذلك بقوله :

يا ابن عبد العزيز لو بكت العـ
ـين فتى من أمية لبكيتك

أنت أنقذتنا من السب والشـ
ـتم فلو أمكن الجزاء جزيتك (٤)

ولم يمت عمر بن عبد العزيز حتى هزل جسمه من كثرة ما بذل من جهد وما عانى من حرمان . روى أن يونس بن أبى شهيب قال : شهدت عمر بن عبد العزيز وان حجزة ازارة لغائبه فى عكنه (من سمنته وبدانته)

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٥ .
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٤٣ .
(٣) سورة النحل الآية رقم ٩٠ .
(٤) الفخرى ص ١١١ .

ثم رأيته بعدما استخلف ولو شئت أن أعد أضلاعه من غير أن أمسها لفعلت [١] . وقالت فاطمة زوجته : ما أعلم أنه اغتسل لا من جنابة ولا من احتلام منذ استخلفه الله حتى قبضه [٢]

وعلى الرغم من قصر مدة خلافة عمر فقد ثقل على كثير من بنى قومه لكثرة ما استرده منهم مما امتلكوه من قبل ، حتى لقد خيف أن يمسوه بسوء أو يسقوه سما ، ولذلك نصحه أرطأة بن منذر بأن يتخذ حرسا ويحترز فى طعامه وشرابه ، فأجاب عمر : اللهم ان كنت تعلم أنى أخاف شيئا دون يوم القيامة فلا تُؤَمِّنْ خوفى [٣] .

وقبيل وفاة عمر مات أعوانه ، سهل أخوه ، وعبد الملك ابنه ، ومزاحم مولاه ، ودخل المرض على عمر ، فيروى أنه قام وتوضأ ، ثم أتى المسجد فصلى ركعتين ثم قال : اللهم إنك قد قبضت سهلا وعبد الملك ومزاحما وكانوا أعوانى على ما قد علمت ، فلم أزدد لك الا حبا ولا فيما عندك الا رغبة فاقبضنى اليك غير مضيع ولا مفرط ، فما قام من مرضه حتى قبضه الله تعالى [٤] . ولما أحسّ بدنو أجله اشترى موضع قبره بدير سمعان ودفن فيه بعد وفاته عقب ذلك [٥] .

وأعوان عمر هم الذين مر ذكرهم بالاضافة الى رجاء بن حيوة وهم طبعا من خيرة الأعوان ومن صفوة الناصحين ، ولا عجب فمثل عمر لايصاحب الا النخبة الأمجاد .

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٣٥ وابن عبد الحكم ص ٥٠ .
(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٣٤ .
(٤) ابن عبد الحكم ص ١١٤ : ١١٦ — ١٨٧ .
(٥) المرجع السابق ص ١١٤ .

يزيد بن عبد الملك (١٠١ — ١٠٥ هـ)

يمكن القول ان خلافة عمر بن عبد العزيز التى كانت نعمة وخيراً على الاسلام والمسلمين وضعت فى الوقت نفسه نهاية لدولة بنى أمية وذلك يرجع الى سببين :

أولا — عرف المسلمون فى عهد عمر العدالة وذاقوا طعمها وأنسوا اليها، وصعب عليهم بعد عمر أن يعودوا الى احتمال الطغيان والظلم والعسف الذى حاول يزيد أن يعيدهم اليه •

ثانيا — كره عمر لسفك الدماء أعطى فرصة للشيعة أن يدبروا أمرهم ويعدوا عدتهم للقضاء على بنى أمية ولوضع الأساس لدولة هاشمية ، وفى الجزء الثالث من هذه الموسوعة تفاصيل هذا الموضوع •

وقد سبق أن وصفنا الجهد الضخم الذى بذله عمر لرد المظالم وحماية بيت مال المسلمين باسترداد القطائع والهبات ، وسرعان ما هدم يزيد هذا الجهد فأعاد القطائع وأعاد الهبات •

ومن أهم الأحداث التى وقعت فى عهد يزيد ثورة يزيد بن المهلب ، وقد سبق أن قلنا إن يزيد كان فى محبس عمر ، وهرب من محبسه فى مرض عمر الذى مات فيه ، وكتب ابن المهلب الى عمر يعتذر عن هربه ويقول « انى والله لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك ولكنى خفت أن يلى يزيد فيقتلنى شر قتلة » وكان من الواضح أن هناك عداء بين يزيد بن المهلب ويزيد بن عبد الملك ، فان الأول انضم الى سليمان بن عبد الملك فى تنكيله بآل الحجاج ، وكان بين يزيد بن عبد الملك وأسرة الحجاج مصاهرة ، فقد كان يزيد متزوجاً من بنت أخى الحجاج ، وقد مات عمر بن عبد العزيز بعد هرب يزيد بقليل (١) •

---

(١) الطبرى جـ ٥ ص ١٢٧ •

ولما فر ابن المهلب من السجن اتجه الى العــراق ، وكان العراق كمـا كان دائما مستعداً أن يستقبل أعداء بنى أمية ويثور لهـم ويحارب معهـم وكانت البصرة مكانه المختار ، وفيها تجمع حوله الســاخطون فكون منهـم جيشاً كبيراً ، أما يزيد الخليفة فقد كون جيشاً من أهل الشام بقيادة أخيـه مسلمة ، وقد انتصر جيش الشام وقتل ابن المهلب وتضعضع جيشه وانهزم، وكانت الموقعة بمكان يدعى العقــير بالقــرب من كربلاء ، ويقــول الكلبى : نشأت وهم يقولون ضــحى بنو أميــة يوم كــربلاء بالدين ويوم العقــير بالكرم (١) ذلك لأنهم باعوا نساء بنى المهلب وأطفالهم على غير ما جــرت به عــادة العــرب .

وكانت هــذه هى النهاية المشئومة لأسرة المهلب بن أبى صــفرة التى طالما شهرت السيف فى وجه أعداء بنى أمية وطالما كسبت لهم النصر .

بقى أن نذكر عن يزيد شيئا تعــود المؤرخــون أن يذكروه ، ثم لنـا تعليقنا على ذلك بعد ايراد ذلك الخبر الشهير :

روى الطبرى (٢) والأصفهانى (٣) وعنهما روى ابن الأثــير (٤) وابن طباطبا (٥) وغيرهما من المؤرخين القدامى والمحدثين أن يزيد هذا كان خليعـاً شغف بجارتين اســم احداهما سلامة والأخــرى حبــابة ، فقطــع معهما زمانه ، ولما مرضت حبابة اضطرب يزيد وظهر عليه اليأس ، فلما ماتت أفلت منه الزمام وسفه وأخذ يردد قول الشاعر :

كفـــى حزنـــاً بالهـــائم الصب أن يرى
منـــازلَ مَنْ يهـــوى معطـــلة قفـــرا

(١) تاريخ الأمم والملوك جـ ٥ ص ٣٧٤ — ٣٧٥ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) الأغانى جـ ١٣ ص ١٤٧ — ١٥٨ .
(٤) الكامل فى التاريخ جـ ٤ ص ٦٦ .
(٥) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١١٢ .

وأشار عليه مسلمة أخوه ألا يظهر للناس خوف أن يبدو لهم سفهه واضطرابه ، فاعتزل الناس بعد موتها ولم يزل كذلك حتى مات بعد سبعة أيام من موتها ، فكانت سلامة الجارية الثانية تردد قول الشاعر وهى تبكى سيدها ومجدها الزائل .

لا تلمنـــــا أن خشـــعنا
أو هممنـــا بالخشـــوع

قـــد لعمـــرى بت ليـــلى
كأخـــى الـــداء الوجيـــع

للـــذى حـــل بنـــا اليـــو
م من الأمـــر الفظيـــع

هذا بعض ما رواه هؤلاء المؤرخون ، ولست أعفى يزيد من الخلاعة ومجون الشباب ، ولكنى أعتقد أن الخيال لعب دوراً كبيراً فى نسج هذه القصص ، كما لعب العداء لبنى أمية دوره فى عصر التدوين ، فاذا بالهفوة تصبح جريمة ، وبالصغائر تصبح كبائر ، وفى هذه القصة دليل واضح على هذا التصرف ، فان يسفه رجل فضلا عن خليفة من أجل موت جارية ويمتد سفهه واضطرابه حتى يموت ، شىء الى القصص أقرب منه الى الحقائق ، فلم تكن الجوارى قد انتهت من الوجود ، ولا عجز سلطانه أن يهيىء له مائة حبابة بدل التى نفقت ، ويبدو أن أعداء بنى أمية — كما أشرنا من قبل — هالهم أن يوجد فى هذه الأسرة رجل نابه مثل عمر بن عبد العزيز ، ولم يستطيعوا أن يمسوا ذكره بسوء لأن صيته قد طبق الآفاق ، فعمدوا الى خلفه يثأرون منه ليقللوا من قيمة بنى أمية عملا بسنتهم التى دأبوا عليها .

وقد انتبه الى هذا الاختلاق المستشرق كارل بروكلمان وهو فى ذلك يقول : (١) .

---

(١) تاريخ الشعوب جـ ١ ص ١٨٣ — ١٨٤ .

والروايات المعادية للأمويين تصور يزيد الثانى كما صورت سَمِيَّهُ (يزيد الأول) من قبل رجلا مستهتراً انغمس فى مناعم اللهو والموسيقى ، وشغلته القيان والمغنيات ، فترك شئون الأمصار الى أمرائه وعماله يصرفونها كما يشاءون • والواقع أن عهده القصير ظل حافلا بضروب النشاط الجدى حتى بعد القضاء على الفتنة بالعراق ، فلقد وحد الادارة فى مكة والمدينة وأدخل اصلاحات مالية كثيرة •• وانه لمن العسير أن ينسب الى مثل هذا الرجل من العاطفة ما جعله يحزن لوفاة جارية من جواريه المقربات — كما تحاول بعض الروايات أن تثبت — حزنا أدى الى وفاته •

هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ)

كان يزيد بن عبد الملك يريد أن يعين ابنه الوليد ولياً للعهد من بعده ، ولكن أصحابه أرشدوه الى أن الوليد صغير السن ولا يستطيع أن يحمل عبء الخلافة ، ولهذا عين يزيد أخاه هشاماً لولاية العهد على أن يجيء بعد الوليد ، فتولى هشام تبعاً لذلك ، واتخذ هشام الرصافة مقراً له غالباً وهى تقع على نهر الفرات .

وقد طالت مدة هشام فكانت حوالى عشرين عاماً ، وكان هشام من خيرة الخلفاء ، اشتهر بالحلم والعفة . وقد نظم الدواوين وضبط الحسابات بعناية فائقة ، قال عبد الله بن على بن عبد الله بن العباس — والفضل ما شهدت به الأعداء — جمعت دواوين بنى مروان فلم أرى ديواناً أصح ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام (١) ولذلك أصبحت مالية الدولة تسير فى انتظام شامل ، ولم يعد هناك طريق لاختفاء أى مبلغ مستحق لبيت المال ، وفى حين كانت الموارد منتظمة كانت النفقات قليلة لأن هشاماً كان ممسك اليد ان لم نقل انه كان بخيلاً (٢) ، ومما روى من قصص امساكه ما روى الطبرى أن عقال بن شبة دخل على هشام حينما أراد أن يرسله الى خراسان سنة ١٢٥ هـ ، قال عقال : وكان هشام يلبس قباء أخضر ، فجعلت أتأمل هذا القباء ؟ ففطن هشام لذلك فسأل عقالاً : مالك تطيل النظر الى القباء ؟ فأجاب عقال : رأيت عليك قباء مثل هذا قبل أن تلى الخلافة (منذ عشرين عاماً) حتى لحسبت أنه [illegible] القباء مالي سواه ، أما ما ترونه من جمعي هذا المال وصونه [illegible] (٣) وهناك روايات أخرى تذكر أن هشاما كان يجود أحيانا ، وأن الشعر كان يهز نفسه

---

(١) الطبرى جـ ٥ ص ٥١٦ .
(٢) أنظر الفخرى ص ١٢٢ .
(٣) الطبرى جـ ٥ ص ٥١٥ .

فيسخو ، روى ابن عبد ربه أن نصيب بن رباح الشاعر الأسود دخل على هشام فأنشده قصيدة منها :

اذا استبق الناس العلا سبقتهم
يمينك عفواً ثم صلت شمالكا (١)

فقال هشام : بلغت غاية المدح ، فسلنى فقال : يا أمير المؤمنين . يداك بالعطية أطلق من لسانى بالمسألة . قال هشام : لا بد أن تفعل . قال نصيب : لى ابنة نفضت عليها من سوادى فكسدت ، فلو أنفقها أمير المؤمنين بشىء يجعله لها ؟ فأقطعها هشام أرضا وأمر لها بحلى وكسوة فنفقت السوداء (٢) .

ويروى ابن عبد ربه كذلك أنه لم يكن فى ملوك بنى مروان أعطر ولا ألبس من هشام ، وأنه خرج حاجاً فحمل ثيابه معه على ستمائة جمل (٣) .

وهكذا نجد حديث بخل هشام حديثاً منقوضا ، ويبدو لى أنه كان دقيقا غير مفرط ، لا يخدع ، فاعتبرت هذه الصفات بخلا فى وقت كان الخلفاء يتباهون أحيانا بالسرف .

وقد عرف هشام بالحلم والتقوى ، ويروى أن رجلا أغلظ له القول فلم يزد عن أن قال له : ليس لك أن تغلظ لامامك . ومن تقواه ما روى أنه تفقد بعض ولده فلم يجده حضر لصلاة الجمعة ، فسأله فيما بعد : ما منعك من الصلاة ؟ قال : نفقت دابتى . قال هشام : أعجزت عن المشى ؟ ومنعه الدابة عاماً كاملا (٤) .

ومن تقواه وعدله ما روى أنه لم يكن يُدْخِلُ بيت ماله مالا حتى يشهد أربعون قسامة أن هذا المال أُخِذَ من حقه ، وأن كل ذى حق أُعْطِىَ حقه (٥) .

---

(١) صلت اى تبعت وتلت .
(٢) العقد الفريد جـ ١ ص ٣٦٧ .
(٣) المرجع السابق جـ ٤ ص ٤٤٦ .
(٤) و (٥) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٥١٦ .

وينقل ابن عبد ربه عن عبد الله بن عبد الحكم فقيه مصر قوله : سمعت الأشياخ يقولون : سنة خمس وعشرين ومائة أديل من الشرف وذهبت المروءة وذلك عند موت هشام بن عبد الملك (١) .

ومن الرجال البارزين الذين اعتمد عليهم هشام ، خالد بن عبد الله القسرى وأخوه أسد ، ونصر بن سيار ، ومروان بن محمد ، وفى مطلع عهد هشام عزل هذا عمر بن ربيعة عن العراق وما كان اليه من عمل المشرق وولى ذلك كله خالد بن عبد الله القسرى ، فعين أخاه أسداً أميراً على خراسان فى العام التالى (١٠٦ هـ) وبسبب العصبية التى اندمج فيها أو أثارها أسد فى خراسان عزله الخليفة سنة ١٠٩ وأخذ الخليفة يولى بنفسه عاملا على خراسان فولى أشرس بن عبد الله السلمى فالجنيد بن عبدالرحمن وغيرهما ، ولكن حال خراسان لم يصلح واستمرت الاضطرابات فيها فأعادها الخليفة الى سلطان خالد بن عبد الله القسرى سنة ١١٧ فأعاد هذا أخاه أسداً والياً عليها ، واستمرت ولاية خالد على الشرق خمسة عشرة عاماً كانت له فيها اصلاحات ذات بال ، فقد جفف مستنقعات دجلة حول واسط ، وبذلك أعد أرضاً واسعة للزراعة ، وكان خالد يغتر بأعماله وبغناه الواسع الذى جمعه طيلة مدة ولايته حتى وصل به الغرور أن قال لابنه : ما أنت دون مسلمة بن هشام (الخليفة) فانك لتفخر على الناس بثلاث لا يفخر بمثلها أحد سكَّرتُ دجلة ولم يتكلف ذلك أحد ، ولى سقاية مكة ، ولى ولاية العراق (٢) . وقد كان ذلك مع عوامل أخرى سببا فى أن عزله هشام سنة ١٢٠ هـ ، وبعد عزله نزلت به ألوان من المصائب وبخاصة فى عهد الوليد بن يزيد ، وقد مات تحت العذاب سنة ١٢٧ (٣) .

وبعد خالد تولى يوسف بن عمر ولاية الشرق فولى جديع بن على

---

(١) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٥١ .
(٢) الطبرى ج ٥ ص ٢٦٨ .
(٣) الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٢٤ .

الكرمانى خراسان ولكن سرعان ما عين الخليفة نصر بن سيار والياً على خراسان ، وبقى نصر والياً على خراسان حتى سقطت الدولة الأموية كما سترى فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة ، وبهذا عاصر نصر أعقد المشكلات فى تلك البقاع .

وفى عهد هشام خطت الدولة الأموية خطوة نحو الضعف ، وذلك بسبب قيام العصبية بين عرب الشمال وعرب الجنوب وبخاصة فى خراسان، وكان هذا مما ساعد الشيعة على تحقيق انتصارات جديدة فى تلك البقاع (٢)، وفى غير خراسان كانت هناك أيضا ثورات سببها مع العصبية سوء سيرة بعض العمال ، وربما كانت أخلاق هشام من حرص على المال ودقة فى انفاقه ومن لين وحلم ، مما ساعد على استمرار هذه الهزات والثورات .

أما مروان بن محمد فقد ولاه هشام أرمينية وأذربيجان وسيأتى الحديث عن الدور الذى قام به مروان لتثبيت الدولة ، ولكن محاولة مروان جاءت بعد فوات الأوان .

---

(٢) الامامة والسياسة جـ ٢ ص ٢٧٩ .

الوليد بن يزيد (١٢٥ — ١٢٦ هـ)

ولد الوليد سنة ٩٠ من الهجرة وتولى أبوه الخلافة والوليد فى الحادية عشرة ومرض أبوه مرض الوفاة والوليد فى الخامسة عشرة ، وقد حكينا عن يزيد أنه كان فيه خلاعة ومجون ، والولد سر أبيه ، فلا عجب أن يكون فى الوليد خلاعة أبيه ومجونه ، ولكن هناك شيئاً آخر ذا بال يبدو أنه أفسد حياة الوليد بن يزيد ، فيحكى الطبرى [١] أن يزيد بن عبد الملك عقب توليته الخلافة أراد أن يعقد لابنه الوليد ليكون ولياً لعهده ، ولكن الوليد لم يكن قد بلغ سن الرشد فاضطر يزيد أن يجعل هشاما ولياً لعهده وبعد هشام يجىء الوليد بن يزيد ، ولكن يزيد بن عبد الملك ظل حياً حتى بلغ ابنه سن الرشد وجاز له فى رأيه أن يكون خليفة من بعده ، فكان يزيد يأسف لأنه قدم أخاه على ابنه ، وروى عنه أنه كان يقول : الله بينى وبين من جعل هشاما بينى وبينك ٠

وتولى هشام فى مثل هذا الجو ، وأراد هشام بدوره — كعادة أكثر الخلفاء — أن ينحى ابن أخيه ليولى ابنه هو ، فيمكن القول أن الكراهية كانت متبادلة بين الوليد بن يزيد وهشام ، ليس فقط منذ تولى هشام الخلافة بل يرجع تاريخ هذه الكراهية الى ما قبل ذلك ٠

وكان فى الوليد خلاعة ورثها عن أبيه كما أشرنا آنفاً ، وألقى به السخط خارج دمشق ، فعاش فى البرية فى ضيعة بالأردن ، وصادف أن مؤدبه عبد الصمد بن عبد الأعلى كان مطعونا فى خلقه ، وهذه الظروف فيما يبدو دفعت الصبى أن يخفف أساه وبلواه بأن يدفن همومه فى الكأس ، وبين صحبة الجوارى ٠ وفى أحضان الآثام ٠

وانتهز هشام هذه الفرصة فراح يشنع على الوليد ليأخذ من ذلك

---

(١) تاريخ الأمم والملوك جـ ٥ ص ٥٢٠ ٠

وسيلة لعزله وتولية ابنه ، واعتقادى أنه لو صح عن الوليد ما أشيع عنه من انحراف ومعاص لكانت هذه فرصة تحقق لهشام مآربه ، ولذلك أرى أن الوليد لم يكن من الفسق بالدرجة التى تروى عنه ، ولو كان كذلك لما شهدناه خليفة مع أن هشاما كان يتربص به ، وأرى كما ذكرت من قبل أن الروايات المعادية لبنى أمية أطنبت وبالغت وانتهزتها فرصة أن بنى أمية أنفسهم يذيعون عن الوليد هذا الفجور ويطنبون فيه .

ومما يروى عنه مما لا يسهل تصديقه أنه لما تولى الحج سنة ١١٩ حمل معه كلاباً فى صناديق ، وحمل معه الخمور وأراد أن يشرب بجوار الكعبة فى الحرم (١) وإن الانسان ليحس أن هذه قصص موضوعة أريد بها التشويه لذلك الانسان الضال . والا فهل ضاقت به الدنيا حتى يشرب فى المكان المقدس الذى ذهب لتعظيمه وذهب ليقود جماهير الحجاج التى تؤمه من كل صوب ؟ وما كان من الممكن أن يجعله هشام أميراً للحج وفيه هذا الاتجاه للانحراف .

والذى يتأمل الروايات التى يوردها الطبرى يدرك أن مثار سخط هشام كان احساسه بأن الوليد وَلِىُّ عهده دون ولده ، وقد روى الطبرى أن الوليد شرب يوماً هو ومؤدبه ونديمه عبد الصمد ، فلما أخذ منهما الشراب مأخذه قال الوليد لعبد الصمد : قل شعراً . فقال :

لعل الوليد دنا ملكه ... فأمسى إليه قد استجمعا

وكنا نؤمِّل فى ملكه ... كتأميل ذى الجَدْبِ أن يُمْرِعا

عقدنا له محكمات الأمو ... ر طوعاً فكان لها موضعاً

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٥٢٠ — ٥٢١ تاريخ الخلفاء للسيوطى ٢٥٠ .

وبلغ ذلك الشعر هشاماً فقطع عن الوليد ما كان يجرى عليه ، وكتب اليه أن يخرج عبد الصمد من صحبته (١) .

ومات هشام وتولى الوليد بن يزيد ولكن سيرته كانت قد لوّثت بالحق أو بالباطل أو قل بالحق وبالباطل معاً ، وربما يكون قد بالغ فى فسقه حينما خلا له الجو وآل له المال الوفير الذى جمعه هشام باقتصاده ودقته ، فاذا به أغنى الناس . وقد كان على وشك أن يكون مأزوماً حينما قطع عنه هشام ما كان يجرى عليه ، فأفلت زمامه وافتضح أمره ، وبالغ فى طلب اللذة والركوب للصيد وشرب النبيذ ومنادمة الفساق ، كما اتهم باتصاله الجنسى بأمهات أولاد أبيه (٢) .

ومما أخذ على الوليد أنه اتجه الى الانتقام المر من أولاد هشام فأنزل بهم صنوف الأذى ، ضرب بعضهم وحبس آخرين منهم ، وصادر ما استطاع من أموالهم وممتلكاتهم (٣) .

وفى هذا الجو من الفسق والاتهام به ، وفى هذا الجو من الكراهيه والتحدى والانتقام هب الناس يتحدثون ساخطين عليه ، وبايعوا سراً يزيد ابن الوليد بن عبد الملك ، ولما تأكد يزيد من قوته أعلن ما كان سراً ، وزحف الى دمشق ، وخاض معارك ضد الوليد ، وقد صمد الوليد فى بعضها ولكنه هزم فى النهاية ، ودخل قصره ولجأ الى المصحف يقرأ فيه ويهتف : يوماً كيوم عثمان وتسوّر الثائرون بيته ، ودخلوا عليه وقتلوه (٤) .

واعتقادى أن قتل الوليد كان فرصة لواضعى الروايات من أعداء بنى أمية فخلقوا من ذلك الشيء الكثير . وابتدعوا صوراً جديدة تنسب للوليد

---

(١) تاريخ الأمم والملوك جـ ٥ ص ٥٢٢ .
(٢) الطبرى : جـ ٥ ص ٥٣٨ .
(٣) الطبرى : جـ ٥ ص ٥٢٥ — ٦٢٦ والعقد الفريد جـ ٤ ص ٤٢٦ .
(٤) الطبري : جـ ٥ ص ٥٥١ .

ألواناً من الفسق ، كما وضعوا باسمه الأشعار التى تصوره زنديقاً محتقراً للقرآن الكريم مهاجماً تعاليم الاسلام ، والذى يجعلنى أرى فيها بعض المبالغات أن مقاومة الوليد كانت كبيرة وأن أتباعه عند اصطدامه بجيوش يزيد بن الوليد كانوا كثيرين ، وأن مروان بن محمد زحف لمساعدته بجند لو أسرع قليلا لحقق له النصر ، وأن الثورات التى طالبت بالثأر له لم تهدأ حتى انتصر أتباعه بقيادة مروان بن محمد وأخرجت جثة قاتله يزيد بن الوليد وصُلِبَ (١) ورجل فيه ذلك الفسق الذى يصورونه لا يعقل أن ينال كل هذا التأييد .

وكان الوليد شاعراً ممتازاً ولكن أهم موضوعات شعره كانت تافهة ، فلقد استغل مواهبه فى الحديث عن الخمر والنساء ولما تولى الخلافة اتجهت مواهبه الى شعر الشماتة من هشام .

---

(١) الطبرى : ج ٥ ص ٦٠٦ وما بعدها .

يزيد بن الوليد (١٢٦ هـ)

لم يهنأ يزيد بالخلافة التى سعى لها سرا وجهراً ، فكانت مدة خلافته حوالى ستة أشهر ، وكانت هذه المدة القصيرة مملوءة بالمتاعب فقد ثار أهل حمص فى وجهه مطالبين بثأر الوليد ، وثار فى وجهه أيضا مروان بن محمد ، وكانت الحروب على وشك أن تقع بينهما ، ويروى أن يزيد بن الوليد كتب الى مروان : أما بعد فانى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فاذا أتاك كتابى هذا فاعتمد على أيهما شئت والسلام . فأتته بيعته[١] . وهكذا نجد العصبية على أشدها لا فى خراسان وحدها بل فى الشام نفسها ، وكان جند الشام هم عدة بنى أمية ، فاذا انقسم هؤلاء الجند على أنفسهم كان ذلك ايذانا بانقضاء دولتهم[٢] .

وقد مات يزيد بعد هذه الشهور الستة القليلة وأوصى بالخلافة من بعده لأخيه ابراهيم .

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ١ ص ٥٩ .
(٢) أنظر الطبري : جـ ٥ ص ٥٦٤ وما بعدها .

ابراهيم بن الوليد (١٢٦ هـ)

لم يستقر الأمر ليزيد بن الوليد وبالتـالى لم يسـتقر الأمر لأخيـه ابراهيم ، ولم تكن خلافته موضـع اجماع من المسلمين ، ولم تتم له بيعـة اجماعية ، ولذلك كان بعضهم يناديه خليفة وكان آخرون ينادونه أميراً (١) ، ومن أهم الثورات التى قامت فى وجهه ثورة مروان بن محمد والى الجـزيرة وأرمينية ، فانه إذا كان قد تمسك بالصبر فى عهـد يزيد ابن الوليد فانه لم يستطع أن يمضى بيعته لابراهيم ، ولذلك نجده يقود جيشـا كبيراً ويتجـه به للشام مطالباً بثأر الوليد بن يزيد وبحقوق أبنائه ، فأرسل له ابراهيم بن الوليد جيشاً بقيادة سليمان بن هشام فهزمـه مروان ، فعـاد سليمان الى الشام فقتل ابنى الوليد بن يزيد وسار الى تدمر ، وكان مروان قد ادعى فى أول الأمر أنه يقاتل فى سبيل هـذين الولدين وكان القيسية يشـدون أزره لذلك ، فلما قتلا طالب بالأمر لنفسه فبايعه الناس(٢) .

---

(١) الطبرى : جـ ٥ ص ٥٩٦ .
(٢) دوايت دونلدشن : عقيدة الشيعة ص ١٢١ .

مروان بن محمد (١٢٧ — ١٣٢ هـ)

لم يستقر الأمر لمروان الا فى عام (١٢٧ هـ) فقد كانت هناك شهور نضال ، اذ أن مروانا لم يتول ببيعة سابقة وانما تولى بحد السيف فلم فحاربهم ، وهب فى وجهه سليمان بن هشام فحاربه •

على أن الثورات استمرت فى وجه مروان بعد البيعة ، وقد شملت هذه الثورات الشام كله ، فثار عليه أهل حمص فقاتلهم ، وثار عليه أهل الغوطة فحاربهم ، وهب فى وجهه سليمان بن هاشم فحاربه •

وبالاضافة الى ذلك هبت ثورات الخوارج وهبت ثورات بالحجاز ، واشتد الصراع الشيعى فى خراسان ، وكسب الشيعة النصر فى كثير من المعارك •

لقد كان مروان شجاعاً صاحب دهاء ومكر (١) وكانت له خبرة واسعة فى الحروب ، ومن أهم ما يتصل به أنه وضع خطة لاعادة تنظيم جيوش الخلافة • فبدلا من تقسيم الجيش الى فرق تنتسب كل منها الى قبيلة ، رأى تأليف جيش نظامى يخدم أفراده برواتب معينة بإمرة قادة محترفين ويتقسم المجندون للخدمة العسكرية الى فرق قليلة العدد تفوق فى سرعة حركتها وقوتها نظام الخطوط الطويلة عند العرب (٢) • ولكن هذا كله لم يغن شيئاً لأن الظروف كلها كانت ضده وكانت عوامل فشله محكمة ، فقد جاء فى وقت تلهلهل فيه ثوب الخلافة الأموية ، ولم يعد هناك أمل فى اصلاحه ولا مكان لوضع الرقاع فيه ، وقد شغلت أحداث الشام والعراق والحجاز الخليفة فلم يستطع أن يقدم عونا لواليه فى خراسان فانهزم واليه نصر بن سيار أمام أبى مسلم الخراسانى ، واستمر زحف الشيعة من خراسان حتى

---

(١) الفخرى ص ١١٧ •
(٢) الفخرى ص ١١٧ •

شمل العراق فمصر وخر مروان فى مصر قتيلا فى قرية اسمها بوصير من قرى الصعيد سنة ١٣٢ (٢) بعد حياة مملوءة بالكفاح والجــلاد ، وبمــوته انتهت الدولة الأموية .

اما زحف الشيعة فسيجد القارىء تفاصيله الوافية عند الكلام عن قيام الدولة العباسية فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة .

---

(٢) عقيدة الشيعة ص ١٣٠ .

التوسع الإسلامي

في عهد الدولة الأموية

أســباب التوســع وميادينــه :

امتدت الدولة الاسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين امتداداً شرحناه فى الجزء الأول من هذه الموسوعة ، ولكن هذا الامتداد لم يصل بها الى حــدود ثابتة ، فلا تزال هناك منازعات واتصالات حربية عــلى الحــدود فى مختلف الجبهات ، ولا تزال الأرض التى امتد لها الاسلام معرضة لحملات من غير المسلمين وراء الحــدود ، وأكثر من ذلك فقد حصــل انتقــاص فى الدولــة الاسلامية فى أثناء الخلافات والثورات الداخلية ، وفى بعض الأحيان كــان الخليفة المسلم يقف بين ثائر داخلى وتهديد من الخارج ، فكان عليه فى هــذه الحالة أن يشترى بالمال سلامة حدوده قبل لمن يتْقدِم على مواجهــة الفتن الداخلية وقمعها وسنذكر بعض أمثلة لذلك فيما بعد ، وعلى هــذا كان لا بد من معارك أخرى بين بنى أمية وجيرانهم فى أكثر الميادين التى انتهى عندهــا الفتح الاسلامى فى عهد الخلفاء الراشدين ، وقد تسلسلت هذه المعارك على النحو الذى سيرد ذكره ، وسارت خطوة خطوة ، فربما كان هــدف المسلمين الأول أن يفتحوا الشام وفلسطين للأسباب التى أوردناها فى الجــزء الأول من هذه الموسوعة ، فلما تم ذلك وجدوا ألا مناص من دخولهم مصر ليؤمنوا جيوشهم فى فلسطين من زحف يقوم به جند الروم بمصر ، فلما تم لهم فتح مصر خافوا على جيوشهم بها من جند الروم بليبيا أو هوجموا فعلا بجيوش الرومان ، وهكذا دواليك ، فطبيعة الحروب الامتــداد ما دام لم يقف حــد فاصل طبيعى بين الجيشين المتعادين ٠

هذا سبب أول لامتداد الفتح فى عهد بنى أمية ، وهــو سبب كما ترى اسلامى ، وهو فى طبيعته دفاع وليس به صــبغة العــدوان ، وهناك بجانب ذلك سبب آخر لا يمكن أن نغفله ، وذلك هو الجهاد لنشر الاسلام ، وقد اتّجه بعض المسلمين هذا الاتجاه ورأوا أن من واجبهم أن يحاربوا غير المســلمين وبخاصة جنود الشرك التى تحول بين الفكر الاســلامى وبين قلوب النــاس المتطلعين اليه ٠

على أن عصر بني أمية يمتاز بأنه عنى بالدولة ، ومعنى هـذا أن روح الملك والرغبة فى السلطان بدأت تظهر عند الخلفاء ، وأصبح التوسـع يحقق رغبة فى نفس الخليفة ويضمن لدولته الهيبة أمام ملوك عصره •

وننتقل بعد ذلك الى نقطة أخرى هى أن التوسع والفتوحات لا بد لهـا من استقرار فى الداخل ، ولا بد لها كذلك من خليفة قوى طموح ، وفى ضـوء ذلك ، وفى ضوء الدراسات التى سبق أن سقناها عن خلفاء بنى أمية ، يتضح لنا أن الوقت المناسب للفتح والتوسع فى العصر الأموى كان عصر معاوية ، والسنوات الأخيرة من عهد عبد الملك • ثم عصر الوليد ، وعلى هذا فقد تمت فى هذه العهود فتوحات رائعة سنذكرها بشىء من التفصيل فيما بعد ، وفى غـير هذه العهود توقفت الفتوحات أو حققت انتصـارات محـددة ، فقـد كانت الدولة الأموية مثقلة بثورات فى الداخل ، أو كان يحكمها خلفـاء محـدودو المواهب كبعض خلفاء العهد الأخير ، أو خليفة يتجه طموحه لارضـاء اللـه لا لتوسيع سلطانه ورقعة الأرض الخاضعة له كعمر بن عبد العزيز •

وبعد بنى أمية توقف التوسع الاسلامى فلم تستطع الدولة العباسـية أن تخطو عسكريا للأمام خطوة واحدة ، بل لم تستطيع أن تمد سلطانها على كل أملاك الأمويين بعد سقوط دولتهم ، على أن حركة التوسع العربى أن كانت توقفت فى العهد العباسى فان حركة انتصـار الاسـلام لم تتوقف ، بل ان الاسلام واصل سيره بطرق الدعاة والتجار ••• فاقتحم قلب افريقية وعـم ربوعها كما شرحنا ذلك فى الجزء السادس من هذه الموسـوعة ، وانتشر فى الملايو واندونيسيا وقد أثبتنا ذلك فى الجزء الثامن من هذه الموسوعة ، وقد استؤنفت بعد ذلك حـركة التوسع الحربى فى ظـل الغزنويين والعثمانيين ، والمهم الآن أن التوسع فى العهد الأموى شمل الميـادين الثلاثة المهمـة التى انتهى عندها الفتح الاسلامى فى عهد عثمان ، وهذه الميادين هى :

أولا : ميدان الحرب ضد الروم فى آسيا الصغرى وقد امتدت الحرب

فى هذا الميدان فشملت حصار القسطنطينية وغزو بعض جزر البحر الأبيض المتوسط .

ثانيا : ميدان الشمال الافريقى ، وقد امتد هذا الميدان حتى المحيط ، ثم عبر مضيق جبل طارق وامتد الى أسبانيا .

ثالثا : الميدان الشرقى وقد امتد هذا الميدان من العراق تجاه الشرق ، ثم تفرع فرعين سار أحدهما الى الشمال تجاه ما وراء النهر وهبط الآخر الى الجنوب فشمل بلاد السند .

وسنتكلم بالتفصيل عن كل ميدان من هذه الميادين الثلاثة :

الميدان الأول

حروب المسلمين ضد الروم فى آسيا الصغرى وحول القسطنطينية .

لا نزاع أن هذا الميدان كان من أهم الميادين بالنسبة للدولة الأموية ، فالدولة الاموية اتخذت دمشق عاصمة للدولة الاسلامية ، وأصبحت العاصمة بذلك قريبة من الحدود البيزنطية ، وكان معاوية والياً على سوريا منذ عهد عمر بن الخطاب ، ولذلك اعتبر مسئولا عن سوريا منذ ذلك الحين ، فلا عجب اذاً أن يتجه الأمويين لتحصين حدود سوريا وابعاد العدو عنها ، ذلك العدو الذى كان يحلم باستعادة هذه الأرض الغالية التى فقدها الى الأبد .

وفى أثناء الفتنة التى سبقت عهد معاوية ، تلك الفتنة التى شملت السنين الأخيرة من عهد عثمان وشملت كذلك خلافة على بن أبى طالب ، فى أثناء هذه الفتنة استعاد الروم بعض أجزاء من أرمينية التى كان قد تم

فتحها (١) ، كما رأى معاوية تحفز ملوك الروم للزحف على حدوده عندما اشترك فى الفتنة التي تلت قتل عثمان ، ولذلك اضطر معاوية قبل أن يواجه جيوش علىّ أن يعقد هدنة مع الامبراطور قنسطانز وأتباعه من الجراجمة(٢) على أن يدفع لهم اتاوة ليضمن سلامة أراضيه (٣) •

ولما تم الأمر لمعاوية وسكنت الفتنة اتجه معاوية الى مواجهة القوة بالقوة ، وبدأ خطته باستئناف نظام الشواتى والصوائف للدفاع عن الثغور الاسلامية أو لزحزحة العدو الى الوراء والاستيلاء على حصونه التى كانت تواجه حصون المسلمين (٤) على أن معاوية سرعان ما عدل فكرته وأراد أن يضرب ضربة قوية يقصم بها ظهر الامبراطورية البيزنطية ، وذلك بالاستيلاء على عاصمتها « القسطنطينية » وخيل اليه أن سقوط العاصمة سيجعل الامبراطورية كلها تخر له كما خرت من قبل امبراطورية الفرس بعد سقوط عاصمتها « المدائن » •

وقد أعد معاوية لهذا الأمر الجليل عدته فنمّى اسطوله حتى صار ١٧٠٠ سفينة مزودة بالعدة والسلاح ، ثم غزا جزر شرقى البحر الأبيض المتوسط فاحتل منها رودس سنة ٥٣ هـ واقريطش (كريت) سنة ٥٤ كما غزا جزيرة صقلية وجزيرة صغيرة اسمها أرواد بالقرب من القسطنطينية (٥)

---

(١) معجم البلدان ج ١ ص ١٠٢ .

(٢) ينسب الجراجمة الى مدينة اسمها جرجومة بالقرب من انطاكية ، وقد صالحوا المسلمين فى عهد أبى عبيدة ولكنهم لم يدخلوا الاسلام ، وانتقل بعضهم الى جبال لبنان والمتتبع لتاريخهم يجدهم يظاهرون المسلمين أن كانت للمسلمين الغلبة على الروم ، فاذا ظهر ضعف فى الجانب الاسلامى ساعدوا الروم على المسلمين ولذلك كثر انتفاضهم وكثر اخضاعهم . (اقرأ البلاذرى ص ١٦٣ — ١٦٧) .

(٣) فتوح البلدان ص ١٦٤ واليعقوبى ٢ : ١٥٧ .

(٤) فتوح البلدان ص ١٦٦ و ١٨٩ .

(٥) انظر فى البلاذرى « فتح جزائر فى البحر » ص ٢٣٧ وانظر كذلك الطبرى ج ٤ ص ٢٣٨ وتقع جزيرة أرواد بالقرب من الضفة الغربية لبحر ة كما يقول بروكلمان (تاريخ الشعوب الاسلامية ١ : ٥١) .

حروب المسلمين فى الميدان الأول والثانى
آسيا الصغرى والقسطنطينية - شمال أفريقية والأندلس .

المحيط
الأطلسى
لشبونة
طليطلة
قرطبة
طنجة
سبتة
فاس
جبال اطلس
القيروان
بسكرة
تونس
قرطاجنة
كورسكا
سردينيا
صقلية
بالرمو
نابولى
مالطة
البندقية
الألب
فينا
بودابست
طرابلس
برقة
بنغازى
صحراء ليبيا
فزان
مصر
دمياط
غزة
القدس
عكا
صور
قبرص
كريت
أنطاكية
اللاذقية
حمص
حماه
حلب
البحر الأسود
البسفور
القسطنطينية
عمورية
جبال طوروس
الجزيرة
أرمينية
أذربيجان
السودان

بالاضافة الى جزيرة قبرص التى كان معاوية قد فتحها فى عهد عثمان (١) ، وكان جنادة بن أبى أمية قائد الأسطول الاسلامى فى أثناء غــزو أكثر هــذه الجـــزر (٢) .

ولما هدد معاوية البر وسيطر على البحر تقدم لهــدفه العظيم ، فأعــد مئات من المراكب الثقيلة عليها الأسلحة اللازمة لحصار مدينة كالقسطنطينية قوية الأسوار محكمة الحصون ، وقد سارت مراكب المسلمين الى بحر مرمرة وحققت فى طريقها انتصارات باهــرة ، ثم وصلت المدينـــة العظيمة والقت عليها الحصار ، وكان جيش المســـلمين بقيـــادة يزيد بن معاوية (٣) ومعـــه مجموعة من أبطال المسلمين المغاوير ، منهم الصحابى أبو أيوب الأنصـــارى وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمـــر وابن العبـــاس وتبعـــا للرواية التى يوردها ابن الأثير (٤) كانت القيادة لسفيان بن عوف ، وربما كانت القيـــادة الفعلية لسفيان وكان معه يزيد حيث أراد معاوية لابنه أن يشـــتهر بالبـــأس والنضال فى سبيل الله (٥) .

وحول المدينة العتيدة دارت معارك عنيفة بين المهاجمين والمدافعين ولكن بدا واضحاً أن أسوار المدينة وحصونها كانت أقوى من عدة المهاجمين ولذلك قاومت القسطنطينية هذا الحصار الطويل الذى امتد حوالى سبع ســـنوات على أقوى الروايات (من سنة ٥٤ الى سنة ٦١) وقد مات فى هــذه المعارك الصحابى الشهير أبو أيوب الأنصارى ودفن تحت أسوار القســـطنطينية ، وبذلك أصبح قبر أبى أيوب مثار قصص وأشـــعار تدعو المســـلمين لمعاودة

---

(١) انظر الجزء الأول من هــذه الموسوعة ص ٢٢٣ .
(٢) البلاذرى ص ٢٣٧ .
(٣) الطبرى ج ٤ ص ١٧٣ .
(٤) الكامل فى التاريخ ج ٣ ص ٢٢٨ .
(٥) ويروى ابن عبد ربه أن القيادة الفعلية كانت فى يد يزيد (أنظر العقد الفريد ج ٤ ص ٣٦٧) .

الحصار وفتح القسطنطينية ، حتى لا يبقى البطل أبو أيوب وحيداً فى مدفنه بتلك البقاع .

وانسحب الأسطول الاسلامى ولم يعرف بالضبط سبب انسحابه ، وترى الروايات الأجنبية أن ذلك كان بسبب احتراق بعض قطع هذا الأسطول بالقاء النار عليها (١) ، ولكن اذ اتضح لنا أن انسحاب الأسطول كان فى أواخر عهد معاوية أو أوائل عهد يزيد كان من الضرورى أن نربط بين هذا الانسحاب وبين انتقال الخلافة من معاوية الى يزيد ، وما كان يدركه معاوية من أن يزيد سيصادف بعض المتاعب ليستقر له الأمر وتجتمع حوله الكلمة ، ثم ما صادفه فعلا يزيد من ثورات وسخط شغلت عهده كله ، وضرورة وجود يزيد نفسه فى العاصمة الاسلامية فى هذه الفترة وكان قبل ذلك قائداً للجيش المحاصر ، ولا نزاع أنى أميل لهذا الرأى وبخاصة أن المؤرخين العرب لم يذكروا شيئاً عن احتراق بعض قطع الأسطول الاسلامى .

وانتكس هذا الميدان فى أثناء الفتن والحروب الداخلية التى تلت وفاة معاوية واستمرت حتى شملت معظم عهد عبد الملك بن مروان ، فقد انتهز الروم هذه الفرصة وهاجموا ثغور المسلمين واستولوا على بعضها(٢) ، كما تدخلوا فى شئون أرمينية فاستولوا على بعضها أيضاً ، وساعدوا كذلك بعض زعمائها على الاستقلال بمناطقهم (٣) ، وهاجموا ساحل سوريا وهدموا بعض مدنه مثل عسقلان وصور وعكا (٤) ، ومرة أخرى اضطر المسلمون أن يشتروا سلامة حدودهم بالمال ، فقد صالح عبد الملك ملك الروم

---

(١) انظر هذه الروايات فى التاريخ السياسى للدولة العربية للدكتور ماجد ٢ جـ ٢ ص ٤٨ .

(٢) فتوح البلدان ص ١٨٩ .

(٣) فتوح البلدان ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

(٤) الطبرى جـ ٥ ص ٢ والبلاذرى ص ١٦٤ .

على أن يؤدى له فى كل جمعة ألف دينار خوفا على المسلمين (١) . فلما قضى عبد الملك على الفتن الداخلية عاد الى الميدان الخارجى يرد بقوة عبث الروم بمناطق الحدود ، فاسترد عبد الملك ما استولى عليه الروم من ثغور المسلمين، وأعاد اخضاع أرمينية ، ونظم سلسلة الشواتى والصوائف ، كما دعم حصون المسلمين وأكثر من حراسها وزودهم بالعتاد والسلاح ، وفى سنة ٨٤ هـ أرسل جيشاً بقيادة عبد الله بن عبد الملك فغزا الروم وفتح المصيصة (٢) .

وجاء عهد الوليد أو قل جاء عهد الظفر الواسع ، ولكن ميدان الروم على كل حال كان قليل التأثر بحركة التوسع الهائلة التى امتاز بها عهد الوليد ، ولعل الميادين الأخرى شغلت بال الوليد وجنده فاتجه اليها بقوة دون ميدان آسيا الصغرى ، واكتفى فى ميدان الروم ببضع ضربات ان لم تكن حاسمة فقد كانت قوية ، فقد دفع خط الدفاع الاسلامى الى الأمام مسافة طويلة بأن استولى على بعض حصون الروم وأعاد ترميمها واعدادها وأسكنها الجنود الأشداء ، ومن هذه الحصون حصون مرعش وعمورية (٣) التى ستكون عظيمة الشهرة فيما بعد فى عهد المعتصم العباسى ، كما استولى على أنطاكية (٤) .

وتجدد الأمل مرة أخرى فى فتح القسطنطينية ، ويقال إن الوليد لم يرد أن يقدم على هذا التصرف قبل أن يمهد له الطريق بدك حصون الروم وضمان سلامة الطريق ، ولكن الوليد مات عقب ذلك قبل أن يرسل جيشاً لمحاولة جديدة لفتح القسطنطينية لانشغاله فى الميادين الأخرى كما سبق القول ، أو لعدم ضمان سلامة الطريق للعاصمة العتيدة ، وعلى كل حال فقد قام سليمان بن عبد الملك بهذه المحاولة الجريئة ، وأطمعه فى ذلك اضطراب الأحوال فى الدولة البيزنطية والخلاف على العرش ، كما

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ص ١٨٥ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) فتوح البلدان ١٦٧ والكامل لابن الأثير : ١١٠ .
(٤) الطبرى جـ ٥ ص ٢٥٧ .

ألهمه انضمام ليون المشرعى اليه ، ووعده أن يحارب بجوار المسلمين وأن يحكم باسم الخليفة اذا وصل الى العرش .

وتحركت الحملة العظيمة برا وبحرا ، وتحرك معها الخليفة وترك عاصمته وأقام فى دابق بالقرب من حلب ليكون أقرب الى ميدان القتال ، وكان قائد الحملة مسلمة بن عبد الملك وهو رجل شجاع مشهود له بالصرامة ، وحققت الحملة فى طريقها كثيرا من الفوز حتى وصلت القسطنطينية وألقت عليها الحصار (١) ولكن هذه الحملة لم تأت بنتائج تذكر لأن ليون عندما وصل الى العرش بمساعدة المسلمين انقلب يحاربهم ، كما قاسى المسلمون من الشتاء صعوبات كثيرة ، ثم ان الروم استطاعوا أن يعرقلوا الطريق بين البلاد الاسلامية وبين الحملة الموغلة فى بلاد الروم ، فضعف المدد عن هذه الحملة وبدأ موقفها يضعف ، وكان ذلك فى مطلع عهد عمر بن عبد العزيز الذى أصدر أمره بفك الحصار وعودة الجيوش الاسلامية (٢) ، وهكذا نجت القسطنطينية من الحصار الثانى كما نجت من الحصار الأول .

ونجت بذلك القسطنطينية سنة ٧١٧ م من السقوط فى أيدى المسلمين ، ولكن نجاتها كانت مؤقتة فبقيت بعد ذلك عدة قرون أخرى عاصمة بيزنطة حتى سقطت فى أيدى المسلمين سنة ١٥٤٣ م على يد محمد الفاتح (١٤٥١ — ١٤٨١) على ما سنورده فيما بعد فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

---

(١) الطبرى جـ ٥ ص ٢٦١ — ٢٩٢ .
(٢) الطبرى جـ ٥ ص ٣٠٩ .

الميدان الثانى

حروب المسلمين فى شمالى افريقية والأندلس

شمالى افريقية :

كانت منطقة ساحل افريقية الشمالى خاضعة لنفوذ الروم ، وكانت تحكمها حاميات رومانية ، أما ما عدا الساحل من صحارى ومزارع تمتد جنوبا الى بلاد السودان فيقول عنها ابن خلدون [١] ما يلى :

كان للبربر فى الضواحى وراء ملك الأمصار الرومية ما لا يحد من قوة وعدة وعدد وملوك ورؤساء وأقيال ، وأمراؤها لا يرامون بذل ، ولا ينالهم الروم والافرنج فى ضواحيهم تلك بمسخطة الاساءة .

ويصفهم ابن خلدون بأنهم كانوا فى دور البداوة عند الفتح العربى[٢] وكانوا لا تجمعهم أمة بل يعيشون فى حياة قبلية ، وكانت الوثنية ديانتهم كما كانوا يؤمنون بالسحر والكهانة ، وقد دخلت اليهم اليهودية والنصرانية مع الغزاة أو عن طريق مصر ولكن هاتين الديانتين كانتا قليلتى الانتشار [٣] .

وقد امتد الفتح الاسلامى — كما سبق القول — الى برقة وطرابلس فى عهد عثمان ، وكان المسلمون يقصدون بفتح برقة وطرابلس تأمين سلامة مصر ، ولكن البيزنطيين بدءوا يجددون حصونهم فى الساحل وبدءوا يرسلون الجيوش لحصونهم فيها ، وكان الأمر قد آل لمعاوية ، فعزم على القضاء نهائيا على حكم الروم فى شمالى افريقية واعتمد على

---

(١) العبر : ٦ : ١٠٧ .
(٢) المقدمة : ص ٢٩٤ .
(٣) العبر : ٦ : ١٠٦ .

القائد الشهير عقبة بن نافع الفهرى الذى كان مقيما فى برقة بعد فتحها ، وكان يعمل على أن يجذب البربر لدخول الاسلام .

وقد تولى عقبة قيادة جيش المسلمين بمهارة فائقة ، فأنزل بأعدائه خسائر فادحة ، وانتصر على الروم فى الساحل وعلى البربر فى الداخل ، فخضعت لسلطانه طرابلس وفزان وسار جنوبا حتى وصل بلاد السودان، ولم يكن المسلمون فى هذه المرة يريدون تأمين مصر ، ولكنهم كانوا يعتزمون التخلص من جيوش الروم وادخال البلاد نهائيا فى الدولة الاسلامية ، ولذلك أمر معاوية عقبة أن يختار مكانا مناسبا ينشىء به مدينة اسلامية تكون معسكرا للجيش ومقرا للمسلمين ، فاختار عقبة أحد الأودية البعيدة عن الساحل وأنشأ مدينة القيروان ، وكان تخطيطها على نمط تخطيط الأمصار الاسلامية فى البصرة والكوفة والفسطاط ، فشملت المسجد ودار الامارة ودورا للقادة وأسرهم ومعسكرات للجنود ، وكان انشاء قاعدة القيروان سنة ٥٠ هـ (١) .

وقبل أن نسترسل فى وصف حملات المسلمين على شمالى افريقية نقرر أن مقاومة هذه البلاد كانت قوية وقد استمرت حوالى ستين سنة منذ فتحت برقة فى أواخر العقد الثالث ، حتى تم القضاء على الروم ومن ساعدهم من البربر سنة ٨٣ هـ .

ونعود بعد ذلك لقضية النضال فى شمالى افريقية والمغرب فنذكر أن معاوية بن أبى سفيان عزل والى مصر معاوية بن خديج سنة ٥٠ هـ وولى عليها مسلمة بن مخلد الأنصارى ، كما ضم له المغرب أيضا ، فكان أول من جمع له المغرب كله ومصر وبرقة وافريقية وطرابلس كما يقول الطبرى (٢) ، فعزل مسلمة عقبة عن افريقية وولى بدله مولى له يقال له أبو المهاجر (٣) ، وقد نجح أبو المهاجر فى النضال الذى قام به واستطاع

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٧٨ والبلاذرى ص ٢٣٠ .
(٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ١٧٨ .
(٣) المرجع السابق والبلاذرى ص

أن يضم اليه زعيما هاما من زعماء البربر اسمه كسيلة ، فتبعه عدد كبير من قبائل البربر . وقد حاول أبو المهاجر بعد أن أحس بانتصاره على البربر بطريق السياسة والقوة أن ينتصر كذلك على الروم ، فهاجم معقلهم الشهير « قرطاجنة » ، ولكن الروم دافعوا عن هذا المعقل ببسالة ردت عنه المهاجمين .

وفى أوائل عهد يزيد أعيدت القيادة لعقبة بن نافع (١) وظل أبو المهاجر تابعا له ، وقد استطاع القائدان العظيمان أن يسيرا فى فتوحاتهما حتى وصلا الى المحيط الاطلسى ويروى أن عقبة صعد هناك ربوة وهتف : يارب ، لولا هذا البحر لمضيت مجاهدا فى سبيلك ، ولو كنت أعلم بعده أرضا وناسا لخضته اليهم .

على أن هذه الفتوح لم تكن نهاية المطاف ، فقد كره البربر عودة عقبة للقيادة ، وكان كسيلة يضغن على عقبة ، وكان عقبة يستصغر شأن كسيلة بعد ما أحرز من انتصارات ، وحدث أن عقبة كان عائدا من احدى غزواته المظفرة ، فلما وصل الى بلدة « طبنة » صرف جنده من القيروان وسار فى ثلاثمائة من رفاقه يريد بلدة اسمها « تهودة » ، وعرف الفرنجة ذلك فأخبروا كسيلة وأمدوا البربر بالسلاح والأموال ، ففاجأ هؤلاء عقبة وأصحابه ، ودارت معركة غير متكافئة من ناحية العدد والاستعداد ، وقد خر فيها عقبة وأبو المهاجر وأكثر أصحابهما ، وأسر من بقى (٢) ؛ وارتد كسيلة عن الاسلام وتبعه عدد من البربر ، ودفن عقبة فى مكان لا يزال يحمل اسمه (سيدى عقبة) وبنى على ضريحه مسجد هو أقدم أثر لفن العمارة الاسلامية فى افريقية ، وبقتل عقبة وأبى المهاجر وهزيمة جيشهما عاد السلطان مرة أخرى للروم فى الساحل ولكسيلة فى الداخل وانسحبت جيوش المسلمين من القيروان الى برقة ؛ وحاول عبد العزيز ابن مروان والى مصر أن يعيد سلطان المسلمين على هذه البقاع فأرسل

---

(١) فتوح البلدان ص ٢٢٠ .

(٢) [illegible] ج ٦ ص ١٤٦ – ١٤٨ .

جيشا بقيادة زهير بن قيس ، ولكن هذا الجيش هزم وقتل قائده وكثير من أفراده (١) ، وساعد على هزيمة المسلمين وتقهرهم فى ذلك الميدان اضطراب دمشق فى تلك الأيام بسبب الفتن التى تلت وفاة معاوية .

وبدأت يقظة الخلافة الأموية فى عهد عبد الملك فأرسل جيشا عظيما بقيادة حسان بن النعمان الغسانى ، وقد استطاع هذا الجيش أن يقضى على الروم ويطردهم نهائيا من شمالى افريقية ، كما استطاع أن يقضى على مقاومة البربر ، وعادت هذه البلاد حتى المحيط الأطلسى جزءا من العالم الاسلامى كما تولى حسان تنظيم الشئون الادارية وشئون النقد والخراج وغير ذلك من دلائل الاستقرار ، ولم يعد شمالى افريقية تابعا لمصر ، بل أصبح ولاية خاصة يعين عليها وال من قبل الخليفة (٢) .

وعين موسى بن نصير واليا على شمالى افريقية والمغرب بعد حسان ، وقد كان تعيينه فى أواخر عهد عبد الملك أو أوائل عهد الوليد واتخذ له لقب « أمير القيروان » وقد أكمل موسى سلطان المسلمين فى هذه الديار ، فقضى على ما كان باقيا لبعض القبائل الجبلية من سلطان ، وأخذ الرهائن منها حتى لا تشق عصا الطاعة مرة أخرى ، وفتح طنجة ولم تكن قد فتحت من قبل (٣) وخضعت له صلحا مدينة سبتة الواقعة على الساحل الافريقى والممتدة فى البحر تجاه الشمال ، وكانت سبتة تابعة لملوك القوط يسبئون عليها حكامها ، وبذلك استقر المسلمون فى هذه البقاع وبدءوا يتطلعون الى ما وراء المضيق :

انتشار الاسلام بين البربر :

يشمل الجزء الرابع من هذه الموسوعة شيئا من التفصيل عن حركة نشر اللغة العربية والدين الاسلامى بين البربر بالشمال الافريقى ، ولكننا

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٣١ .
(٢) المقرى : نفح الطيب ٢ : ١٣٢ والبلاذرى ص ٢٣٤ .
(٣) فتوح البلدان ص ٢٣٢ .

هنالك نذكر مجملا لذلك فيما يخص العصر الأموى ، فقد ذكر المؤرخـون أن الولاة كانوا ينتهزون الفترات التى ينتشر فيها السلم فيحرصون على نشر الاسلام فى هذه البقاع ، وينسب للخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز انه كان من أكبر المتحمسين لذلك ، وأنه رتب لهذا الغرض عشرة فقهاء من أعيان التابعين لارشاد البربر وتعليمهم اللغة العربية والدين الاسلامى ، وقد قدم هؤلاء الفقهاء افريقية سنة ١٠٠ هـ وانتشروا فى جهات الولاية ، ونتيجة لمساعيهم وجهودهم المشكورة ، أسرع الناس فى قبول الاسلام طواعية ، وتذوقوه حتى أخذ عدد كبير منهم ينبغ فى العلوم الدينية (٢) .

---

(٢) دكتور حسين سليمان : ليبيا بين الماضى والحاضر ص ١١٦ .

الأندلس :

وخلف المضيق كانت تقع شبه جزيرة الأندلس (١) واذا صح أن عقبة بن نافع قد امتطى جواده واتجه صوب الغرب ، الى المحيط الأطلسى، فلم ير الا بحرا هائلا وأمواجا صاخبة وحسب أنه ليس هناك خلف البحر عالم آخر وناس يعيشون ، فان موسى بن نصير اتجه الى الشمال ورأى أوربا وعزم على أن يعبر هذا المضيق ، وينشر الاسلام خلفه وخاصة أن سكان أسبانيا كانوا يحكمون مناطق من افريقية استولى عليها المسلمون ونزلوا لذلك فى صراع مع المسلمين ، وكذلك قدم سكان أسبانيا عونا كبيرا للروم الذين كانوا يحتلون قرطاجنة وسواها من مدن الساحل الافريقى رجاء أن ينتصر الروم فى نضالهم ضد المسلمين واتخذت هذه المعونة صبغة الحروب الدينية فقد كان أفرادها يحملون الصليب ، وقام أهل الأندلس بعدة غارات على سواحل افريقية التى كانت قد استولى عليها المسلمون (٢) ، وكل هذه الأسباب ألزمت المسلمين أن يتخطوا المضيق الى ما وراءه .

وكان الرومانيون قد استولوا على شبه الجزيرة سنة ١٣٣ م وفى عهدهم دخلها عدد كبير من اليهود ، ثم غزاها الوندال فى أوائل القرن الخامس الميلادى ، وبعد ذلك غزاها القوط فى أوائل القرن السادس الميلادى فطردوا الوندال الى الساحل الافريقى ، وبقيت هذه البلاد بها

---

(١) أقدم أسماء الجزيرة هو « ايبريا » نسبة الى الايبريين الذين كانوا من اقدم من سكنها ، ولما استولى عليها الرومان فى القرن الثانى اطلقوا عليها « اسبانيا » اى شاطىء الأرانب ، وربما كان ذلك لأن الفينيقيين عندما نزلوا ببعض جهات من الساحل قبل الرومان صادفوا به اسرابا من الأرانب فاطلقوا على هذا الشاطىء كلمة اسبانيا التى جعلها الرومان بعد ذلك علما على شبه الجزيرة كلها ، وبعد الرومان خضع جنوب شبه الجزيرة لقبائل الوندال فسمى هذا الجزء Vandalisia نسبه الى هذه القبائل ، وهو الاسم الذى اختاره المسلمون عندما نزلوا هذه البلاد فجعلوه بعد نوع من التعريب « الاندلس » كما جعلوه علما على شبه الجزيرة كلها انظر « الأدب الأسبانى » للدكتور احمد هيكل ص ١٤ .

(٢) الامامة والسياسة جـ ٢ ص ٦٨ .

مجموعة غير متجانسة من العناصر كما أنها مختلفة الأديان ، وكان العداء حادا بين المسيحيين واليهود ، وطالما غُلِبَ اليهود على أمرهم ونزلت بهم ألوان من الأضرار ، وكان النزاع على العرش يكاد يكون متصلا بين الأمراء وبخاصة فى الفترة السابقة لغزو المسلمين لها ، وهذه العوامل أيضا مما حمل المسلمين على الاستهانة بحكومة هذه البلاد وقوتها العسكرية ففكروا فى غزوها .

وجاءت الخطوة المباشرة ، فقد آل الملك الى لذريق ، فأسخط ذلك أبناء الملك السابق غيطشة فهجروا أسبانيا الى افريقيا وتحالفوا مع المسلمين ، كما حدث خلاف بين الكونت جوليان حاكم سبتة من قبل القوط وبين لذريق لما يقال من أنه انتهك عفاف ابنة جوليان (١) ، فأراد جوليان أن ينتقم لشرفه فشجع المسلمين على غزو أسبانيا ووصف لهم محاسنها ووعدهم بالتعاون معهم لنجاح هذا الغرض .

واستشار موسى الوليد بن عبد الملك خليفة المسلمين ، ونقل له الأسباب التى تدعو لغزو الأندلس وهون عليه أمرها ، فوافق الخليفة على الغزو .

وهناك أبطال ثلاثة قادوا جيوش المسلمين الزاحفة على أسبانيا هم طريف بن مالك وطارق بن زياد وموسى بن نصير نفسه ، وكان طريف ابن مالك أول هؤلاء الأبطال ، وكان زحفه بمثابة كشف وارتياد واستطلاع ، فقد عبر المضيق على رأس خمسمائة من الخيالة والرجالة ، تحملهم أربع سفن من سفن جوليان وكان ذلك سنة ٩١ هـ ، ولم يجد طريف مقاومة تذكر ، وعاد بغنائم كثيرة يشجع أمير القيروان على التقدم نحو الأرض الخضراء ، ولا تزال الجزيرة التى غزاها طريف فى جنوب أسبانيا تحمل اسمه (٢) .

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٩ وانظر .
(٢) الكامل ٤ : ١٢٢ ومعجم البلدان ٥ : ٦٦ .

ودفع هذا النجاح أمير القيروان الى عمل حاسم يقصد به الاستقرار في الأندلس بعد أن ارتاد طريف له الطريق ، فاختار لهذا العمل العظيم مولاه البطل الكبير طارق بن زياد ، وقد سار طارق على رأس جيش قوامه سبعة آلاف أكثرهم من البربر ، وعبر المضيق على سفن أعدها له جوليان حاكم سبتة كما أعد لطريف من قبل ، وعبر طارق المضيق في رجب أو شعبان سنة ٩٢ هـ ونزل بجيشه على جبل يعرف باسمه حتى الآن هو جبل طارق Giblarter وهناك أعد طارق جيشه للزحف في هذه الجزيرة الشاسعة العامرة ، ويروى أنه أحرق سفنه ليقطع على أصحابه أى أمل في العودة أو الهروب الى الساحل الافريقى ، وألقى خطابه الشهير « أيها الناس أين المفر ، البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله الا الصدق والصبر (١) وأنا أميل الى تصديق الخطاب ، ولكنى لا أميل الى تصديق الرواية القائلة أن طارقا أحرق سفنه ، وأعتقد أن مصدرها هو قوله « البحر من ورائكم » ففهم الرواة أنه أحرق سفنه ولم يبق لأصحابه سبيل الى الهرب ، ولا داعى لأن نستنتج من عدم وجود يملكها وتركت جيش طارق بين البحر والعدو ، أو أن وجود السفن لن تكون وقاية عند التقهقر للخلف تجاه البحر .

وعرف لذريق ملك القوط ويسميه الطبرى الأدرينوق خبر غزو المسلمين لبلاده فأعد جيشا كثيفا قيل أنه بلغ مائة ألف نسمة وقاده بنفسه ، وأرسل طارق الى موسى يطلب مددا فأرسل له خمسة آلاف ، وتقابل الجيشان في وادى بكة أو لكة وكان الفرق في العدد كبيرا وكذلك الفرق في العتاد ولكن جيش القوط كان من العبيد والمستضعفين ، وكان به أعداء كثيرون للذريق ، وكان اليهود يتحالفون سرا مع المسلمين ، ويقدمون لهم العون ، وحمل طارق بجيشه المتحد المؤمن المتعاون على جيش العدو ففرقه ومزقه ، واختفى لذريق فلم يعثر له على أثر وتشتت

---

(١) المقرى : نفح الطيب ١ : ١١٢ .

جيشه (١) • وكان قتل الملك واندحار جيشه فى المعركة الأولى مما ثبط الهمم ويسر فتح الأندلس على المسلمين • ويقول ستانلى لين سول (٢) « ان انتصار المسلمين فى وادى لكة ألقى بأسبانيا كلها فى أيدى المسلمين ، ولم يكن طارق بحاجة الا الى القليل من الجهد ليقضى على المقاومة الضئيلة فى بعض المدن » •

وسار طارق يفتح المدن ويبسط سلطانه عليها فاستولى على قرطبة وغرناطة وطليطلة • وكانت طليطلة عاصمة للبلاد •

وأدرك موسى بن نصير أن الجبهة اتسعت أمام مولاه طارق ، وأراد كذلك أن يكون له شرف الاشتراك الفعلى فى فتح هذه البلاد الخصبة ، فقاد جيشا كبيرا عبر به المضيق واتجه الى مدينة حصينة اسمها قرمونة ففتحها ثم فتح اشبيلية عاصمة أسبانيا قبل غزو القوط لها ، وسار حيث التقى بطارق فى طليطلة ، وقد كان اليهود أكبر عون للمسلمين فى جميع هذه الفتوحات •

ولا يكاد الانسان يصدق الرواية التى تصور عداء وسخطا بين موسى وطارق وتصور موسى معتديا على طارق ومؤنبا له (٣) ، فكل الحقائق التى بين أيدينا تدل على تعاون الاثنين ، فقد أمد موسى طارقا بالمدد ، ثم جاء بنفسه وفتح بعض البلاد التى كانت خلف جيوش طارق فأمّن الجيوش من أن تُضْرَب من الخلف ، وسار البطلان بعد ذلك متعاونين يفتحان باقى البلاد حتى تم لهما النصر ، فكيف يكون ذلك مع عداء واعتداء ؟ (٤) •

واتجه البطلان بعد ذلك الى الشمال ففتحا سرقسطة وبرشلونة ودانت لهما أقاليم أرغونة وقشتالة ، ثم اتجها الى الشمال الشرقى حتى

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٢٤٥ .

(٢) The Arabs in Spain (من الترجمة العربية لعلى الجارم) .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٣٢ .

(٤) انظر الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ٧١ وانظر المجمل فى تاريخ الاندلس للاستاذ عبد الحميد العبادى ص ٥٠ — ٥١ .

وصلا الى جبال البرانس ولكنهما تركا المنطقة الجبلية الواقعة فى الشمال الغربى منطقة (جليقية) تلك المنطقة التى أوى اليها القوط الفارون من الزحف الجارف ، وهذا الاتجاه كان ذا أثر كبير فى التاريخ فيما بعد .

ما سببه وما نتائجه ؟ .

ربما كان السبب هو استصغار شأن القوط والاتجاه الى ناحية الشرق حيث كان موسى يأمل أن يدين له جنوب أوربا ، وأن يستمر فى زحفه حتى يفتح القسطنطينية من الغرب بعد أن عجز حصار المسلمين عن فتحها من الشرق (١) ، ولكن يؤخذ عليه أنه ترك ظهره مهددا فما دام هناك عدو خلفه فكيف يتقدم الى الامام فى اطمئنان ؟ أما استصغار شأن القوط فلم يكن عملا حازما ، فهم فى الحقيقة كانوا صغارا عندما كانت الوحدة شعار المسلمين ، فلما اختلف أمر المسلمين وتفرقوا وتحاربوا عظم شأن القوط ، قد يقال أن المنطقة الجبلية كان يمكن أن تستعصى على المسلمين ، ولكن ذلك القول لا يثبت أمام الحقيقة الواضحة وهى أن البربر لهم خبرة تامة بالجبال والحروب فيها .

أما نتائج اهمال منطقة جليقية ، فكانت سقوط الأندلس فيما بعد فى يد المسيحيين . فقد كانت هذه المنطقة بمثابة حصن تربى فيه الأبطال ، أو مدرسة تربى فيها الدهاة ، ثم خرجوا فيما بعد بقوتهم ودهائهم ، ووسعوا الهوة بين فرق المسلمين ، وانتهزوا الفرص وظلوا يزحفون حتى استولوا على الأندلس بعد صراع طويل امتد حوالى ثمانية قرون . وسيأتى تفصيل ذلك عند الكلام على تاريخ الأندلس فى الجزء الرابع من هذه الموسوعة .

المسلمون فى فرنسا :

بعد أن تم فتح أسبانيا استدعى الوليد بن عبد الملك القائدين العظيمين موسى وطارقا الى دمشق ، وقد رأينا فيما سبق ما أصاب موسى من

---

(١) الامامة والسياسة ج ١ ص ٧٢ .

سليمان بن عبد الملك ، أما طارق فقد انتهت حياته فى غموض كما بدأت فى غموض ، وكل ما ذكره المؤرخون أنه عاد الى الشام مع مولاه موسى ابن نصير بعد فتح الأندلس وانقطع خبره (١) ، وعلى هـذا لم يحقق موسى أمله فى اختراق جبال البرانس والزحف جنوبى فرنسا الحالية ، ثم جاء بعده السمح بن مالك فى عهد عمر بن عبد العزيز فاخترق جبال البرانس وزحف الى الشرق ولكن محاولته لم تنجح فقتل سنة ١٠٢ هـ ، وتمت بعد ذلك غارات تكاد تكون متصلة فى عهد عنبسة بن سحيم الذى كانت له الولاية بعد السمح ، على أن أعظم المواقع خطرا حدثت عندما تولى عبد الرحمن الغافقى قيادة المسلمين سنة ١١٢ هـ ، فقد تقدم عبد الرحمن فى فرنسا تقدما محسوسا وكسب النصر فى كثير من المعارك وظل يتقدم حتى وصل الى بلدة تور الشهيرة (Tours) على مسيرة حوالى سبعين كيلو مترا من باريس جنوب نهر السين .

على أن تقدم عبد الرحمن وانتصاراته أزعجت الفرنجة واللاتين وغيرهم من سكان البلاد المحيطة كما أثارت خوف المسيحيين فى جميع أنحاء أوربا ، ولذلك نجد هؤلاء جميعا يتجمعون بقيادة شارل مارتل ليقابلوا عبد الرحمن وجيشه فى معركة سماها المسلمون « بلاط الشهداء » سنة ١١٤ هـ ، وقد خر عبد الرحمن فى هذه المعركة وتقهقر جيشه بعد صراع طويل (٢) .

ويجدر بنا أن نلجأ الى غوستاف لوبون ليقرر لنا حقيقة هذه المعارك الفاصلة التى وقعت جنوبى فرنسا ومدى أهميتها .

يقرر غوستاف لوبون (٣) أن العرب استولوا على نصف فرنسا الحالية ، ولم يكن قصدهم الاستقرار بتلك البلاد ، وانما كانت غاراتهم

---

(١) دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ١ : ٣٤٣ .
(٢) الأستاذ العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس ص ٥٨ — ٦٠ .
وا Stanley Lane — Poole : The Arabs in Spain p. 27.
(٣) حضارة العرب ص ٣١٣ — ٣١٨ باختصار .

ترمي الى التخويف وجمع الغنـــائم ، وكان زحف العـــرب جارفا أرعب أصحاب الاقطاع بفرنسا ، وأرعب شارل مارتن نفسه ، ويقتبس غوستاف لوبون من المؤرخين العرب عبارة تدل على صخب الزحف العربى ، وهذه العبارة هى «أن كثيرا من سنيورات الافرنج اشتكوا الى شارل مارتن من الأضرار التى أحدثها المسلمون بهم ، ومن الخزى الذى أصاب أوربا من جراء اندحار جيوشها أمام العرب ، فأجاب شارل مارتن قائلا : دعوهم يصنعوا ما يشاءون فهم الآن كالسيل الذى يأتى على كل ما يعترضـــه ، ولكنهم اذا ما أثقلتهم الغنائم ، وطاب لهم المقام بالبيوت الجميلة ، وألفوا رفاهية العيش ، واستحوذ الطمع على قادتهم ، ودب الشقاق فى صفوفهم ، زحفنا عليهم واثقين من النصر» .

وصحت نبوءة شارل مارتن ، واتبع هو هذه الخطة التى رسمها ، فقد انتظر على العرب حتى هدأت ثورتهم ، وثقلت غنـــائمهم ، ودبت المنافســة بينهم ، ثم قابلهم بجيش كبير ، ودارت المعركة يوما كاملا ولم تسفر عن نتيجة حاسمة ، وحل الليل وبدأت المعارك تهدأ ، وحينـــذاك اقتحمت فرقة من جيش الفرنج معسكر المســـلمين ، وخاف هؤلاء على غنائمهم ، فارتدوا للدفاع عنها تاركين الميـــدان ، وتقهقر بذلك الجيش العربى وتتبعهم شارل مارتن ، وأخذ ينهب البلاد التى يمر بها حتى أن أمراء النصارى خافوا زحفه فحالفوا العرب ليتخلصوا منه .

ويؤكد غوستاف لوبون أن معركة بلاط الشهداء « بواتيه » لم تضع حدا لتقدم العرب كما يزعم كثير من المؤرخين ، بل ان المسلمين سرعان ما أفاقوا من هول الهزيمة ، وأخذوا يستردون مراكزهم السابقة ، وقـــد سلم حاكم مرسيليا مقاطعة البروفنس اليهم سنة ٧٣٧ م ، واستولوا على الآرال ، ودخلوا مقاطعة سان ترويز ســـنة ٨٨٩م ، ودامت اقامتهم فى البروفنس الى نهاية القرن العاشر الميلادى ، وأوغلوا فى مقاطعة الغـــالة وسويسرا سنة ٩٣٩ م .

وقد ترك العـــرب أثرا عميقا فى الحضـــارة والدم فى الأمـــاكن التى احتلوها فى جنوب فرنسا • فقد أدخلوا لها صـــناعة البسط ، كمـــا أدخلوا كثيرا من أســـاليب الفلاحـــة ، ومن ناحيـــة الدم فان هذه الأمكنة لا تزال عامرة بأحفاد العـــرب ، ويمكن أن يعرفهم الانســـان ببشرتهم الســـمراء وشعورهم السوداء وأنوفهم التى يبرز فيهـــا القنـــا ، وعيونهم الثاقبـــة اللامعة ، ويمكن للمرء أن يعرف نساءهم بألوانهن الزيتيـــة ووجوههن الأسيلة • وأعينهن الدعج النجل ، وحـــواجبهن الزج ، ويقرر غوســـتاف لوبون أن السبب فى بقاء هذه الصفات حتى الآن أن هؤلاء السكان ألّفـــوا جماعات صغيرة منفصـــلة عن بقية الأهلين الفرنســـيين غـــير متصلة بهـــم بصلات التوالد •

ويصف لين بول الأندلس تحت سلطان المسلمين بقوله : « ويجب ألا يجول ببال أحد أن العرب عاثوا فى البـــلاد أو خربوها بصـــنوف الارهاب والظلم ، كما فعل قطعان المتوحشـــين قبلهم ، فان الأندلس لم تحكم فى عهد من عهودها بسماحة وعدل وحكمة كما حكمت فى عهد العرب الفاتحين (١) » وسنرى ذلك مفصلا عند الحديث عن الأندلس فى الجـــزء الرابع من هذه الموسوعة •

---

(١) العرب فى اســـبانيا ص ٣٧ .

الميدان الثالث

حروب المسلمين فيما وراء النهر وفى السند

ذكرنا فى الجزء الأول من هذه الموسوعة (١) أن التوسع الاسلامى فى عهد عثمان امتد حتى شمل المنطقة الجبلية جنوبى بحر قزوين ، ثم تخطت الجيوش الاسلامية نهر جيحون ودخلت بلاد ما وراء النهر فى الدولة الاسلامية واستولى المسلمون على بلخ وهراة وكابول وغزنة من بلاد الأتراك .

وقبل أن نذكر الفتوحات الأموية فى هذه الجبهة نحب أن نوضح حقيقتين هامتين :

أولاهما : يبدو من تتبع حركات الفتح الاسلامى فى عهد الخلفاء الراشدين أن المسلمين لم يتثبتوا فى البلاد المجاورة لبحر قزوين جنوبه وجنوبه الشرقى ، ويبدو أن سبب ذلك أنهم كانوا يسرعون بالاتجاه نحو الشرق والشمال الشرقى متجهين الى بلاد ما وراء النهر ، ولذلك بقيت خلفهم بعض الأماكن التى كان يحكمها حكام من الترك . وهى بلاد قوهستان وجرجان وكرمان وجيلان وطبرستان ، وكانت تخضع لهم حينا وتتمرد حينا . وقد تقدم المسلمون فى عهد الوليد — كما سيأتى — فى جبهة ما وراء النهر وتركوا هذه البقاع أيضا فلم يتم اخضاعها الا فى عهد سليمان بن عبد الملك على يد قائده يزيد بن المهلب .

ثانيهما : فى خلال الفتنة التى أدت الى قتل عثمان واستمرت طيلة خلافة علىّ تمردت بلاد كانت قد ارتبطت بصلح مع الدولة الاسلامية فى هذه المنطقة ومنها هراة وبلخ وغيرهما .

وجاءت الدولة الأموية وبدأت تحركاتها الكبيرة فى هذا الميدان ، وهو

---

(١) انظر التوسع الاسلامى فى عهد عثمان .

الميدان الشرقى ، وهو وثيق الاتصال ببلاد فارس التى فتحت فى عهد عمر ، وببلاد خراسان التى امتد لها الفتح الاسلامى فى عهد عمر وعهد عثمان ، ولكنها لم تكن قد استقرت نهائيا فى أيدى المسلمين • ولما كان هذا الميدان الشرقى قد اتخذ قاعدته بلاد العراق ، وكان يديره والى العراق ، فقد عددناه ميدانا واحدا ، ولكنه تفرع الى جبهتين فى عهد الوليد على يد قائده الحجاج بن يوسف الذى عين قائدين أرسل أحدهما الى الشمال الشرقى فأوغل فى بلاد ما وراء النهر ، وأرسل الآخر الى الجنوب الشرقى ففتح بلاد السند ، ولهذا سنتكلم فيما يلى عن كل من هاتين الجبهتين اللتين تفرعتا عن الميدان الشرقى •

جبهة ما وراء النهر :

بلاد ما وراء النهر أو ما بين النهرين هى البلاد التى تقع بين نهر جيحون Amu - Darya ونهر Syr - Darya وأهم الممالك التى تقع فى هذه البقاع هى :

مملكة طخارستان على جانبى نهر جيحون وعاصمتها بلخ •

مملكة صغانيان شمال نهر جيحون وعاصمتها شومان •

مملكة الصغد وهى تمتد من جيحون الى سيحون وعاصمتها سمرقند وأهم مدنها بخارى •

مملكة فرغانة على جانبى نهر سيحون وعاصمتها جخندة أو كاشان أو اخسيكت ، وكان ملكها يلقب بالاخشيد وهو اللقب الذى أطلق على الاخشيد مؤسس الدولة الاخشيدية بمصر لصلة نسبه بهذه البلاد •

مملكة خوارزم فى أعلى نهر سيحون وعاصمتها الجرجانية •

مملكة أشروسنة فى الشرق من فرغانة ، ولقب ملكها الأفشين ومنها

انحدر بعض المماليك الذين آل لهم السلطان فى عصر ضعف الخلافة العباسية بعد الواثق ، وقصبتها بنجكث .

مملكة الشاش فى شمال نهر سيحون وعاصمتها الطارنبند أو بنكث (١)

ولم تكن هناك حدود ثابتة لهذه الممالك ، بل كان العدوان بينها يكاد يكون مستمرا ، وكذلك كانت هذه البلاد عرضة لعدوان من الترك والصينيين المجاورين لها .

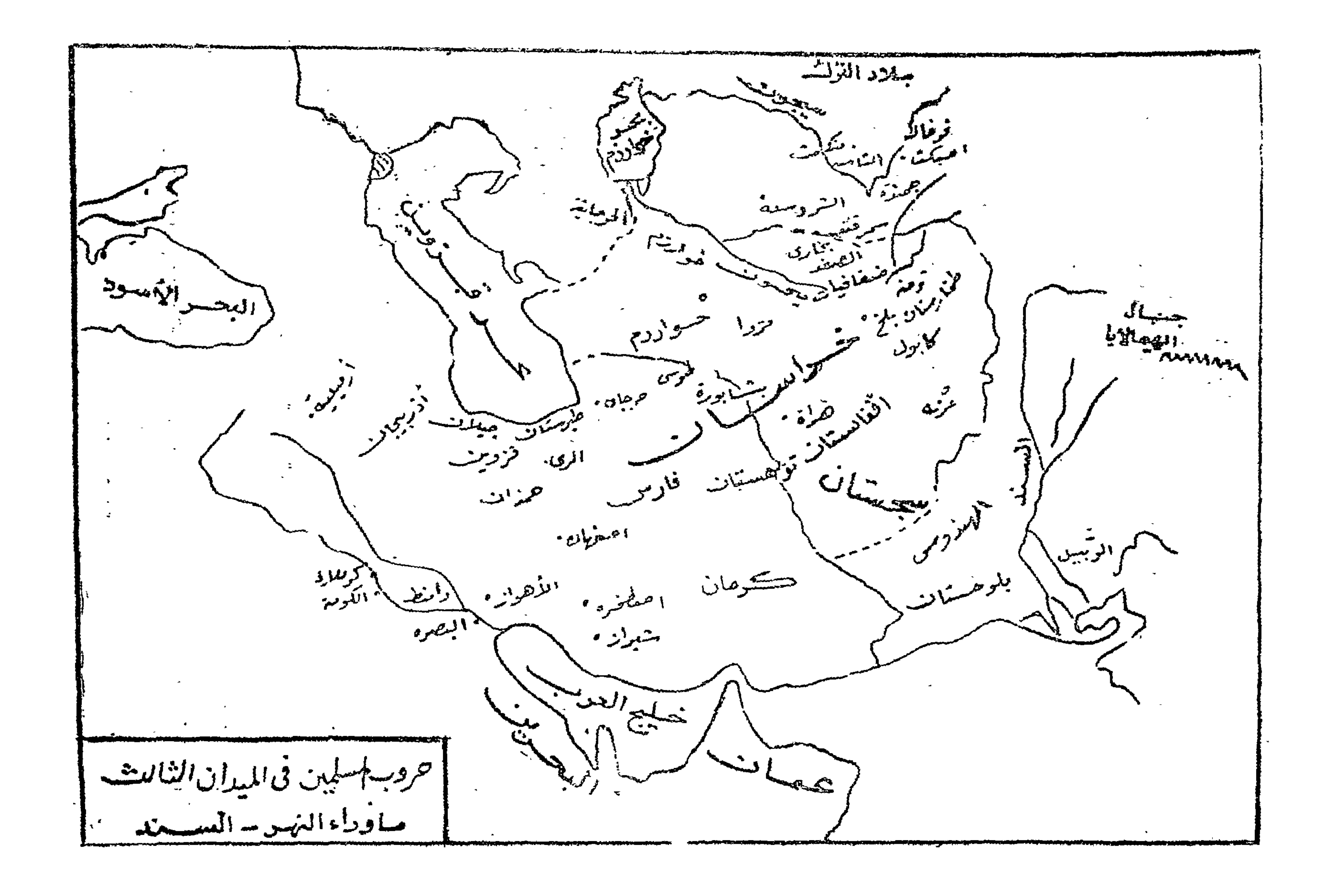
وقد بدأ غزو هذه البلاد منذ عهد معاوية على يد قائده قيس ابن الهيثم الذى كانت له ولاية خراسان ، فقد روى أن أهل بادغيس وهراة وبلخ قد نقضوا الصلح ، فسار قيس الى بلخ فخرب معبدها ، وعاد أهلها يطلبون الصلح فوافق عليه قيس ، ولما علم أهل بادغيس وهراة بما نزل بأهل بلخ طلبوا الصلح على الشروط التى نزل عليها أهل بلخ فأجيبوا الى طلبهم (٢) .

وولى معاوية أيضا زياد بن أبيه بلاد العراق ، ومن بعد زياد تولى ابنه عبيد الله فكان لهما قيادة هذه الجبهة ، وفى عهد عبيد الله وصل المسلمون فى غاراتهم الى بخارى وسمرقند (٣) .

وتوقفت الغارات على هذه البلاد بعد معاوية بسبب كثرة الثورات فى العالم الاسلامى ، ولما أخمدت هذه الثورات ودب النشاط فى الجبهات الحربية كلها دب النشاط فى هذه الجبهة أيضا ، وكانت ولاية العراق وخراسان قد أسندت للحجاج بن يوسف فأعد القادة للهجوم على هذه

---

(١) انظر الدكتور عبد الهادى شعيرة : ممالك ما وراء النهر ص ٦ وما بعدها وانظرها كذلك فى البلاذرى ص ٤٠٩ — ٤١٠ .
(٢) البلاذرى ص ٣٩٩ — ٤٠٠ .
(٣) الطبرى جـ ٤ ص ٢٢١ والبلاذرى ص ٤٠١ .



حروب المسلمين في الميدان الثالث
ما وراء النهر – السند
بلاد الترك
سيحون
فرغانة
بحر خوارزم
خوارزم
بخارى
الصغد
جيحون
البحر الأسود
أرمينية
أذربيجان
جيلان
طبرستان
جرجان
قزوين
الري
همذان
أصفهان
طوس
نيسابورة
خراسان
مرو
بلخ
كابول
غزنة
هراة
أفغانستان
قوهستان
فارس
سجستان
السند
الديبل
بلوجستان
كرمان
الأهواز
اصطخر
شيراز
واسط
الكوفة
كربلاء
البصرة
خليج العرب
البحرين
عمان
جبال الهيمالايا

المنطقـــة ، ومن قادته فيها المهلب بن أبى صـــفرة الذى كانت له غارات ناجحة على هذه البلاد حتى فقئت عينه (١) . وتولى بعده ابنـــه يزيد ابن المهلب الذى فتح قلعة نيزك ببادغيس سنة ٨٤ هـ (٢) ، وفى العام التـــالى عزل الحجاج يزيد وولى أخاه المفضل ففتح بادغيس وشومان (٣) .

وهبت ثورة ابن الأشعث فشغلت الحجاج حينا ، فلما انتهى منها عاد لهذه المنطقة بزحف أكثر نظاما ونجاحا وكان الزحف هذه المرة على يد القائد الشهير قتيبة بن مسلم .

ولم تكن حروب قتيبة بن مسلم غارات كتلك الغـــارات التى كانت طابع الحملات التى سبقت قتيبة فى هذه الجبهة ، بل كانت فتحا منظمـــا ثابتا ، وقد بدأت حملات قتيبة فى أوائل عهد الوليد بن عبد الملك واستمرت حتى بدء عهد سليمان كما سبق القول ، وقد استطاع قتيبة فى هذه الفترة أن يمد فتوحاته الى كل البلاد التى تقع على النهرين أو بينهما تلك التى أوجزنا ذكرها آنفا (٤) ، ولم يكتف قتيبة بالفتـــح ، بـــل دعا الســـكان الى دخول الاسلام وترك عبادة الأصنام ، فأجابوه بأن لهم أصناما من اعتدى عليها أو استخف بها هلك ، وهم لا يستطيعون الاســـتخفاف بها لذلك ، فدخل قتيبة على الأصنام فأباح حليها لجنده ، وكبها على وجوهها بيده ، وحرقها ، ولم يصبه سوء بطبيعة الحال ، وكان ذلك مما سبب دخول كثير من سكان هذه البلاد فى الاسلام (٥) .

ولما انتهى قتيبة من بلاد ما وراء النهـــر قَرُبَ من أرض الصـــين ، فاتجه اليها فاتحا غازيا ، ولولا وفاة الوليد وقيام الخلاف بين ســـليمان

---

(١) انظر ترجمة المهلب فى وفيات الأعيان .
(٢) الطبرى جـ ٥ ص ١٨٦ .
(٣) المرجع السابق ص ١٩٤ .
(٤) انظر بعض تفاصيل هـــذه الفتوح فى الطبرى جـ ٥ ص ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٧ ، ٣٦٢ ، ٣٦٦ واقرا كذلك البلاذرى ص ٣٩١ ، ٤٠٩ — ٤١١
(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤١١ .

وقتيبة لكان من الممكن أن يتغير تاريخ الاسلام فى الصين ، فقد روى الطبرى (١) أن قتيبة أرسل الى ملك الصين وفدا برياسة هبيرة ابن المشمرج الكلابى يدعوه الى الاسلام أو الجزية أو السيف ، فثار ملك الصين وقال لهبيرة : اذهب الى صاحبك فقل له ينصرف فانى قد عرفت حرصه وقلة أصحابه ، والا بعثت عليكم من يهلكم ويهلكه . فأجابه هبيرة بثقة وقوة : كيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادرا عليها وغزاك ؟ وكيف يكون قليل الأصحاب من أول خَيْلِه فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون ؟ وأما تخويفك ايانا بالقتل فان لنا آجالا اذا حضرت فأكرمها القتل فى سبيل الله ولسنا نكرهه ولا نخافه .

وأدرك ملك الصين القوة العظيمة التى تكمن خلف هؤلاء ، وعرف أن التهديد والثورة لا طائل تحتهما ، فعاد يسأل فى هدوء : وما الذى يرضى صاحبكم ؟ فأجاب هبيرة : أنه حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم (علامة السيطرة عليهم) ويأخذ الجزية . فقال الملك : انا نخرجه من يمينه فلا يحنث ، نبعث اليه بتراب من أرضنا فيطؤه ، وبعض أبنائنا فيختمهم ، ونبعث له بجزية يرضاها . وهكذا افتدى ملك الصين نفسه وبلاده بالجزية ، وأغلب الظن أن قتيبة ما كان ليقنع بذلك لو لم يتول سليمان بن عبد الملك الخلافة ، وكان بين سليمان وقتيبة ما شغل الأخير عن مواصلة جهده فى بلاد الصين الواسعة .

وهناك شخصان آخران بذلا جهدا ضخما فى ميدان ما وراء النهر وثبتا أقدام المسلمين فى تلك البقاع ، وهذان الشخصان هما أسد بن عبد الله القسرى ونصر بن سيار اللذان وليا خراسان فى عهد هشام بن عبد الملك فقادا حملات ناجحة موفقة فى هذه البلاد .

---

(١) تاريخ الأمم والملوك جـ ٥ ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .

جبهة السند (*) :

بلاد السند هى البلاد المحيطة بنهر السـند (Indus) ، وهى ممتدة غربا من ايران الى جبال الهيمالايا فى الشمال الشرقى تاركة شبه القارة الهندية فى جنوبها • وبـلاد السـند تكون جـزءا كبـيرا من دولة الباكستان الحالية •

وكانت بلاد السند جزءا من بلاد الهند قبل الفتح الاسلامى ، وان كانت الهند فى الحقيقة تتكون من عدة ممالك بينها القـوى والضعيف ، وكانت غرضة لاعتداءات من الخارج وبخاصة من ايران وبلاد الترك وبلاد الصين القريبة من شبه القارة الهندية •

وبلاد الهند كانت معروفة للعرب قبل الاسلام ، وكان العرب وحدهم هم واسطة المقايضات التجارية بين الهند والعالم الخارجى (١) •

ومنذ فتح المسلمون بلاد فارس تطلعـوا الى ما وراءها فامتـدت فتوحاتهم الى خراسان ثم أسلمتهم خراسان الى بلاد السند ، وعلى هذا بدأت حملات المسلمين على بلاد السند مبكرة منذ عهد عمر بن الخطاب ، وكان الذى قام بذلك فى عهد عمر عامله عثمـان بن أبى العـاصى عامل البحرين وعمان • وكان قد أرسل لها جيشا بحريا ولذلك تعرض للوم عمر الذى كان يكره أن يركب المسلمون البحر ، اذ كتب اليه عمر يقول : يا أخا ثقيف ، حملت دودا على عود ، وانى أحلف بالله لئن أصـيبوا لآخذن من قومك مثلهم (٢) •

وفى عهد على توجه الحارث بن مرة العبدى متطـوعا الى بـلاد السند ومعه جيش من المتطوعين وأذن لهم على بذلك ، وقد انتصرت الحملة

(*) هنالك دراسة مفصـلة عن الاسلام فى الهند .. فى الجزء الثامن من هـذه الموسوعة .

(١) دكتور احمـد الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية ١ : ٥٤ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٢٠ .

وغنمت كثيرا من الغنائم . وغزا معاوية كذلك هذه البلاد بواسطة قائده الشهير المهلب بن أبي صفرة (١) .

وجاء عهد الوليد فجاء عهد الفتح المنظم لهذه البـلاد الواسعة وكانت العراق وفارس وخراسان تحت سلطان الحجاج بن يوسف الثقفي كما قلنا من قبل .

وحدث أن ساءت العلاقات بين المسلمين وبين داهر ملك السند مما استدعى صداما مسلحا ، أما سبب سوء العلاقات فهو أن الحجاج أرسل سعيد بن أسلم الى مكران ، فخرج اليه معاوية ومحمد ابنا الحارث العلافي فقتلاه ، اذ كانا من الخارجين على سلطان الأمويين في هــذه الجهات ، وكانا قد لقيا عند داهر ملك السند البرهمي كل ترحيب حين لجأ اليـــه برجالهما الخمسمائة ، وما لبثا ـــ وقد نصراه في بعض حروبه ـــ أن صارا من أصحاب الحظوة عنده .

وبلغ الحجاج الخبر فسأل الخليفة أن يأذن له بمهاجمة السند ملجأ الخارجين على الدولة ، ولكن الخليفة لم يأذن له ، ثم بعد ذلك تعــرض قراصنة من ديبل لسفن كانت قادمة من جزيرة الياقوت (سيلان) وفيها بنات وأرامل لتجار من المسلمين وافاهم الأجل هناك ، فأسر القراصـــنة هؤلاء النساء ، ولما طلب الحجاج من داهر تخليص نســاء المسلمين من الأسر لم يســتجب له ، وادعى أنه لا يســيطر عــلى لصــوص البحــر هؤلاء .. (٢) فكان هذا وسواه باعثا للحجاج أن يلح عــلى الخليفة ليثــأر لهذا العدوان وليؤمن طريق التجارة وحدود البلاد الاسلامية من غارات المعتدين ، ولما استجاب الخليفة لرغبة الحجاج أعد هذا حملة كبيرة لغزو بلاد السند ووضع على رأسها القائد الشاب محمد بن القاسم الثقفي وهو صــهر الحجاج وابن أخيه ، وانقسمت الحمــلة قسمين ، سار قســم منها

---

(١) المرجع السابق ص ٢١ .

(٢) دكتور أحمد الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهنـدية ج ١ ص ٧٧ ـــ ٧٨ .

بطريق البحر ، وقاد محمد بن القاسم القسم البرى ففتح فى طريقه بعض البلاد حتى التقى بسفنه المحملة بالجنود عند ميناء الديبل ، واتجه بجنوده الى الشمال فخرت له الحصون والبلاد صلحا أو عنوة ، وأخيرا التقى بملك السند (داهر) الذى كان يقود جيشا واجه به جيش المسلمين ، وقد دارت بينه وبين المسلمين معركة كبيرة فر منها داهر وانهزم جنده ، ووقع كثيرون منهم أسرى فى أيدى المسلمين ، وبالقضاء على هذا الجيش أصبح الطريق ممهدا لمحمد بن القاسم ليسيطر على بلاد السند كلها دون كبير عناء حتى وصل الى كشمير فى شمال السند (١) .

وكان مما ساعد المسلمين على تحقيق النصر السريع ما لاقوه من عون من جماعتى الميد والجات (الزط) السنديتين اللتين انضمتا للجيوش الاسلامية ، ووجهتها الى أيسر الطرق ، وبذلت عونا واضحا فى معارك القتال ، وكانت هاتان القبليتان قد هاجر أكثر أفرادهما الى خارج السند لفرط ما كانوا يعانونه من سوء معاملة الحكومة البرهمية ، اذ كانوا فى عداد المنبوذين الذين يحرم عليهم امتطاء الدواب أو ارتداء غالى الثياب ، ولم يكن يباح لهم من المهن والحرف الا أدنؤها .

وقد أفاد المسلمون من رجال الميد والزط الى جانب شجاعتهم فى الحرب وشدة جلدهم فيها ، معرفتهم بمسالك السند ودروبها وأحوال أهلها وأساليبهم فى النزال (٢) .

أما عن صلة المسلمين بأهل السند بعد فتحها فيحدثنا عنها مؤلف هندى بقوله : وقد أكرم القائد المسلم رؤساء الهنادكة من رجال الدين ، وأطلق للناس حرية العبادة ، على أن يوالوا المسلمين ويدفعوا الجزية عن طيب نفس (٣) .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٢٣ وما بعدها .

(٢) دكتور احمد الساداتى : المرجع السابق ص ٥٩ .

(٣) Passad : Medieval Muslim Rule in India p. 29.

الحركات الفكرية والثورية

في عهد الدولة الأموية

امتاز العهد الأموى على قصره بمجموعة من الحركات الفكرية والثورية لم تتأت لسواه ، فهو بهذا كان أخصب العهود فى ثوراته الفكرية وثوراته العسكرية ، وربما يكون من الحق أن نقرر أن هذه الموضوعات لم تدرس حتى الآن دراسة كافية ، وسنحاول هنا أن نجلىّ بقدر الطاقة هذه الحركات المهمة ، وهى :

— حركات الشيعة •

وسيتفرع عن حركات الشيعة حركة أخرى قام بها المختار بن أبى عبيد •

— ثورة عبد الله بن الزبير •

— حركات الخوارج •

— المعتزلة والجبرية والمرجئة •

الاسلام والفرق :

وقبل أن نتحدث عن الفرق فى الاسلام ، نقرر بعد طول المعاناة والدرس والبحث أن هذه الفرق التى سنتحدث عنها ليست فى الحقيقة اسلامية ، وأن الأجيال أسمتها اسلامية خطأ ، أو أطلق عليها بعض المفكرين الأوائل اسم « الفرق الاسلامية » ثم اقتبست الأجيال بعد ذلك هذه التسمية دون تمحيص •

انها فى الحقيقة حركات ظهرت فى عهود الضعف ، وكانت فى ظهورها متأثرة بعوامل ليست اسلامية ، وهى بهذا ليست كالفرق فى اليهودية أو المسيحية التى تتخذ جذورها من الفكر اليهودى أو المسيحى •

ولذلك فاننى أرجو أن يتدبر القارىء الكريم هذه القضية الجديدة بما تستحقه من عناية ، لعلنا ننقذ ديننا الحنيف من هذه الفرْقة التى ارتبطت بتلك الفرق •

وسنشرح هذا بشىء من التفصيل عقب حديثنا عن هذه الفرق ، حيث سنبْرِز عناصر وأسباب قيامها ، مما سيوضح أنه ليست لها جذور اسلامية •

الشيعة

مقدمة عن نشأة التشيع وأسبابه :

الحديث عن الشيعة فى التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية يشمل فى تقديرى ناحيتين : أولاهما عقائد الشيعة وأفكارهم ، وثانيهما الحركات التى قام بها الشيعة للاستيلاء على الحكم ، وسنرى أن التطور فى التفكير الشيعى وُلِدَ أكثره فى العصر الأموى وسنرى كذلك أن الحركات التى قام بها الشيعة للاستيلاء على الحكم فى العهد الأموى كانت أقوى حركات الشيعة وأكثرها جرأة واتصالا حتى أسقطت الدولة الأموية ، تلك الدولة التى أسقطها الشيعة لتقوم مقامها دولة علوية ، ولكن نتيجة الكفاح نالها العباسيون لا العلويون لأسباب وضحناها عند الحديث عن قيام الدولة العباسية فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة .

لهذا كان الحديث عن الشيعة فى العهد الأموى حديثا ذا بال ، يلقى كثيرا من الضوء على الأحداث التى حصلت فى العهد الأموى وفيما تلاه من عهود .

والشيعة هم الذين شايعوا عليا رضى الله عنه (١) ، وقد كان لعلى شيعة منذ اللحظات الأولى بعد وفاة الرسول ، ومن هؤلاء جابر بن عبد الله وحذيفة بن اليمان وسلمان الفارسى وأبو ذر الغفارى وغيرهم ، ولما تم الأمر لأبى بكر فى سقيفة بنى ساعدة ، وتغلب هو وعمر على الأنصار بسبب الحديث الذى يروى عن الرسول وهو « الأئمة من قريش » قال على : احتجوا بالشجرة ونسوا الثمرة ، وقد فهم على من احتجاج أبى بكر وعمر بهذا الحديث أن المقصود القرابة ، فاذا كانت القرابة من الرسول مرجحا لنيل الخلافة ، فعلىّ أقرب الى الرسول من أبى بكر وعمر ، ولكن يبدو أن أبا بكر وعمر كانا يقصدان مكانة قريش وقوتها لا القرابة وحدها ،

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل - ١ ص ١٣١ .

فقريش أولى بالخلافة لقوتها ولأنها المطاعة بين العرب ، وقد وضح أبو بكر قصده ذلك بقوله فى نفس الخطاب الذى ألقاه فى السقيفة « ونحن مع ذلك أوسط العرب أنسابا » ووضح عمر هذا الاتجاه أيضا بقوله « لو دخلت قريش جحر ضب لاتبعها العرب » (١) .

على أن سلوك أبى بكر وعمر كان مثاليا فلم يدعا — بأخلاقهما — فرصة لأية أفكار معادية أن تظهر أو تنتشر ، ثم جاء عثمان وجاءت سنوه الأخيرة التى سبق أن أوضحناها عند الحديث عن خلافته ، وخلاصة ذلك شيخوخته وعمله أشياء لم يسبق للخليفتين قبله أن عملاها ، فبدأت حركات الشيعة تظهر وتقوى ، ثم جاء عبد الله بن سبأ (٢) وهو يهودى

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة جـ ١ ص ٦ وانظر ما كتبه المؤلف عن هذا الموضوع فى « السياسة فى الفكر الاسلامى » .

(٢) اتبعنا المراجع الشهيرة فى حديثنا عن عبد الله بن سبأ ، وفى تصوير الدور الذى قام به لتجميع الشيعة فى جماعة ، بعد ان كانوا افرادا ، وفى ادخال كثير من الانحرافات والضلالات على مذهبهم متحينا الفرص المختلفة لذلك ، ووضحت فى هذا الجزء الفرق بين الشيعة الحقيقيين وبين مدعى التشيع هؤلاء الذين لم يكونوا فى الحقيقة شيعة بل لم يكونوا احيانا من المسلمين ، وانما ادعوا التشيع ليحاولوا ادخال الأكاذيب على المذهب الشيعى لاغراض فى انفسهم .

وقد أطلعت حديثا على كتاب « عبد الله بن سبأ » للأستاذ مرتضى العسكرى عميد كلية اصول الدين بالعراق ، وفيه يذكر المؤلف أن عبد الله بن سبأ اسطورة خلقها وضاع اسمه سيف بن عمر (توفى بعد السبعين والمائة للهجرة) وذكر المؤلف للتدليل على ذلك مواقف متعددة كانت الرواية فيها عن سيف تختلف عن الرواية عن سواه ، وأبرز المؤلف فى روايات سيف صورا من الانحراف .

ومع أن هذا الطريق فى الاستدلال ليس حاسما فاننا نورد سؤالا مهما هو : من الذى ادخل الانحرافات الى المذهب الشيعى الذى نعرف فى اصوله السليمة بعدا عما نراه فيه من انحرافات وترهات ؟ .

فى اعتقادى أن قوى كثيرة دفعت نفسها الى صفوف آل البيت وشيعتهم لينفثوا من سمومهم ، وفى كثير من الحالات كشف اهل البيت نواياهم فصدوهم ، ولكن مع ذلك استطاع هؤلاء فى حالات كثيرة وبطرق متعددة ان يلقوا بين صفوف الشيعة شحنة السم التى كانوا يحملونها ، وقد وضحت ذلك فى هذا الجزء .

ولهذا فانى أقرر هنا أن زعامة ضالة نادت هذا الشوط ، هى

=

ادعى دخول الاسلام لا حبا فيه ولكن ليطعنه من الداخل ، فذلك أيسر عليه من أن يحارب الاسلام وهو يعلن عدم اعتناقه •

ووجد عبد الله بن سبأ نفوسا ثائرة على الخليفة ، تنتقد تصرفاته وتحتج عليها ، ووجد كذلك آخرين يدافعون عن الخليفة ويبررون تصرفاته ، فاتخذ عبد الله جانب المعارضة ، فذلك أدعى لوهن الاسلام والمسلمين ، ويمكن القول أنه ينسب الى عبد الله بن سبأ عملان هامان فى تاريخ الشيعة هما :

١ — كوّن عبد الله من هؤلاء الثائرين جماعة بعد أن كانوا أفرادا متناثرين ، وربط هذه الجماعة بحب آل البيت والتشيع لهم ، رغبة فى اكتساب عطف الجماهير •

٢ — بدأ عبد الله يدخل على تفكير الشيعة ألوانا من الآراء والفلسفات ، فلم تعد المسألة مسألة « الشجرة والثمرة » ذلك التفكير البسيط الذى بدأت به الشيعة وقال به على ، انما زاد ابن سبأ صورا من التعقيدات والابهامات ، وخلق الروايات ووضع الأحاديث ، وبذر بذور الأفكار الضالة التى نسبت للشيعة فيما بعد ، وتبعه فى ذلك كثيرون ممن عاصروه وممن جاءوا بعده وساروا على شاكلته •

وهناك عوامل ساعدت عبد الله بن سبأ فيما قصد اليه ، وهذه العوامل هى :

أولا — أن عثمان ، بسبب بعض أعماله ، وموقفه من أقاربه ، كانت تشيل كفته اذا قورن بالخليفتين قبله •

=

عبد الله بن سبا او شخص ما اطلق عليه هذا الاسم ، وان مريدين كثيرين اخذوا عنه هذا الضلال وساروا فيه ازمنة طويلة واشواطا واسعة ، فالاسم لا يهمنا ، ولكن يهمنا ان شخصا قام بالدور الذى نسب الى عبد الله بن سبا ، وان اشخاصا قاموا بالأدوار التى تنسب للسبئيين ولأعداء الشيعة واعداء الاسلام ممن اسميناهم (مدعى التشيع) .

ثانيا — الميل الطبيعى المنبعث عن العاطفة لتأييد أقارب الرسول ، وحبهم والولاء لهم .

ثالثا — ما عرف عن على من بطولة نادرة فى نشر الاسلام ، ومن علم زاخر وخلق قويم .

رابعا — الاحساس العام بأن عليا مضطهد ومبعد عن مكانة الخلافة التى هو بها جدير ، واذا كان هذا الاحساس لم يظهر قويا فى عهد أبى بكر وعمر لسن الشيخين وكفاءتهما النادرة ، فقد ظهر عند اختيار عثمان وتفضيله على على ، وكان الشعور العام أن عليا سينالها بعد عمر ، وقد عبر على نفسه عن شعوره بأنه مضطهد بقوله لعبد الرحمن بن عوف عقب اعلانه اختيار عثمان « ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا ، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » (١) وجاء فى رواية ابن عبد ربه قول على فى حديث الشورى عقب وفاة عمر : فأخذ عبد الرحمن بن عوف مواثيقنا وعهودنا على أن يخلع نفسه وينظر لعامة المسلمين ، فبسط يده الى عثمان فبايعه ، اللهم ان قلت انى لم أجد (أحزن) فقد كذبت (٢) .

خامسا — اتخذ على الكوفة عاصمة له ابان خلافته ، وأصبحت الكوفة منذ ذلك التاريخ مركز التشيع . وبالكوفة تنتشر الأديان المتعددة والمذاهب المختلفة من زراد شتية الى مانوية ومزدكية وغيرها .

سادسا — سادت فى فارس قبل الاسلام نظرية الحق الالهى الأوربية (Divine Right) التى تقضى أن الأسر المالكة تجرى فيها دماء إلهية وهى بهذا صاحبة الحق فى الحكم ، وعلى الناس أن يسمعوا لها ويطيعوا ، واختيار الملوك من هذه الأسر واجب مقدس « فقد خصهم الله بالسيادة وأيدهم بروح من عنده ، فهم ظل الله فى أرضه ، أقامهم على

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٩٧ .
(٢) العقد الفريد ج ٤ ص ٣٠٣ .

مصالح عباده ، وليس للناس قبلهم حقوق ، وللملوك على الناس السمع والطاعة » (١) ، وقد دخل الفرس الاسلام وهذه النظرية ثابتة فى عقولهم فرأوا لذلك أن أسرة الرسول هى الأحق بالحكم وعلى الناس أن يسمعوا لها ويطيعوا •

سابعا — اندس بين الساخطين والثائرين كثيرون ممن غلبهم الاسلام على أمرهم ، فأرادوا تهديمه والنيل منه ، فتظاهروا بالدخول فيه ليمكنهم ذلك من الثورة على أولى الأمر المسلمين باسم الاسلام ، ومن تهديم قواعد الدين باسم الأحاديث الكاذبة التى وضعوها ، وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن سبأ سالف الذكر وكثيرون قبله حذوا حذوه • ويقول المقريزى (٢) : **كان الفرس فى سعة من الملك وعلو اليد وكانوا يعدون العرب أقل الأمم خطرا ، فلما زالت دولة الفرس على يد العرب تعاظم لديهم الأمر وتضاعفت المصيبة ، وراموا الكيد للاسلام فرأوا أن الكيد له بالحيلة أنجع ، فاظهر قوم منهم الاسلام واستمالوا أهل التشيع باظهار محبة أهل البيت واستبشاع ظلم على ، ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن طريق الهدى •**

ويروى ابن عبد ربه عن الشعبى قوله : الرافضة (٣) يهود هذه الأمة ، يبغضون الاسلام كما يبغض اليهود النصرانية ، ولم يدخلوا الاسلام رغبة ولا رهبة من الله ، ولكن مقتا لأهل الاسلام وبغيا عليهم ، وقد أحرقهم على بن أبى طالب رضى الله عنه بالنار • ونفاهم الى البلدان ، ومحنة الرافضة محنة اليهود ، قالت اليهود : لا يكون الملك الا فى آل داود ، وقالت الرافضة لا يكون الملك الا فى آل على بن أبى طالب ، وقالت

---

(١) احمد امين : فجر الاسلام ص ١١١ •
(٢) الخطط ١ : ٣٦٢ •
(٣) الرافضة من الأسماء التى تطلق على الشيعة ، قيل ان زيد بن على هو الذى سماهم الرافضة لانهم رفضوا مؤازرته ، وقيل سموا الرافضة لانهم رفضوا أبا بكر وعمر ، أما الذين فضلوا عليا على عثمان ولكنهم تولوا أبا بكر وعمر فيسمون الشيعة (العقد الفريد ج ٤ ص ٢٠٤) •

اليهود : لا يكون جهاد في سبيل الله حتى يخرج المسيح المنتظر ، وقالت الرافضة لا يكون جهاد في سبيل الله حتى يخرج المهدى ، واليهود تستحل دم كل مسلم وكذلك الرافضة ، واليهود حرفوا التوراة وعجز الرافضة عن تحريف القرآن فقالوا بالمعنى الباطن وحرفوا معانيه (١).

ويقول الأستاذ أحمد أمين (٢) • والحق أن التشيع كان مأوى يلجأ اليه كل من أراد هدم الاسلام ، لعداوة أو حقد ، ومن كان يريد ادخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية ، وزرادشتية وهندية ، ومن كان يريد استقلال بلاده والخروج على مملكة الاسلام ؛ كل هؤلاء كانوا يتخذون حب أهل البيت ستارا يضعون وراءه كل ما شاءت أهواؤهم ، فاليهودية ظهرت في التشيع بالقول بالرجعة ، وقال الشيعة : ان النار محرمة على الشيعى الا قليلا كما قال اليهود « لن تمسنا النار الا أياما معدودات » والنصرانية ظهرت في التشيع في قول بعضهم : ان نسبة الامام الى الله كنسبة المسيح اليه ، وقالوا أن اللاهوت اتحد بالناسوت في الامام ، وان النبوة والرسالة لا تنقطع أبدا ، فمن اتحد به اللاهوت فهو نبى ، وتحت التشيع ظهر القول بتناسخ الأرواح وتجسيم الله ، والحلول ، ونحو ذلك من الأقوال التى كانت معروفة عند البراهمة والفلاسفة والمجوس من قبل الاسلام •

تلك هى العوامل التى نقلت التشيع من البساطة الى التعقيد ، ودفعته أحيانا حتى بعد عن الاسلام وعن التفكير السليم ، وتلك هى العوامل التى ساعدت عبد الله بن سبأ ، فأضافت الى أفكار الشيعة أفكارا جديدة بل أضافت الى فرق الشيعة فرقا جديدة ادعت أنها شيعة وليست فى الحقيقة من الشيعة بل ليست من الاسلام كما سيتضح فيما يلى :

الشيعة ومدعو التشيع :

نقصد بهذه الدراسة أن نضع حدودا واضحة بعض الوضوح او كله

---

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٤٠٩ — ٤١٠ .

(٢) فجر الاسلام ص ٢٧٦ — ٢٧٧ .

بين الحق والباطل ، ونقصد أن نحاول أن نقوم بدراسة يبدو أنها لم تجد حتى الآن عناية واضحة من الباحثين ، تلك هى أن نفرق بين الشيعة ومدعى التشيع ، وهذا الموضوع فى اعتقادى بالغ الأهمية ، فقد دخل "الشيعة" جماعات" كثيرة كما رأينا آنفا ليسوا من الشيعة فى شىء ، بل ليسوا من الاسلام فى شىء ، وأخذوا اسم الشيعة فوضعوه ستارا ونسجوا خلفه ألوانا من الترهات والأباطيل يقصدون بذلك الكيد للاسلام والمسلمين، وحمل الشيعة وزر كل هؤلاء ، وأصبح كل هؤلاء يعدون من الشيعة فى جميع المراحل القديمة والحديثة التى بين أيدينا ، ونحن نحتاج الى غربال دقيق ليعزل الحصا عن القمح فلا يعود الحصا يسمى قمحا بعد ذلك ، نريد أن نقول عن هؤلاء الذين يطلق عليهم « الشيعة الغلاة » ومن شاكلهم انهم ليسوا شيعة على الاطلاق . بل ليسوا مسلمين على الاطلاق ، فاذا استطعنا أن نفعل ذلك أخرجنا من الشيعة عشرات من الفرق ادعت أنها شيعة وليست شيعة ، ووفرنا على الشهر ستانى وابن حزم وأحمد أمين وغيرهم عشرات من الصفحات التى ملئوها بسيرة هؤلاء الفسقة على أنهم من الشيعة وليسوا فى الحقيقة ينسبون للشيعة من قريب أو بعيد ، ويقول كارل بروكلمان (١) فى ذلك : ان التشيع الذى بدأ أول ما بدأ حزبا سلاليا خالصا ، انضوى تحت لوائه أكثر الذين دخلوا الاسلام بقصد المناضلة ضد السيادة العربية ، وكان فى كثير من الأحيان ستارا يستخدمه الانتهازيون الذين لا ذمة فيهم ولا ذمام . لتحقيق أهدافهم الأنانية الصرفة ، المناهضة للحكومة .

وقد اتضح مما سبق أن كثيرين من أعداء الاسلام ومعتنقى المذاهب والأديان المختلفة وبخاصة من اليهود (٢) دخلوا الشيعة وانتسبوا الى آل البيت بقصد الكيد للاسلام ، وأدخلوا على مذهب الشيعة كما أشرنا آنفا

---

(١) تاريخ الشعوب الاسلامية جـ ٢ ص ١٣٧ .

(٢) انظر كتاب « اليهودية » من سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف ص ٢٩٣ — ٢٩٦ .

ألوانا من الضلالات والأكاذيب ، وكان أهم ما عنى به هؤلاء الدخلاء هو الكلام عن الأئمة فنقلوهم من صفة الى صفة ، ومن مكانة الى أخرى بعيدة المدى ، ويقول دوايت دونلدسن (١) اننا لو درسنا حياة الأئمة دراسة دقيقة وافية لانكشفت لنا حقيقة هامة هى أن رجالا لا يزيدون عن مستوى الشخص العادى بشىء ، قد رفعوا الى مصاف الخالدين ، لقد كانت حياتهم الحقيقية مجردة عن التمجيد والتقديس ، فأحاطتهم القصص المتأخرة بهالة من الجلال ، وجعلتهم قديسين وأنبياء وآلهة .

ولم يكن جعفر الصادق يهتم بشىء الا بالعلم والفقه والزهد ، ولم يعد نفسه فى سلسلة الأئمة ، وعاش على الرضا فى رحاب المأمون وولى عهده فترة ، وهكذا ، فلما جاء المتأخرون من مدعى التشيع نسبوا لهؤلاء الأئمة ما لم يعرفه هؤلاء فى حياتهم .

والآن نحب أن نوضح موقف الشيعة الحقيقيين وموقف آل البيت من هؤلاء الدخلاء ، والباحث يجد أن الشيعة الحقيقيين وآل البيت وقفوا من مدعى التشيع موقفين متضادين :

الأول : موقف كفاح وجهاد ضد ضلالاتهم ، وقد اشترك فى هذا الموقف كثير من أئمة الشيعة ورجالهم ، فكانوا يفندون آراءهم ويهاجمون المعتقدات الضالة التى يثيرونها ، وكانوا يبعدونهم ويدعون للبعد عنهم ، وينزلون بهم أشد العقوبات أن كانت فى أيديهم سلطة ، ولم يدخروا على العموم وسعا فى الكفاح ضدهم الا قاموا به ، ويروى الشهرستانى وابن حزم مجموعة من هذه المواقف نقتطف منها الأمثلة التالية :

على بن أبى طالب وابن سبأ : قال ابن سبأ مرة لعلى بن أبى طالب أنت أنت ، يقصد أنت الاله . فنفاه على الى المدائن (٢) . وربما يقال ان عقوبة النفى لم تكن كافية ، ولكن يجاب على ذلك أن فسق ابن سبأ لم يكن

---

(١) عقيدة الشيعة ص ٥٨ .

(٢) الشهرستانى ج ١ ص ١٥٥ هـ

قد وضح بعد ، وأن الجملة التي قالوا « أنت أنت » لم تكن ظاهرة الدلالة على المقصود الضال الذى كانت هذه الجملة مبدأه . ولذلك نجد موقف على قويا بالغ القسوة عندما اتضح ذلك المقصود فيما بعد ، فيروى ابن حزم (١) أن قوما من أصحاب عبد الله بن سبأ أتوا عليا وقالوا له : أنت هو فقال لهم : ومن هو ؟ فقالوا : أنت الله . فثار على وحكم عليهم بالاعدام حرقا ، وأمر باشعال نار وألقاهم فيها .

محمد بن الحنفية وابنه أبو هاشم مع المختار وعبد الله الكندى : ادعى المختار أنه من رجال محمد بن الحنفية ومن دعاته ، ولما عرف محمد ترهاته وضلالاته تبرأ منه وأعلن ذلك لأصحابه فكان ذلك سببا فى انفضاض الناس من حول المختار ، وبالتالى سببا فى هزيمته وقتله (٢) ، وبعد موت محمد بن الحنفية قام مقامه ابنه أبو هاشم ، وبعد وفاة أبى هاشم ادعى عبد الله بن عمرو بن حرب الكندى أنه القائم بالأمر بدله ولكنه انحرف ، فثار عليه أتباع أبى هاشم واعتزلوه (٣) .

الباقر وأبو منصور العجلى : أبو منصور العجلى هو أيضا من الغلاة ، قال بامامة الباقر ، ثم أضفى عليه وعلى الأئمة صفات الألوهية . فتبرأ منه الباقر وطرده (٤) .

جعفر الصادق ومدعو التشيع : جعفر الصادق من أعظم المفكرين المسلمين قدرا وأعلاهم منزلة ، وهو ابن الباقر وأمه أم فروة بنت القاسم ابن محمد بن أبى بكر الصديق . « وهو علم غزير فى الدين ، وأدب كامل فى الحكمة ، وزهد بالغ فى الدنيا ، وورع تام عن الشهوات .... ما تعرض للامامة قط ، ولا نازع أحدا فى الخلافة قط . ومن غرق فى

(١) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ١٨٦ .
(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ١٣٢ ومقدمة ابن خلدون ص ١٦٥ .
(٣) الملل والنحل ج ١ ص ١٣٥ .
(٤) المرجع السابق ص ١٥٨ .

بحر المعرفة لم يطمع فى شط ، ومن تعلى الى ذروة الحقيقة لم يخف من حط ، ومن أنس الله توحش عن الناس .. » (١) .

ورجل كهذا لم تغره الدنيا ولم يسع لها ، ولم يقبل فى الدين تمويها ولا يستر ضلالا ، ولذلك نجد الشهرستانى بعد أن عدد كثيرا من فرق الغلاة يقول « وتبرأ من هؤلاء كلهم جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنه ، وطردهم ، ولعنهم ، فان القوم كلهم حيارى ضالون جاهلون بحال الأئمة تائهون » (٢) .

ومن هؤلاء الذين طردهم جعفر ولعنهم ، أبو الجارود (٣) وأبو الخطاب الذى يقول الشهر ستانى (٤) « ان الصادق لما وقف على غلوه الباطل فى حقه تبرأ منه ولعنه ، وأمر أصحابه بالبراءة منه وشدد القول فى ذلك ، وبالغ فى التبرؤ منه واللعن عليه » .

الشيعة وأحمد بن الكيال : ادعى أحمد بن الكيال أنه يدعو لواحد من أهل البيت بعد جعفر الصادق لعله من الأئمة المستورين كما يقول الشهر ستانى ، وكان له أتباع من الشيعة ، ولكن هؤلاء رأوا ابن الكيال مبتدعا ضالا ، فلما وقفوا على بدعته تبرءوا منه ولعنوه : وأمروا شيعتهم بمنازلته وترك مخالطته (٥) .

ذلك هو موقف أئمة الشيعة وجمهور أتباعهم من هؤلاء الكفرة الذين تستروا خلف اسم الشيعة : موقف حازم ، موقف طرد وابعاد وعزل وقتل أحيانا ، فبأى حق نستمر فى عدنا هؤلاء الكفرة المضلين فرقا من الشيعة ؟

الثانى : أما الموقف الثانى الذى وقفه الشيعة الحقيقيون وأئمتهم

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ١٤٧ .
(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ١٦٠ ومقدمة ابن خلدون ص ١٦٥ .
(٣) الشهر ستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ١٤٣ .
(٤) المرجع السابق ص ١٥٩ .
(٥) المرجع السابق ص ١٦٠ — ١٦٦ .

من مدعى التشيع فهو كما قلنا آنفا مناقض للموقف الأول ، فقد انساق بعض آل البيت تحت تأثير ما الى أن يصبحوا فى عداد الضالين الذين أفسدوا التشيع ، ومن هؤلاء عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ابن أبى طالب الذى قال بالتناسخ وادعى الألوهية والنبوة وأنه يعلم الغيب(١) ومنهم الحسن الصبّاح صاحب قلعة ألَمَوْت الذى ظهر سنة ٤٨٣ وهو من نسل على بن أبى طالب (٢) وكان زعيم فريق الحشاشين السفاكين الذين استحلوا الحرمات وعبثوا فى شئون الدين ، ولكن من الحق أن نقرر أن هؤلاء قليليون جدا ، وبعيدو الصلة من الأئمة المعروفين .

ولكن الخطر على الشيعة جاء من طريق آخر . ذلك هو أن بعض قادتهم أحيانا ، باسم السياسة ، ورغبة فى الانتصار على أعدائهم ، تغاضوا عن هؤلاء الدخلاء حتى ينتفعوا بهم وبجهودهم فى نضالهم لاسقاط العدو المشترك وهو دولة بنى أمية ، وذلك التغاضى هو الذى سبب نوعا من الاندماج بين الأفكار الضالة والأفكار الصحيحة ، وهو الذى أتاح الفرصة لهؤلاء الدخلاء ليكسبوا أنصارا من بين الشيعة الذين يعملون معهم بوجه خاص ، ومن بين المسلمين على وجه العموم ، وللأسف تلقى بعض هؤلاء الشيعة مبادىء مدعى التشيع على أنها مبادىء شيعية حقيقية ، ودانوا بها وتحمسوا لها ، وأورثوها من جاء بعدهم ، فلم يعرف هؤلاء المتأخرون تلك الأباطيل التى كشفها أسلافهم من قبل وتبرءوا منها .

وهناك طريق ثان طويل جاء منه أعظم الخطر على الشيعة ، ذلك هو طريق الوضع والافتراء ، فقد كان مدعو التشيع فى غاية الذكاء والفطنة والمثابرة ، فوضعوا من الأحاديث والروايات ما يؤيدون به مذهبهم ، واستطاعوا بحسن سبك الأحاديث أن يدفعوا بعضها لتأخذ مكانها فى كتب الحديث الشهيرة ، ولكنهم بالاضافة الى هذا دونوا كتب حديث خاصة

---

(١) الشهر ستانى : الملل والنحل ج ١ ص ١٣٥ .

(٢) ضحى الاسلام ج ٣ ص ٢٢٥ وأنظر دراسة شاملة عنه فى الجزء الثامن من هذه الموسوعة .

بهم ، ووضعوا المبادىء التى تيسر عليهم عملهم ، فلم يقبلوا الا الأحاديث التى تروى عن الشيعة ، واكتفوا فى السند بذكر سلسلة الرواة حتى أحد الأئمة ولم يهتموا بذكر السند بين الامام والرسول ، لأن عصمة الامام كافية لايضاح أن الحديث المروى عنه صحيح (١) .

وقد بدأ مدعو التشيع وضع الأحاديث والروايات منذ عهدهم الباكر ، فوضعوا عن الرسول أحاديث لا حصر لها منها حديث قصة غدير خم ، وأحاديث عصمة الأئمة وفضلهم ، ووضع ابن سبأ وأعوانه كتبا ثلاثة كانت سبب الفتنة التى قتل فيها عثمان وأشعلت نارا التهمت آلاف الأنفس من المسلمين ، وعن وضع هذه الكتب يقول ابن عبد ربه (٢) ان قواد الثورة التى هبت فى وجه عثمان جاءوا الى على بن أبى طالب فقالوا له : قم معنا الى هذا الرجل . قال : لا والله لا أقوم معكم . قالوا : فلم كتبت الينا ؟ قال : والله ما كتبت اليكم كتابا قط . فنظر القوم بعضهم الى بعض وخرج على من المدينة . واستنكرت عائشة قتل عثمان فقال لها مروان هذا عملك ، كتبت للناس تأمرينهم بالخروج عليه . فقالت : والذى آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت اليهم بسواد فى بياض حتى جلست فى مجلسى هذا ، فكانوا يرون أنه كتب على لسان على وعلى لسان عائشة كما كتب على لسان عثمان الى عامل مصر ، فكان اختلاق هذه الكتب الثلاثة سببا فى الفتنة .

واستمر الوضع بعد ذلك على لسان الأئمة ، ولنأخذ اماما واحدا كنموذج للأئمة الآخرين ، ذلك هو جعفر الصادق الامام العالم الورع العظيم ، الامام الذى حارب مدعى التشيع وتبرأ منهم كما مر ، ولكنهم لم يتركوه ، بل جعلوه — عن طريق ما وضعوه باسمه — من أنصارهم وقادتهم ونسبوا اليه أشياء تعتبر أسسا من أسس مذهب مدعى التشيع الذين تبرأ منهم جعفر وطردهم ، ومن ذلك أنهم نسبوا اليه أنه القائل :

---

(١) عقيدة الشيعة ص ٢٨٦ .
(٢) العقد الفريد ج ٤ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

— من أذاع لنا سرا ووصلنا بجبال من ذهب لم يزدد منا الا بعدا .

— التقية دينى ودين آبائى وأجدادى ومن لا تقية له لا دين له .

— من أطاعنا فقد أطاع الله ، ومن عصانا فقــد عصى الله ، فنحن أبواب الله وحجبه وأمناؤه على خلقه ، وحفظة مكنون سره ، والآخذون عهده وميثاقه (١) (فى الأصل والآخذين وجعفر الصادق أبعد ما يكون عن مثل هذا الخطأ النحوى الواضح فقد كان من أساطين اللغة والفقه) .

وان الانسان ليستعرض ألوانا من الأقوال التى نسبت الى جعفــر فيجدها متضاربة تضاربا واضحا ، ويحكم بلا شك بأن بعضها على الأقل موضوع مختلق ، ولكن الذين يدققون — وبخاصة من الجماهير — قليلون ، ويقول الشهر ستانى (٢) ، ان جعفر تبرأ مما كان ينسبه اليه بعض الغلاة وبرىء منهم ولعنهم ، وبرىء من خصائص مذاهب الرافضة وحماقاتهم فى القول بالغيبة والرجعة ... لكن الشــيعة بعــده افترقوا ، وانتحل كــل واحــد منهم مذهبا ، وأراد أن يروّجه على أصــحابه ، فنســبه الى جعفر وربطه به والسيد برىء من ذلك « فبينما يبرأ جعفر من القول بالغيبــة والرجعة يقول الناووسية وهم من فرق الامامية : ان الصادق حى ولن يموت ، وسيعود للظهور ويعلو أمره . ويروون عنه أنه قال : لو رأيتم رأسى يدهده عليكم (يد حرج) من الجبل فلا تصدقوا ، فانى صــاحبكم صاحب السيف (٣) .

ومن التناقض الظاهر الذى رواه عنه مدعو الشيعة أن الأفطحيــة (احدى فرق الامامية) قالت بانتقال الامامة من جعفر الى ابنه عبد الله الأفطح ، ورووا عنه فى ذلك أقوالا تؤيد هذا الزعم ، وقد أورد الشهرستانى

---

(١) عارف تامر : اربع رسائل اسماعيلية ص ٥٦ — ٥٧ .
(٢) الملل والنحل ج ١ ص ١٤٧ .
(٣) الملل والنحل ص ١٤٨ .

هذه الأقوال فليرجع لها من يشاء (١) ، ولكن الإسماعيلية يرون أن الإمام بعد جعفر هو ابنه اسماعيل ويروون عن جعفر كذلك ما يؤيد ذلك (٢) ، بيد أن جمهور الامامية يرون أن الامام بعد جعفر هو ابنه موسى الكاظم ويروون عن جعفر أيضا ما يؤيد ذلك (٣) ، ليت شعرى أى الأقوال قالها جعفر وأى الأئمة عيَّن بعده ان كان قد عيَّن ؟

ومر الزمن وطال عمر الاضطهادات التى نزلت بالشيعة ، فقد عانى الشيعة من العباسيين أكثر مما عانوا من الأمويين ، وفى خلال هذه الاضطهادات كانت الفرصة سانحة لأفكار مدعى التشيع لتنساب وتمتزج بأفكار الشيعة ، وبعد بضعة أجيال كان من العسير أن نميز بين الموضوع من الأحاديث والروايات وبين الصحيح منها ، وفجأة حدث حادث ذو بال ثبَّت إلى حد كبير مبادىء مدعى التشيع وأتاح الفرصة لضم الأحاديث والروايات الموضوعة وتدوين كتاب أو كتب منها ، ذلك الحادث هو استبداد البويهيين بالسلطة (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ) فقد كانوا أول أسرة مالكة ممالئة للشيعة ، وقد رأى البويهيون كيف أن الأمويين حينما كانت السلطة فى أيديهم أجبروا بعض المحدثين على رواية أحاديث موضوعة كما يقول الزهرى (٤) ، وكيف أنهم وضعوا الأحاديث فى فضل بيت المقدس وفضل عثمان ، ومنعوا رواية الأحاديث التى بها مدح للعلويين (٥) . ورأى البويهيون كيف أن العباسيين جهدوا لتوجيه الأحاديث والروايات للحط من قدر الأمويين واعلاء شأن آل البيت . فما يمنع اذا البويهيون أن يستعملوا نفس السلاح لاعلاء شأن التشيع الذى يدينون به ؟

ووجد البويهيون من علماء الشيعة من يحقق لهم هذه الرغبة وفى ثمة هؤلاء محمد بن يعقوب الكلينى (٣٢٩ هـ) ومحمد بن على بن الحسين

---

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٤٩ .
(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة .
(٤) المرجع السابق .
(٥) المرجع السابق ونفس الصفحة .

ابن بابويه المعروف بالقمى (٣٨١ هـ) ومحمد بن الحسن الطوسى (٤٦٠هـ) وغيرهم .

وكتاب الكافى للكلينى من أعظم الكتب التى يعتمد عليها الشيعة ، وهو عندهم كالبخارى عند أهل السنة ، وهو ينقسم الى قسمين يعرف الأول بأصول الكافى ويعرف الثانى بفروع الكافى وبه ١٦٠٠٠ حديث ،

أما القمى فكان يقول عن نفسه انه ولد بدعاء صاحب الزمان (١) ، فان أباه لم يرزق بولد حتى تقدمت سنه ، ثم طلب ذلك الأب من ثالث وكلاء الامام الغائب أن يسأل صاحب الزمان أن يدعو الله أن يرزقه ولدا ، ففعل النائب ودعا صاحب الزمان واستجاب الله !!!

وعاش الطوسى بعد زوال ملك البويهين وأحرقت كتبه ورسائله أو أكثرها أمامه .

ولنعد الى الكلينى لنقتبس من كتابه الكافى بعض ما ورد فيه مما نعتبره من أقوال مدعى التشيع وليس من التشيع فى شىء :

١ — روى الكلينى عن ضرورة الامام أن الباقر قال : انما يعبد الله من عرف الله ، ومعرفة الله تصديق الله عز وجل وتصديق رسوله وموالاة على والائتمام به وبأئمة الهدى عليهم السلام ، والبراءة الى الله عز وجل من عدوهم . وإن من أصبح بلا إمام أصبح ضالا تائها وإن مات على هذه الحال مات ميتة كفر (٢) .

٢ — وعن الامام والوحى يروى الكلينى عن على الرضا أيضا أن الامام يوحى اليه ويسمع الكلام ولكنه لا يرى من يكلمه (٣) .

---

(١) صاحب الزمان هو لقب الامام عند الاسماعيلية ، ويفهم من هذا اللقب أن الامام مدير الكون وصاحب السيطرة عليه .
(٢) الكافى ص ٨٤ ، ٨٦ .
(٣) المرجع السابق ص ٨٢ .

٣ — وعن مكانة الأئمة يروى الكلينى عن الرضا أيضا قوله : ان الامامة فى منزلة النبوة ، والامــام مطهــر من الذنوب مــبرأ من العيــوب وعن الباقر أن الأئمة إذا شاءوا أن يعلموا شــيئا أعلمهــم الله إياه ، وهم يعلمون متى يموتون ، ولا يموتون الا باختيارهم ، وأنه لا يخفى عليهم شىء (١) .

٤ — ومن التفاسير المروية عن الأئمة ما رواه الكلينى أن البــاقر فسر قوله تعالى « من جاء بالحسنة فله خير منها وهم فزع يومئذ آمنون، ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار » (٢) أن الحســنة معرفة الامــام وحب أهل البيت ، والسيئة انكار الامام وبغض آل البيت (٣) . وان جعفــر الصادق قال : إن أعمال الناس تعرض عــلى الأئمــة بدليــل قوله تعــالى « فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » فالمقصود بالمؤمنين الأئمة (٤) .

٥ — يروى الكلينى أن جعفر الصادق قال ان عند الأئمة مصــحف فاطمة وفيه مثل قرآننا ثلاث مرات ، وليس فيه من قرآننا حرف واحد (٥) .

٦ — ويروى الكلينى عن الرضا قوله « الناس عبيد لنا فى الطــاعة موال لنا فى الدين » (٦) .

فاذا تركنا الكلينى وذهبنا الى الشــهر ســتانى وجــدنا العجب العجاب ، وجدنا الشيعة يكفّرون الصحابة جميعا لخذلانهم عليا واختيارهم غيره . ويكفرون المؤمنين جميعا أو يحكمون بفسقهم لنفس السبب ، أما تكفير عائشة وعثمان وطلحة والزبــير ومعــاوية .. فأيسر ما قالوا به ،

---

(١) المرجع السابق ص ٩٦ ، ١٢٦ .
(٢) سورة النمل الآية ٩٠ .
(٣) الكافى ص ٨٧ .
(٤) المرجع السابق ص ٩٩ .
(٥) المرجع السابق ص ١١٥ .
(٦) المرجع السابق ص ٨٨ .

والعجب أن بعضهم يطعن عليا بنفسه لأنه ترك طلب حقه وكان عليه أن يخرج ويدافع عن حقه ، ولم يَعْذُرْه فى القعود (١) •

وبعضهم يفضل عليا على محمد ، وبعضهم يجعل عليا الهـا وهو الذى أرسل محمدا ، بل ان بعضهم أله جعفر الصادق وجلس لعبادته بكناسة الكوفة ، وزاد بعضهم فجعل الأئمة كلهم آلهة يظهر الله بصورتهم وينطق بلسانهم ويأخذ بأيديهم ويطلقون عليهم آلهة لذلك (٢) وأغلب هذه الآراء تروى على أنها من أقوال الأئمة ومن تعليمهم ، ولكن الشهرستانى لم يدع رواية ضالة الا انتقدها وانتقد نسبتها الى من تنسب اليه •

وننتقل خطوة أخرى الى مرجع شيعى هام اشتهر بذكر معجزات الأئمة ، وذلك هو كتاب « خلاصة الأخبار » من تأليف السيد محمد مهدى ، وقد نَسَبَ هذا الكتاب الى الأئمة معجزات أكثر مما نسب الى الرسل ، معجزات له يعرفها عصر الأئمة قط ، ولكن الوضاع خلقوها ، والرواة نقلوها ، ثم وجدت المؤلفين الذين يدونونها على أنها حقائق مسلم بها ، وفيما يلى بعض هذه المعجزات :

سأل رجل محمدا الباقر يوما : هل ورث النبى ﷺ علم جميع الأنبياء فأجاب الباقر : نعم • فسأل الرجل : هل تقدر أن تحيى الموتى وتبرىء الأعمى ؟ فقال : نعم باذن الله ، ومسح بيده على عين رجل كان أعمى فأبصر •

ورأى موسى الكاظم (وفى رواية أخرى جعفر الصادق) امرأة وابنتها تبكيان ، فقال للمرأة : ما يبكيك أنت وابنتك ! فأجابت : كنت وصبيتى نعيش من هذه البقرة وقد ماتت فتحيرت فى أمرى ، فوضع أصبعه الشريفة على البقرة فقامت مسرعة سوية •

---

(١) انظر الشهرستانى ص ١٤٠ ، ١٤٦ ، ١٥٦ .
(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ١٥٦ ، ١٦٠ ، ١٦٨ .

ويذكرون أن يحيى بن أكثم القاضى سأل محمد التقى مسائل كثيرة قبل أن يعترف بامامته ، وفى ختـام هذه المسـائل قال له : من الامام ؟ فأجاب محمد التقى : أنا • قال يحيى : وما برهانك ؟ فتكلمت عصا محمد التقى وقالت : ان صاحبى هذا هو امام العصر وحجة الله (١) •

هذه نماذج مما كتبه كتاب الشيعة كالكلينى ومحمد المهدى وغيرهمـا ، أو مما رواه رواة الشيعة ونقله عنهـم كثير من الكتاب والمؤلفين ، ناقـدين أو غير ناقدين ، واعتقادى الجازم أن هذه الروايات كلهـا محض اختـلاق وتلفيق ، فما كان للباقر فى علمه وفضله وقرب عهـده بالصدر الاسـلامى أن يسمح لأتباعه أن يكفروا النـاس ويكفروا أبا بكر مع أن زوجـة الباقر هى حفيدة أبى بكر ، ولا كان جعفر الصادق يقبل مثل ذلك فى جـده ، وأى عقل يستطيع أن يصـدق ما نسب للصادق عن أسطورة قـرآن فاطمـة ؟ وكيف استطاع الرضا وهو معاصر للمأمون أن يقول ما نسبه اليـه الكلينى ، ولو قد قال ذلك ما غفره له المأمون ، ذلك الخليفة العالم الذى لم يستطـع أن يغفر لابن حنبل عدم موافقته على القـول بخلق القرآن ويستطيع كـل انسان أن يصرخ فى وجه الكلينى بأن الناس ليسـوا عبيدا لآل البيت ، وأن المؤمنين إخوة ، ولا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى أما خـرافة التأليه والتكفير والمعجـزات فأوهى من أن نرد عليها وأن ننكر نسـبتها الى الأئمة الأفاضـل •

بقى شىء يوضـح لنا كيف تتسرب أفكار قـوم وتمتزج بأفـكار الآخرين ، ذلك هو أن أفكار مدعى التشيع لم تتسرب فقط الى أفـكار الشيعة بل تسربت أحيانا الى أفكار أهل السنة وامتزجت بها ، كعصـمة الأنبياء التى لم يكن يعرفها الصدر الأول للاسلام فى غير التبليغ ، فلمـا نسب مدعو التشيع العصمة المطلقة للأئمة ، واضطروا لذلك أن ينسبوها للأنبياء • تسربت هذه الفكرة الى أهل السنة ووجدت منهم من يعتنقهـا

(١) خلاصة الأخبار : الفصـلان ٢٥ و ٣٧ •

ويدافــع عنها (١) .

وهناك طريق ثالث (٢) يحتمل أن يــكون من الطــرق التى ســـببت التزيد فى مذهب الشيعة ، وأتاحت الفرصة لمدعى التشيع أن يدخــلوا أفكارهم ويمزجوها بأفكار الشيعة ، وهذا الطريق هو نشر الكتب ، فاذا فرض أننا أحسنا الظن بالكلينى وغيره ، وقلنا أنه لا يحتمل أن يصــدر عنهم مثلهذه الخرافات والضلالات ، فان يدا أخرى يحتمل أن تكون قــد عبثت بمؤلفات هؤلاء الكتّاب فأضافت عليها قبل نشرها ما ليس منهــا ، وليست هذه اليد الا يد مدعى التشيع الذين لم يخل منهم مجال النشر فى زمن من الأزمنة ، وربما لا يزال بعضهم يكافح حتى الآن .

وطريق رابع طرقه مدعو التشيع لينشروا أفكارهم عن طــريق بعض الباحثين ، ذلك هو طريق الرشوة لهم حتى يقولوا غير ما يعتقدون . حكى الشعبى قال : لو أردت أن يعطونى رقابهم عبيدا وأن يملئوا بيتى ذهبا على أن أكذب على علىّ كذبة واحدة لقبلوا ، ولكنى والله لا أكذب أبدا (٣) . وكلام الشعبى يدل على محاولاتهم هذا الطريق ، واذا كان قــد رفض بإباء فقد يكون هنــاك من اســتجاب لهم ، وعلى كل حــال فإنه إذا تأبّى العلماء على مدعى التشيع ولم يخضعوا لاغراء المال والجاه ، فان مدعى التشيع يسلكون طريقا آخر ينسبون به ما يشــاءون من الأفــكار إلى مَنْ يشاءون من العلماء ، فقد كانوا يسمون بعض أتباعهم بأسماء مشاهير العلماء كالسدى وابن قتيبة ، ثم ينقلون عن هؤلاء ، مُوهِمِين الناسَ أنهم ينقلون عن السدى وابن قتيبة المعروفين (٤) .

وعندنا نموذج للوضع والتحريف يبدو من مقارنة كتاب الكافى سالف

---

(١) عقيدة الشيعة ص ٣٢٩ — ٣٣٠ .

(٢) الطريق الأول هو تعاون بعض آل البيت مع مدعى التشــيع احيانا باسم السياسة ، والطريق الثانى هو وضع الأحاديث والآراء ونسبتها للرسول والائمة وقد مر الحديث عن هــذين الطريقين .

(٣) ابن عبد ربه : العقــد الفريد ج ٢ ص ٤٠٩ .

(٤) احمد امين : فجر الاسلام ص ٢٧٥ .

الذكر بكتاب المجموع الذى هو عند الزيدية كالكافى عند الامامية ، فان ما روى فى المجموع عن زيد عن أبيه على زين العابدين عن الحسين عن على بن أبى طالب يخالف ما روى فى الكافى عن الباقر عن أبيه على زين العابدين عن الحسين عن على بن أبى طالب ، ويعلل الزيدية بأن الرواة عن زيد هم عدول الزيدية لا يطعن فيهم ، والرواة عن الباقر لم تثبت عدالتهم (١) ، فالمروى عنهم هم هم لم يتغيروا (على زين العابدين فالحسين فعلى بن أبى طالب) ولكن المروى هنا غير المروى هناك فى موضوع واحد .

ومقارنة أخرى نثبتها هنا هى مقارنة الكافى سالف الذكر بالمراجع التى دونها الدعاة الفاطميون وسيأتى ذكرها ، وهذه المقارنة تظهر لنا المراجع الفاطمية أكثر اعتدالا مع أنها صادرة عن الاسماعيلية المعروفين بأنهم أكثر غلوا من الاثنى عشرية ، وسبب ذلك فيما أعتقد هو كثرة الوضع فى الكافى وعدم الوضع فى المراجع الفاطمية التى حفظت القاهرة مخطوطاتها دون تحريف يذكر .

بقى لنا موقف قصير نعرض فيه لرأى أستاذنا المرحوم الاستاذ أحمد أمين فى ذلك الموضوع ، فقد قام رحمه الله بدراسة مذهب الشيعة ، واعتمد فى دراسته على الكلينى سالف الذكر ، وقدم لهذه الدراسة بأنها معتمدة على كتبهم فذلك أنصف لهم (٢) . وكان من نتيجة اعتماد الأستاذ أحمد أمين على كتاب الكافى ويقينه أنه نتاج شيعى أن كانت دراسته لمذهب الشيعة مملوءة بالهجوم عليهم ، ونقد لهذه الأفكار دون هوادة بل بسخط وقسوة (٣) واعتقادى أن كتاب الكافى لا يمثل مذهب الشيعة بقدر ما يمثل أفكار مدعى التشيع والوضاع والضالة ، وأنه

---

(١) كتاب المجموع ص ١١ وانظر ضحى الاسلام جـ ٣ ص ٢٧٦ .
(٢) ضحى الاسلام جـ ٣ ص ٢١٣ .
(٣) اقرا فجر الاسلام ص ٢٦٦ — ٢٧٦ وضحى الاسلام جـ ٣ ص ٢٠٨ — ٢١٥ .

لا يصلح أساسا لدراسة مذهب الشيعة الحقيقى ، ويوم نسلم بهذا يكون من اللازم أن تسير دراسة الشيعة على غير النحو الذى سلكه الأستاذ أحمد أمين •

والخلاصة التى نؤمن بها أن الكافى ليس حجة على الشيعة ، وأن من الضرورى أن نحذف من الشيعة تلك الفرق التى تكونت لتفسد الاسلام وتمحو حضارته وأفكاره ، فاذا فعلنا ذلك بقيت عندنا جماعات الشيعة الأصيلة • تلك الجماعات الجديرة بالدراسة والتى تتفق مع غير الشيعة من المسلمين فى كثير من الأسس •

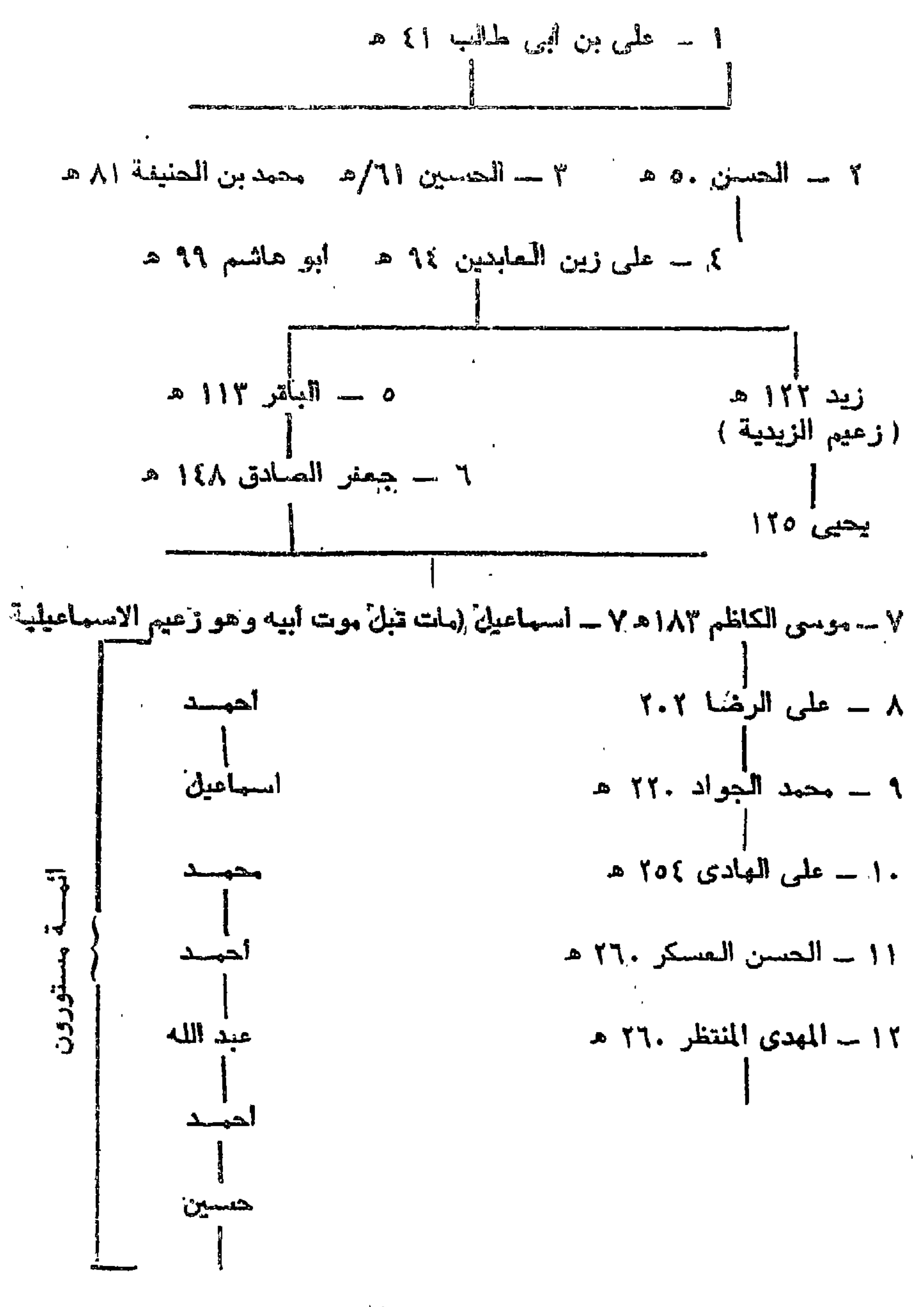
ولسنا ندعى سلامة الفرق الشيعية الحقيقية من آثار انسابت اليهم من أفكار مدعى الشيعة ، بل اننا نعترف اعترافا تاما بأن كل فرق الشيعة أصابها شىء قليل أو كثير من أفكار مدعى التشيع ، ولكنا نريد أن نفرق بين التطور الذى حصل قطعا فى التفكير الشيعى وبين الآراء الضالة التى صبت انصبابا من تفكير آخر ، أو قل نريد أن نفرق بين جماعة شيعية تطور مذهبها لسبب أو لآخر وبين جماعة ليست شيعية على الاطلاق ، ولكنها أسدلت على نفسها هذا اللقب لاستغلاله ، للعبث بالاسلام من وراء ستار ، ويجب أن نحذف من الشيعة هذه الجماعات فهى ليست من الشيعة فى شىء ، بل ليست من الاسلام فى شىء كما قلنا من قبل • وكيف يعد من الاسلام ذلك الفريق من الكيسانية الذين قالوا ان الدين طاعة رجل ، وعندما يصل المسلم الى درجة الطاعة تسقط عنه الصلاة والصوم والزكاة والحج ، والذين أنكروا القيامة وقالوا بالتناسخ والحلول (١) ، وكيف نعد الحارثية مسلمين وقد أباحوا المحرمات وعاشوا دون أداء التكاليف الشرعية (٢) وكيف نعد من المسلمين هؤلاء الذين سبق أن تكلمنا عنهم ممن يكفرون المسلمين جميعا أو يألهون عليا وأولاده الى غير ذلك من ألوان الخطل والتخريف ، فالذى أثبته بقوة هو أن من يسمعون بالشيعة

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ١٢١ — ١٣٢ •
(٢) المرجع السابق بعد ص ١٣٥ •

الغلاة ليسوا شيعة على الاطلاق ، وليسوا مستحقين لهذا الاســم ولا جديرين به بل ليسوا مسلمين أيضا فلنكشف عنهم هــذا الغطــاء الذى استتروا خلفه زمنــا طويلا وفى حمايته عبثوا بالتفكير الاســلامى وبثــوا سمومهم ، واذا فعلنا ذلك فاننا ـ كما قلنا من قبل ـ نحذف من الشيعة عشرات الفرق تعد ظلما من الشيعة وهم ليسوا شيعة بل هم فى الحقيقة أعداء لآل البيت وأعداء الاسلام •

بقى أن نقرر حقيقة رائعة هى أن المسلمين فى مختلف النــــواحى أصدروا عمليا على مر التاريخ ذلك الحكم الذى حمكناه فانفضوا من جــول هذه الفرق التى ادعت التشيع عندما ظهرت ضلالاتها ، حتى ماتت هــذه الفرق ولم يبق لها أتباع قط ، أو لم يبق لها من الأتباع الا النادر الذى لا يؤبه له ، أما الفرق الشيعية التى استطاعت أن تعيش حتى العهــــد الحاضر فثلاثة : الزيدية والاثنا عشرية والاسماعيلية ، وفيما يلى تسلسل هذه الفرق من على بن أبى طالب ، وسنتكلم عنها فيما بعد •



١ ـ على بن ابى طالب ٤١ هـ
٢ ـ الحسن ٥٠ هـ
٣ ـ الحسين ٦١/هـ
محمد بن الحنيفة ٨١ هـ
٤ ـ على زين العابدين ٩٤ هـ
ابو هاشم ٩٩ هـ
زيد ١٢٢ هـ
(زعيم الزيدية)
يحيى ١٢٥
٥ ـ الباقر ١١٣ هـ
٦ ـ جعفر الصادق ١٤٨ هـ
٧ ـ موسى الكاظم ١٨٣ هـ
٧ ـ اسماعيل (مات قبل موت ابيه وهو زعيم الاسماعيلية
٨ ـ على الرضا ٢٠٢
٩ ـ محمد الجواد ٢٢٠ هـ
١٠ ـ على الهادى ٢٥٤ هـ
١١ ـ الحسن العسكر ٢٦٠ هـ
١٢ ـ المهدى المنتظر ٢٦٠ هـ
احمد
اسماعيل
محمد
أحمد
عبد الله
احمد
حسين
ائمة مستورون
عبيد الله المهدى (راس الأسرة الفاطمية)

فرق الشيعة وتطور اعتقاداتها :

قلنا أن فرق الشيعة التى استطاعت أن تعيش حتى العهد الحاضر هى الزيدية والاثنا عشرية والاسماعيلية ، وقد تطورت اعتقادات هذه الفرق بسبب اتصالاتها بمدعى التشيع ، وكانت فى تأثرها مختلفة بعضها عن البعض ، فالزيدية أقلها تأثرا ، ويجىء بعدها الاثنا عشرية فهى بين بين ، أما الاسماعيلية فأكثرها تأثرا ، وبالتالى أكثرها بعدا عن الشيعة الحقيقية وسيأتى ايضاح ذلك ، والاثنا عشرية والاسماعيلية فرعان لفرقة الامامية ، لاهتمامهم بمشكلة الامامة كما سيأتى ، ومن المناسب أن نذكر هنا أن الشيعة يستعملون كلمة امام وامامة فهما أوسع من كلمتى خليفة وخلافة ، والامام عندهم فى يده أمور الدين ، وكان يلزم أن تسند اليه السلطة الزمنية فى المملكة الاسلامية ، لتجمع له بذلك أمور الدين والدنيا ، ولكن أمور الدنيا غصبت من الأئمة وشغلها أولئك الذين يسمون خلفاء ، وبقيت أمور الدين فى يد الامام لم ينازعه فيها أحد ، كما بقى له لقب امام دون أن يطلق على سواه ، فأصبح الأئمة بذلك هداة روحانيين وشفعاء (١) .

نقاط الاتفاق بين فرق الشيعة :

ومع اختلاف فرق الشيعة فى المعتقدات فانهم جميعا يتفقون على معتقد هام ، هو أفضلية علىّ على جميع الخلق ، ويقول فى ذلك ابن أبى الحديد (٢) : « يقول أصحابنا — وقد سلكوا طريقة مقتصدة — ان عليا أفضل الخلق فى الآخرة ، وأعلاهم منزلة فى الجنة ، وأفضل الخلق فى الدنيا ، وأكثرهم خصائص ومزايا ومناقب . . . . . والحاصل أنا لم نجعل بينه وبين النبى ﷺ الا رتبة النبوة ، وأعطيناه كل ما عدا ذلك من الفضل المشترك بينه وبينه » .

وهذا المبدأ المتفق عليه ذكرناه قبل أن نذكر الفرق لأنه مشترك

---

(١) دوايت دونلدسن : عقيدة الشيعة ص ١١٨ .

(٢) شرح نهج البلاغة جـ ٤ ص ٥٢٠ .

بينها جميعا ، وهو بلا شك أثر من الآثار التى تركهــا مدعو التشــيع فى الشيعة الحقيقية ، فما المقياس الذى وزن به على حتى أصبح أفضل الخلق فى الدنيا والآخرة ؟ حتى لم يستثن هذا القول محمدا الا فى العبـــارة الأخيرة ، ومما يدل على تأثر الشيعة بمدعى التشيع فى هذا المعتقد قول ابن أبى الحديد فى عبارته السابقة « وقد سلكوا طريقة مقتصدة » ماذا بعد ذلك ؟ وهل هناك مقام أرفع من هذا المقام ؟ نعم هناك قــول العليائيـــة الذين أشرنا اليهم من قبل والذين يفضلون عليا على محمــد ، وهنــاك غيرهم ممن يؤلهون عليا وأبناءه ، فاذا اكتفى أصحاب ابن أبى الحــديد بالقول بأفضلية علىّ على جميع البشر فى الدنيا والآخرة فهم فى نظــره مقتصدون معتدلون .

وهناك معتقد آخر يتفق عليه الامامية أى الاثنا عشرية والاسماعيلية وذلك هو أن الامامة (وتشمل هنا الخلافة أيضا) خاصة بعلى ثم بأولاده من فاطمة أى بالحسن فالحسين فأولاد الثانى [1] ، ولا يجــوز أن تــكون الامامة (التى تشمل الخلافة كما سبق القول) لغير هؤلاء ، فاذا صارت أمور الناس الدنيوية (الخلافة) لغير هؤلاء فهو سلب وغصب لحق ثابت من على وأولاده ، ورضاء الأئمة بذلك انما هو من باب التقية وســيأتى شرحها .

ولا يوافق الزيدية على هذا المعتقد بل يرون ـــ كما سيأتى تفصيلهـــ جواز امامة المفضول مع وجود الأفضل ، فمع أن عليا وأولاده أفضـــل الخلق الا أن خلافة غيرهم جائزة .

وبناء على قول الامامية السابقة ليس لأولاد على من غير فاطمة حق فى الامامة ، ومعلوم أن عليا لم يتزوج غير فاطمة فى حياتها ، فلما ماتت تزوج ، ومن زوجاته آنذاك امرأة من بنى حنيفة أنجبت ولدا سمى محمدا

---

(١) أما أولاد الحسن فيرى اكثر أولاد الحسين انهم لاحق لهم فى الامامة لأن تنازل أبيهم لمعاوية عن الخلافة اضاع حقهم .

وبناء على الاعتقاد سالف الذكر ليس لمحمد هذا حق فى الامامة ، ورغبة من هؤلاء فى ابعاد محمد عن حوزة الامامة أطلقوا عليه محمد بن الحنفية ، نسبة لأمه حتى كأنهم لا يريدون نسبته الى على ، ولكن كان لمحمد هـذا أتباع وشيعة بعد وفاة الحسين وبخاصة أن على بن الحسين الذى شهد قتل أبيه وقتل ذويه فى كربلاء استكان بعد هذه الحادثة الشنيعة ولـم يحرك ساكنا ضد بنى أمية ، مما حدا ببعض الشيعة أن يتجهوا الى محمد ابن الحنفية وفضلوه على علىّ بن الحسين ، وبعد موت محمد بن الحنفية (٨١ هـ) انتقل أمره الى ابنه أبى هاشم الذى عندما أحس بالموت وهو فى طريقه من دمشق الى المدينة عرج على الحميمة حيث يقيم على بن عبد الله بن العباس فأعلمه أنه ميت وأوصى اليـه اذ لم يكن له عقب وكان فى صحبته جماعة من الشيعة فسلمهم إليه وأوصاه بهم ثم مات (١) ، وبهـذا يعتقد العباسيون أنهم ورثوا على بن أبى طالب بالاضـافة الى حقهم بوصفهم ورثة للعباس بن عبد المطلب (٢) .

أما الزيدية والاثنا عشرية والاسماعيلية فينكرون امامة محمد هذا ، ومن ثم لا يعترفون بالفرق التى تفرعت عنه كالكيسانية (نسبة الى كيسان مولى محمد بن الحنفية وقيل مولى على بن أبى طالب) والهاشـمية والبيانية والرزامية (٣) أما انـكار الاثنى عشرية والاسـماعيلية فواضـح لأن محمدا ليس من أبناء فاطمة ، وأما انكار الزيدية لامامة محمد فلأنه لم يخرج على خلفاء العصر مطالبـا بامامته اذ أن ذلك شرط من شروط الامامة عند الزيدية كما سيأتى .

نقاط الخـلاف بين فرق الشيعة :

وفيما عدا هذين المعتقدين تختلف هذه الفرق الثـلاثة بعضها عن بعض فى الأسس والمعتقدات ، ومن ثم لزم أن نتكلم عن كل منهـا على حـدة :

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٠١ .
(٢) موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية للمؤلف جـ٣ ص ٨ .
(٣) انظر هذه الفرق فى الملل والنحل للشهرستانى جـ ١ ص ١٣١ ـ ١٣٧ .

الزيدية :

الزيدية ينسبون الى زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على رضى الله عنهم ، وقد كان زيد هذا يضع للامامة شروطا هى أن يكون الامام فاطميا عالما زاهدا شجاعا وأن يخرج مطالبا للامامة (١) فان لم يخرج مطالبا للامامة فليس اماما وجاز تعيين غيره ، وعلى هذا أجاز زيد خلافة أبى بكر وعمر مع وجود على لأن عليا لم يخرج مدافعا عن حقه مطالبا به ، وبخاصة أنه يرى أن امامة المفضول جائزة مع وجود الأفضل . ولزيد فى هذا الموضوع كلام دقيق أورده الشهر ستانى يجدر بنا أن نقتبسه هنا ، قال :

كان على بن أبى طالب رضى الله عنه أفضل الصحابة ، الا أن الخلافة فوضت الى أبى بكر لمصلحة رأوها ، وفائدة دينية راعوها (٢) . فان عهد الحروب التى مرت فى أيام النبوة كان قريبا ، وسيف أمير المؤمنين على من دماء المشركين من قريش وغيرهم لم يجف بعد ، والضغائن فى صدور القوم من طلب الثأر كما هى ، فما كانت القلوب تميل اليه كل الميل ، ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد ، فكانت المصلحة أن يكون القائم بهذا الشأن من عرفوه باللين والتؤدة والتقدم بالسن والسبق فى الاسلام والقرب من رسول الله ﷺ (٣) .

وتبعا للشروط التى اشترطها زيد للامام ، أراد هو أن يكون عالما فبدأ يتلقى العلم عن أشياخ عصره ، لأنه لم يؤمن بما أشاعه مدعو التشيع من أن الامام يوحى اليه ويعلمه الله ، ولذلك تتلمذ زيد على واصل بن عطاء فأخذ عنه كثيرا من مبادىء المعتزلة ، وبدأ زيد يجمع حوله الأنصار ويبث الدعاة ، وأخطأ زيد كما أخطأ أجداده من قبل فاتخذ من الكوفة أنصارا ولم يسمع لأهله الذين حذروه من الكوفة وأهلها ، وأعلن

---

(١) الشهر ستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ١٣٧ — ١٣٨ .
(٢) فى الأصل وقاعدة دينية . ولعل « فائدة » احسن .
(٣) الملل والنحل جـ ١ : ص ١٣٨ .

بها ثورته ، وبعد فترة انفض من حوله أهل الكوفة كالعادة وقتل زيد فى معركة ضد يوسف بن عمر والى هشام على العراق سنة ١٢٢ هـ .

وهرب يحيى بن زيد بعد هذه المعركة ، واتجه الى خراسان فبلخ ، وهناك أعد عدته وأعلن الثورة ولكنه لاقى مصير أبيه فقتل وحرق سنة ١٢٥ هـ أيام خلافة الوليد بن يزيد .

وبعد يحيى لم ينتظم أمر الزيدية كما يقول الشهرستانى (١) حتى ظهر ناصر الأطروش فى بلاد الديلم بطبرستان وكان أهلها لم يدخلوا الاسلام بعد ، فدعاهم ناصر لدخول الاسلام على مذهب الزيدية فاستجابوا وانتشر مذهب الزيدية هناك ، ولا يزال لهذا المذهب أتباع كثيرون حتى الآن فى اليمن .

والزيدية أقرب المذاهب الى أهل السنة وأقربهم الى الشيعة الحقيقتين لأنهم أجازوا خلافة أبى بكر وعمر ولم يطعنوا فيهما ، ولأنهم لم يدعوا ما ادعاه الامامية من أن الامامة خاصة لأولاد على من فاطمة ، بل أجازوا كونها فى سواهم اذا لم يقم هؤلاء بطلبها ، ولأنهم اشترطوا فى الامامة شروطا يوافقهم أهل السنة على أكثرها كالعلم والشجاعة . وكان **من نتيجة موقف الزيدية هذا أن ضعف فريقهم لأن الغلاة لم يرضوا عنه ، وكان من نتيجته بالتالى أن سلم مذهب الزيدية أكثر من غيره من الغلو لأن الغلاة انفضوا عنه فلم يلوثوه بالوضع الكثير والاختلاق .**

وهذه النتائج تحتاج الى مزيد من الايضاح : فلنسأل السؤال التالى : لماذا ضعف مذهب الزيدية ؟ وبالتالى لماذا سلم أكثر من غيره من الغلو والاختلاق ؟

للاجابة عن ذلك نعود فنتذكر ما سبق أن أوردناه من أن الشيعة كانت الموئل الذى يلجأ اليه أعداء الإسلام .... وتحت ستار الشيعة

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ١٣٩ .

ظهرت ضلالات وبدع كثيرة ، وكان من نتيجة ذلك أن بعد عن الشيعة المخلصون للاسلام المحبون له لأنهم لم يريدوا أن ينتموا الى طائفة تؤله عليا أو تكفر الصحابة ... وهكذا وقف زيد بين بين ، فلم يكن له أتباع من غير الشيعة لأنه شيعى على كل حال ، ولم يُرِدْ المخلصون للإسلام أن ينتموا لمذهب شيعى ان لم يكن قد فسد فقد يفسد فيما بعد ولم يكن للزيدية كذلك أتباع من الغلاة ، ويفسر لنا الطبرى سبب ذلك فيروى أن رءوس الشيعة اجتمعوا بزيد فقالوا له : ما قولك فى أبى بكر وعمر ؟ قال زيد : رحمهما الله وغفر لهما ، ما سمعت أحدا من أهل بيتى يتبرأ منهما أو يقول فيهما الا خيرا ... وان أشد ما أقوله عنهما انا كنا أحق بسلطان رسول الله ﷺ من الناس أجمعين ، وان القوم استأثروا علينا ودفعونا عنه ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفرا [1] ... ولم يرق ذلك الغلاة فتركوا زيدا وأدخلوا أنفسهم فى امامة غيره ، وهكذا قل أتباع زيد ، اذ لم يكن فيهم الغلاة ولا غير الشيعة ، ولم يبق حوله الا المعتدلون أو الشيعة الحقيقيون وهم قليلون . وهذا قلل أتباع زيد ولكنه حفظ مذهبه من الغلو .

ومن الأسباب التى أضعفت مذهب الزيدية وحفظته من الغلو أيضا ، أن زيدا اتجه الى الحرب وخاض غمارها ، ومدعو التشيع لم يكونوا محاربين قط ، انهم يريدون نشر أفكارهم ولا يريدون التضحية بدمائهم ، وكيف يضحون بدمائهم للدفاع عن تشيع لم يعتنقوه وانما ادعوه ، وهذا يفسر لنا كثيرا من أحداث التاريخ المتصلة بالشيعة : لماذا قالوا بالتقية ؟ ولماذا انفض أتباع على عنه ؟ ولماذا انفض أتباع الحسن عنه وهاجموه وسلبوا متاعه ولماذا انفض أهل الكوفة عن مناصرة الحسين وتركوه يقتل ؟ .. والاجابة واحدة هى أن هؤلاء الناس لم يكونوا شيعة ولا أنصارا وانما ادعوا التشيع لغرض آخر كما ذكرنا ، فهم لا يدينون بولاء ولا حب لآل البيت . ومن ثم عصوهم ، وأسلموهم ، وقتلوهم أحيانا .

وعلم زيد وشجاعته حفظا مذهب الزيدية من الغلو أيضا ، وذلك لأن

---

(١) تاريخ الأمم والملوك جـ ٥ ص ٤٩٨ .

زيدا يدعو لنفسه وكان يشرح أفكاره ويكتبها فلم يدع لدعاة السوء مجالا ، ولا فتح لهم الباب ليعبثوا فى دعوته ويشوهوا آراءه .

على أن مذهب الزيدية دخله الفساد أحيانا ، يقول الشهرستانى (١) ومالت الزيدية بعد ذلك عن القول بامامة المفضول ، وطعنت فى الصحابة طعن الامامية ، ويقول عند الكلام على الجارودية احدى فرق الزيدية : « زعموا أن النبى ﷺ نص على على رضى الله عنه بالوصف دون التسمية، بأنه الامام بعده ، والناس قصروا حيث لم يتعرفوا الوصف ، ولم يطلبوا الموصوف ، وانما نصبوا أبا بكر باختيارهم ، فكفروا بذلك ، وقد خالف أبو الجارود فى هذه المقالة إمامه زيد بن على فانه لم يعتقد هذا الاعتقاد » (٢) .

الاثنا عشرية :

الاثنا عشرية أشهر فرق الامامية وتتبعها ايران من الناحية الرسمية، ويتبعها كذلك أكثر شيعة العراق . والاثنا عشرية أقوى فرق الشيعة الموجودة الآن واذا أطلقت كلمة الشيعة فهم منها هذه الفرقة ، وهذه التسمية توحى بشىء ذى بال هو أن هذه الفرقة تكونت بعد منتصف القرن الثالث الهجرى أى بعد أن أصبح الأئمة اثنى عشر ، وبعد القول باختفاء محمد المهدى المنتظر سنة ٢٦٠ هـ .

والامامية أطول فرق الشيعة عمرا وأكثرها قوة ، وقد سميت هذه الفرق بالامامية لاهتمامهم بمسألة الإمام ، وسيأتى تفصيل ذلك ، والاثنا عشرية أشهر فرق الامامية وأكثرها أتباعا ، وقد أصيبت الاثنا عشرية بالآراء الضالة أكثر مما أصيبت الزيدية ، ودخلها من تعاليم مدعى التشيع نصيب كبير وذلك للأسباب الآتية :

(أولا) طال عمر الاثنى عشرية فطال اتصالها بطوائف مدعى التشيع

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ١٤٠ .
(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ١٤٠ .

الذين تتابعوا يجمعهم هدف واحد وان اختلف الزمن ، ذلك الهدف هو الكيد للاسلام وافساد تعاليمه •

(ثانيا) الأئمة الاثنا عشرية كانوا أميل الى السلم ، والذى يستعرض تاريخ ثورات الشيعة بعد الحسين يجدها لا تتصل تقريبا بهولاء الأئمة ، وانما كان اتصالها بزيد بن على ، وابنه يحيى ، وأولاد الحسن وغيرهم من آل البيت ، ويبدو أن السنة السلمية التى استنها على زين العابدين لما رآه من الأهوال عند مقتل أبيه وآل بيته ، قد عاشت فى أولاده فمال أكثرهم الى حياة الدعة ، وحياة السلم هذه هى الحياة المحببة لمدعى التشيع ، فهم كما سبق القول لا يحبون اراقة دمائهم لدعوة شيعية لا يؤمنون بها •

(ثالثا) بدأ الوضع باسم الأئمة منذ العهد الأول كما سبق القول ، واختلط الشيعة بمدعى التشيع وتعاونوا معهم فى بعض الأحيان ، وكانت النتيجة أن انسابت تعاليم مدعى التشيع بين الشيعة ، وبمرور الزمن ظهرت أجيال تلقت هذه التعاليم على أنها تعاليم شيعية حقيقية فدانوا بها وتحمسوا لها •

وعلى هذا اذا أردنا أن نكتب الآن مذهب الامامية الصافى قبل أن تمتد له يد الوضع وقبل أن تدخله تعاليم مدعى التشيع لو أردنا ذلك ما استطعنا ، لأن مذهب الإمامية أكثره موضوع أو كله ، فعناصره الهامة ليست شيعية على الاطلاق ، ومرجع هذا أن الامامة هى المشكلة الكبرى فى مذهب الامامية ولذلك سمى بها المذهب ، مع أن هذه المشكلة موضوعة كلها فليست من الاسلام فى شىء وقد أنكرها على رضى الله عنه نفسه ، يروى ابن عبد ربه أن عبد الله بن الكواء سأل عليا عما اذا كان الرسول عهد اليه فأجابه على : اللهم انى كنت أول من آمن به فلا أكون أول من كذب عليه ، لم يكن عندى عهد من رسول الله ﷺ ، ولو كان عندى

عهدٌ منه لما تركتُ أخا تيم وأخا عَدِى علـى منابرهـا (١) • وقد سبق أن اقتبسنا من الشهر ستانى وهو يتحدث عن أمام من أعظم الأئمة الاثنى عشرية وهو الامام جعفر الصادق فيقول : ما تعرض للامامة قط ولا نازع أحدا فى الخلافة قط (٢) • وسبق كذلك أن تحدثنا عن الزيدية ، ورأى زيد نحو الخلافة ، والشروط التى وضعها ، واقراره بصحة خلافة أبى بكر وعمر •• (٣) •

فاذا قال الامامية برأى جديد فى الامامة رشغلوا بها أنفسهم وجعلوها مركز اهتمامهم وتفكيرهم ، فهذا كله من وضع مدعى التشيع ، وقد بدأ ذلك بابن سبأ حيث كان « أول من أظهر القول بالنص بامامة على وتلاه أتباعه والذين سلكوا مسلكه فنظموا هذا القول وجمعوا له الأدلة من هنا ومن هناك •

والآن ما هو موقفنا من الامامية ؟

الجواب عن ذلك أن السابقين الذين سماهم المتأخرون « الأئمة » لم يقولوا بالامامة على النسق الذى قال به هؤلاء المتأخرون كما سبق القول ، وكثيرا ما بايعوا سواهم الخلافة ، فأول الأئمة هو على بن أبى طالب ، وقد بايع على أبا بكر وعمر وعثمان ، وبايع الحسن والحسين معاوية ، وقد بايع على زين العابدين يزيد ، ولم يكن هنـاك زمن هؤلاء حديث عن الامامة ، فلما مر الزمن ودخلت الترهات والأباطيل هـذا المذهب ظهر حديث الامامة ، فاذا تحدثنا عن الامامة فانما نتحدث عن انحراف هذا المذهب الشيعى ، انحرافه عن رأى علىّ ورأى الأئمة الأول الى الوضع السائد الآن •

---

(١) العقد الفريد جـ ٤ ص ٣٠٣ •
(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ١٣٧ •
(٣) انظر ما سبق أن أوردناه عن الزيدية •
(٤) الملل والنحل جـ ١ ص ١٥٥ •

الى أى حد انحرفت هذه الجماعة ؟ وما هو الوضع السائد الآن ؟ .

الجواب عن ذلك أن الانحراف كان بعيدا جدا ، أو قل كان انتقـالا لا انحرافا ، فأساسه الحديث عن الامامة ولم توجد الامامة بهـذا المعنى فى حديث الأئمة الأول ، أما الوضع الذى خلقه مدعو التشيع فهو مشكلة الامامة ، وأهم تصوير لها هو ما ذكره المجلسى فى كتابه « حياة القلوب » والمجلسى من العلماء المتأخرين ، عاصر الدولة الصفوية (من أواخر القرن ١٥ الى ١٧٣٧ م) التى اتخذت التشيع مذهبا رسميا لايران ، وفى كتاب « حياة القلوب » تفاصيل عن الامامة لا توجد فى سـواه ، والـكتاب يتألف من بابين : الأول فى ضرورة الامام والثانى يفسر آيات من القرآن يراها متصلة بالامامة ، وفصول الباب الأول تسعة هى :

١ — ضرورة الامامة وبيان أن الزمان لا يخلو من امام .

٢ — عصمة الأئمة .

٣ — الامامة بنص من الله والرسول ، وكل امام ينص على خلفه .

٤ — ضرورة الاعتراف بالامام .

٥ — انكار امام واحد كانكار الأئمة جميعا .

٦ — ضرورة اطاعة الامام .

٧ — الاهتداء لا يكون الا بامام .

٨ — الثقلان : القرآن وأهل البيت .

٩ — فى النص على الأئمة .

أما فصول الباب الثانى فاثنتان وأربعـون وكلها تفسـير لآيات يرى المجلسى أنها نزلت فى الامامة ، ويسير فى تفسيرها على المنهج الشـيعى بكثير من التكلف أحيانا ، ومن هذا الكتاب ومن سواه من المراجع نستطيع أن نبرز أهم عناصر مذهب الامامية عن الامامة ، وهى :

أولا . الامامة ليست من المصالح العامة التى تفوض الى نظر الأمة ، ويتعين القائم بتعيينهم ، بل هى ركن الدين وقاعدة الاسلام ولا يجوز لنبى اغفالها ولا تفويضها الى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الامام لهم ، وكل امام يعين خلفه (١) . وليس فى الدين والاسلام أمر أهم من تعيين الامام ، فاذا عينه كانت مفارقته للدنيا على اطمئنان قلب بأمر الأمة ، فانه انما بعث لرفع الخلاف وتقرير الوفاق ، فلا يجوز أن يفارق الأمة ويتركهم هملا يرى كل واحد منهم رأيا ، ويسلك كل واحد منهم طريقا لا يوافقه فى ذلك غيره ، بل يجب أن يعين شخصا هو المرجوع اليه ، وينص على واحد هو الموثوق به والمعول عليه (٢) .

ثانيا : ولما كان واجبا على النبى محمد أن يعين الامام الذى يقوم بأمر المسلمين بعده فانه قد فعل ، وعين عليا وكان ذلك نصا ظاهرا ، وتعيينا صادقا من غير تعريض بالوصف بل بتحديده تماما ، وقد تم ذلك عند غدير خم ، فان الرسول عندما وصل الى هذا المكان فى طريقه الى المدينة عائدا من حجة الوداع أمر بالدوحات فقممن وأمر مناديه فنادى : الصلاة جامعة . ثم قال عليه السلام : من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار ، اللهم قد بلغت (٣) ؟ (قالها ثلاثا) وقد تم ذلك التعيين بعد أن نزل قوله تعالى « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وان لم تفعل فما بلغت رسالتك ، والله يعصمك من الناس (٤) والمأمور بتبليغه على تفسيرهم هو تعيين على ، فلما تم التعيين نزل قوله تعالى « اليوم أكملت

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ١٦٤ .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ١٤٤ .

(٣) المرجع السابق ص ١٤٥ وهناك ادلة لهم مماثلة لهذا الدليل تجدها فى الشهرستانى وابن حزم ، وانظر قصة غدير خم فى الجزء الأول من مسند احمد (٨٤ ، ١١٨ ، ١٥٢) وفى عقيدة الشيعة لدوايت دونلدشن ص ٢٢ .

(٤) سورة المائدة الآية ٧٠ .

لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » (١) ، وكمال الدين وتمام النعمة بناء على تفسيرهم هو هذا التعيين .

ثالثا : تنحصر الامامة فى على وأبنائه من فاطمة : فهم أهل البيت والدوحة المباركة التى بها رضى الله عن الناس ، وليس لغير هؤلاء حق فى الإمامة حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

تلك هى العناصر الأساسية لمذهب الامامة ، وهناك عناصر أخرى ليست أساسية وانما تكميلية ، تسمى التعاليم وهى : العصمة والتقية والرجعة والمهدية ، ونتكلم عنها كلمة فيما يلى :

العصمة والتقية والرجعة والمهدية :

ويقصدون بالعصمة أن الأئمة معصومون من ارتكاب الصغائر والكبائر ولا يجوز عليهم خطأ ولا نسيان (٢) ، ويقصدون بالتقية ، أن يُظْهِرَ الانسان خلاف ما يُضْمِرُ ليحافظ على نفسه أو ماله أو عرضه،أما المهدية والرجعة فبينهما صلة ، ومعنى المهدية هى القول بامام مهدى منتظر يأتى للأرض فيملؤها عدلا بعد أن تملأ جورا ، وهذا المهدى هو الامام الثانى عشر الذى اختفى سنة ٢٦٠ هـ وسيرجع فيما بعد ، وبعضهم يقول برجعة على بن أبى طالب نفسه ، حدث عبد الله بن عباس قال : قرع اليوم على الباب رجلا لما وضعت ثيابى للظهيرة ، فقلت : ما أتى به فى مثل هذا الحين الا أمر مهم ، أدخلوه . فلما دخل قال : متى يبعث هذا الرجل ؟ قلت : أى رجل ، قال على بن أبى طالب . قلت : لا يبعث حتى يبعث الله مَنْ فى القبور ، قال : وانك لتقول بقول هذه الجهلة . قلت : أخرجوه عنى لعنه الله (٣) . وكان كثير عزة يثبت الغيبة والرجعة وربما المهدية أيضا لمحمد بن الحنفية وفى ذلك يقول :

---

(١) سورة المائدة الآية ٤ .

(٢) انظر تفاصيل كافية عن مبدأ العصمة فى عقيدة الشيعة ص ٢ وما بعدها .

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٢ ص ٤٥٨ .

الا أن الأئمـــــة من قـــــريش
ولاة الحـــق أربعـــة ســــواء

عـــلى والثـــــلاثة من بنيـــــه
هم الأســـباط ليس بهم خفـــــاء

فســـبط ســـبط ايمـــان وبـــر
وســـــبط غيبتـــــه كربـــــلاء

وســـــبط لا يـــذوق المـــــوت حتى
يقـــود الخيـــل يقـــدمه اللـــواء

تغيب لا يــــــرى فيهـــم زمـــانا
برضـــوى عنــــده عســـل وماء

وفى تحفة الزائرين للمجلسى وصف دقيق للصلة بين الامام الغائب وأتباعه فهو يظهر لبعضهم ويكاتب الآخرين ، ويتلقى رقاع أتباعه وينظر فيها ، ويذكر المجلسى أن المريد يكتب حاجته فى رقعة ويجعل عنوانها الى صاحب الزمان ويقفلها ويختمها ويلقيها فى البحر أو فى بئر عميقة فانهـــا تصل الى الامام (١) .

ولسنا فى حاجة للرد على هذه الأسس وتلك التعاليم ، فليست من الاسلام فى شىء ، وليست الا صدى لديانات ومذاهب أخرى غير الاسلام أشرنا اليها فيما ســبق (٢) ، وقد أنكرها جعفـــر الصـــادق وبرىء منهـــا وممن يقول بها (٣) .

وقد قلنا من قبل أن تأثر الاثنى عشرية بأفكار مدعى التشـــيع كان أكثر من تأثر الزيدية ، وأقل من تأثر الاسماعيلية ، وقـــد اتضح لنا من

---

(١) تحفة الزائرين ص ٢٩٦ .
(٢) انظر ما أوضحناه فى اول حديثنا عن الشيعة وانظر كذلك « آل محمد فى كربلاء » للأستاذ عمر ابو النصر ص ٥ — ٦ .
(٣) الشهر ستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ١١٧ .

الكلام عن الاثنى عشرية أنهم كانوا أكثر تأثرا من الزيدية ، فموضوع الامامة والعصمة والتقية والرجعة والمهدية كلها موضوعات غريبة على التفكير الاسلامى قال بها الاثنا عشرية ولم يقل الزيدية بها ، وسنرى فيما بعد أن الاثنى عشرية لم يصلوا فى تأثرهم الى حد تأثر الاسماعيلية ، فسنرى الاسماعيلية يقولون فى البارى : إننا لا نقول إنه موجود أو لا موجود ، ولا عالم ولا جاهل ، كما سنراهم يرون الصوم هو الامساك عن افشاء سر الامام وأن الحج هو زيارته : الى غير ذلك مما بلغ أقصى الحدود فى التأثر بالأفكار الهدامة .

بقيت كلمة تتصل بالزيدية والاثنى عشرية فى العهد الحاضر ، وهى أن الدراسات الحديثة والأبحاث العلمية كشفت اللثام عن كثير من هذه الأباطيل التى سردنا جزءا منها ، ومن أجل هذا نجد جماهير المثقفين التابعين لهذين المذهبين يقربون كثيرا من الشيعة الصحيحة ، وبالتالى يقربون من أهل السنة ، وكما قرب هؤلاء من أهل السنة فان أهل السنة كذلك قربوا منهم فبدءوا يدرسون فقههم ويقتبسون منه ، كما أخذوا جميعا يتبادلون الأفكار فيما يوحد أو يقرب بين طوائف المسلمين ، واذا كان هذا هو شأن المثقفين من الزيدية والاثنى عشرية ، فاننا نقرر مع الأسف أن غير المثقفين منهم لا يزالون فى ظلام حالك انحدر اليهم وبخاصة الى الاثنى عشرية من العصور السابقة ، ولا يزال موجودا حتى الآن ، وقد رأيت بنفسى صورا من هذا الظلام خلال العادات ، والتقاليد السائدة فى العراق وايران ابان زيارتى لهذين القطرين .

الاسماعيلية :

الاسماعيلية تنسب نفسها الى الامامية ، وتتفق مع الاثنى عشرية فى تحديد الأئمة الستة الأول من أئمة الاثنى عشرية ، وبعد جعفر الصادق يرون أن الامامة انتقلت لا الى ابنه موسى الكاظم كما يقول الاثنا عشرية، بل الى ابنه اسماعيل ، ولذلك يسمون الاسماعيلية .

ويختفى أئمة الاسماعيلية من الظهور بعد اسماعيل ولا يظهر الا دعاتهم ، ولذلك يسمى الأئمة هنا « الأئمة المستوزون » ثم يعودون للظهور حينما يقوى شأنهم فى شمالى افريقية سنة ٢٩٧ هـ (٩٠٩ م) ثم ينحدرون الى مصر فيكونون الدولة الفاطمية سنة ٣٥٦ هـ .

والاسماعيلية أكثر من الزيدية والاثنى عشرية تأثرا بضلالات مدعى التشيع لسبب واضح جدا هو استتارهم ، ففى فترة الاستتار وجد مدعو التشيع — وفيهم عناصر يهودية — الفرصة سانحة ليتسلطوا على أتباع هذا المذهب فينشروا بينهم ضلالاتهم ، فلما ظهر الاسماعيلية بعد ذلك كان مذهبهم مشوبا بكثير من الضلالات .

وأشهر ألقابهم الباطنية ، وانما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطنا ، ولكل تنزيل تأويلا ولهم ألقاب كثيرة تختلف باختلاف الجهات ، فبالعراق يسمون الباطنية والقرامطة والمزدكية ، وفى خراسان يسمون التعليمية والملاحدة . ويقولون : نحن اسماعيلية لأنا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الاسم وهذا الشخص (١) .

ومن الواضح أن الاسماعيلية انفصلوا عن الاثنى عشرية بعد جعفر، ولذلك فليس لهم ماض مستقل ، واذا كان أطهر الشيعة وأقربهم الى تفكير على رضى الله عنه هم قدماء الشيعة ، فان الاسماعيلية تأخر بهم العهد وبدءوا بعد ما انتشرت الضلالات وكثرت الأباطيل .

وبين أيدينا الآن « أربع رسائل اسماعيلية » كتبها أربعة من علية الدعاة الاسماعيليين ، ونشرها حديثا باحث اسماعيلى اسمه « عارف تامر » مقدما لها بمقدمة طويلة ، وهذه الرسائل كانت ضمن الذخيرة السرية للاسماعيلية ، ولم يسمح بنشرها الا فى العصر الحديث وبجراءة لم يتعودها الاسماعيليون ، وهى كما يقول الناشر « تغذى جمهور الراغبين

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ١ : ١٧٢ .

فى الاطلاع على الفلسفة الاسماعيلية » (١) وسنعتمد على هذه الرسائل — بالاضافة الى بعض مخطوطات وأبحاث وكتب أخرى — لتصوير المذهب الاسماعيلى .

وأول ما تبرزه هذه الرسائل هو مكانة الامام وهم يسمونه « القائم » أو « صاحب الزمان » ويعدونه فى أولى العزم من الأنبياء النطقاء وعدد الأنبياء النطقاء المشرعين عند الاسماعيلية سبعة ، هم آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد والقائم ، ويرون أن لكل نبى « أساسا » أى عمادا يعتمد عليه فى تبليغ رسالته ، والأسس عندهم سبعة : شيت لعيسى : وعلى لمحمد ، أما أساس « القائم » فيقول عنه الناشر « اننا لا يمكننا اذاعة اسمه حرصا على سرية المعتقدات » (٢) .

ولكل واحد من هؤلاء السبعة يوم من أيام الأسبوع فآدم صاحب يوم الأحد ، ونوح صاحب يوم الاثنين ، وابراهيم صاحب يوم الثلاثاء ، وموسى صاحب يوم الأربعاء ، وعيسى صاحب يوم الخميس ، ومحمد صاحب يوم الجمعة ، ثم يهتف الداعى الفاطمى أحمد حميد الله الكرمانى صاحب رسالة « أسبوع دور الستر » احدى رسائل هذه المجموعة قائلا عن صاحب يوم السبت : أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون ، قد جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ، واستقر الوقت لصاحب يوم السبت ، القائم فى الأرض مقام العقل فى عالمه ، محط رحال حملة النور فى سالف الدهور ، مقصد الراحة ، وعنده تكون الاستراحة ، ذو الكلمة المصونة ، والجوهرة المكنونة .

تأنس للخلق لكنه

تنزه عن كل لحم ودم

---

(١) عارف تامر : اربع رسائل اسماعيلية ص ١٩ .
(٢) عارف تامر : اربع رسائل اسماعيلية ص ٦٦ .

وعنـــه غـدا تظهـر المعجـــزات
ويظهـــر من أمـــره مـا كتـــم
وتمـــلأ بـــه الأرض عـــدلا كمـا
تمـــادى بهـــا قبـل جـور وظلم
وعمـــا قليـــل يزول العنـــاء
ويكمـــل دين بـــه قـــد ختم
وينجـــز وعـــد الـــه الســـماء
وتظهـــر أنـــواره للأمـــم (١)

وعن هذا القائم يقول شهاب الدين أبو فراس صاحب رسالة « مطامع الشموس فى معرفة النفوس » احدى رسائل هذه المجموعة أيضا ما يلى : « والامام علة المخترعات وحياة الكل ، وبه ترتيب الخلق والدين ، وهو موجود غير مفقود ، لا يدركه الزمان ولا يدخل تحت حوادث الأيام ، وهو نور سابح فى الملكوت الأول ، أبدع الله به الحدود الروحانيـــة ، واختـــرع الهياكل الجرمانية ، وخلق الأشخاص الانسانية فاذا فرغت مدته وحـــان وقته انتقل هذا الأمر الى شخص آخر من ذريته ، وهو الذى ينص عليه ويشير اليه ، فاعـــلم ذلك يا أخى وتأمله تجـــد مطلوبك وقصـــدك وســـبب نجـــاتك (٢) » .

ويقول شمس الدين بن أحمد بن يعقوب الطبى صـــاحب رسالة « الدستور ودعوة المؤمنين للحضور » ثالث رســـائل هـــذه المجموعة ما يلى عن صاحب الزمان : والصلاة والسلام والتحية والاكرام لذكرى مولانا امام الزمان ، نقطة دائرة الوجود والأديان ، وقبـــلة أهل الايمـــان ، والطريق الواضح للجنان ، والثابت وجوده بالحجج والبرهان ، حقيقـــة الحقائق ، نهاية الطرائق ، وغاية مقصد الخلائق ، وعلة وجود الســـابق

(١) المرجع السابق ص ١١ .
(٢) عارف تامر : أربع رسائل اسماعيلية ص ٩٩ .

واللاحق • حبل الله المتين ، ونوره المبين ، وحقه اليقين وكتابه المستبين ، وظله الممدود ، وحوضه المورود ، ولوائه المعقود (١) •

والعمل من غير معرفة الامام وهديه لا يفيد :

ولولا الدليل واحسانه
لكانت لطائفنا فى العدم (٢)

والصلاة فى الحقيقة هى للأئمة ، ومن طبيعتهم أن يظهروا أحيانا وأن يستتروا أحيانا أخرى :

وهم القصد فى الصلاة فلولا
ذكرهم لم يكن عشاء وظهر

قبلة العالمين فى كل دور
ولهم فى الورى ظهور وستر (٣)

ومن الصفات التى يضفونها على الأئمة ما ذكره عامر البصرى فى الرسالة الرابعة من هذه المجموعة وعنوانها « القصيدة التائية » ونقتطف منها الأبيات التالية منبهين الى ما فى الشعر من ركاكة وأخطاء عروضية ونحوية :

بكل زمان فرد ذات بمظهر
بشكل ورسم فيه سر الامامة

يروه كمثل الجنس منهم مدانيا
ولكن تدانيه الى الجنس رحمة

---

(١) المرجع السابق ص ٥٥ •
(٢) المرجع السابق ص ٦١ •
(٣) المرجع السابق ص ٢٥ -

لـه الـكون طوعـا والزمـان بأمره
وليس سـواه ظـاهرا بالخليقة

هو الحـق والتحقيق فى كـل مظهـر
وفى كـل عصر يسـتجد بصـورة (١)

تلك صور من انحرافات الاسماعيلية ، ولكن هذه الانحرافات تصل الى قمتها فى مسألة التأويلات ، وقد وضحتها رسالة « الدستور ، ودعوة المؤمنين للحضور » للداعى الأجل شمس الدين بن يعقـوب الطبى وهى احدى رسائل هذه المجموعة ، ولعل هذه الرسالة خير مرجع لايضـاح تأويلات الاسماعيلية .

ويقول مؤلف هذه الرسـالة : اعتصمت بذى العـزة والجبروت ، وتحصنت بمالك الملك والملكوت ، وتوكلت على الحى الذى لا يموت ، الهنا واله مبادئنا ، وأعترف ألا ظاهر الا وله باطن ، ولا صورة الا ولها معنى كامل ، ولا قشر الا له لب ، ولا مدينة الا ولها باب ، ولا نور الا ولـه حجاب ، ولا شريعة الا ولها طريقة ، ولا طريقة الا ولها حقيقة ولا حقيقة الا ولها تنزيل ، ولا تنزيل الا وله تأويل (٢) .

وبعد هذه المقدمة التى يثبت بها المؤلف أن لكل ظاهر باطنا ولـكل تنزيل تأويلا ، يسرد مجموعة فذة من التأويلات العجيبة نقتبس منهـا بعض نماذج !

الله : تأويل الكلمة

النبوة والرسالة : ظهور الكلمة بالحجاب وتنصيب الدليل والمرشد والباب الى منهج الحق وطريق الصواب .

---

(١) عارف تامر : اربع رسائل اسماعيلية ص ٩٢ .
(٢) المرجع السابق ص ١١١ .

القيـــامة	: قيام النفوس الجزئيــة المفارقة للمــدركات الحسية والآلات الجسدانية ، وقيام الشرائع والأديان بظهور صاحب الزمان •
الحــــلال	: الواجب اظهاره واعلانه •
الحـــرام	: الواجب ستره وكتمانه •
الطــــاعة	: الدخول فى عهد امام الزمان •
المعصـــية	: الميل الى أئمة الضلال والعدوان •
الصـــلاة	: صلة الداعى وموالاة الامام •
الزكـــاة	: ايصال الحكمة الى المستحق وارشاد الطالب الى منهج الحق •
الصــوم	: الامساك عن افشاء سر الامام •
الحج	: القصد الى صحبة الســادة الأئمــة من آل البيت •
الاحرام	: الخروج من مذهب الأضداد •
النحر والحلق	: ازالة الباطل لاظهار الحق •
التماس الحجر الأسود	: قبول الدعوة من الناطق •
الربـا	: الرغبة فى الاكثــار وطلب الحطام بافشــــاء الأسرار •
الفحشاء	: ذكر المحامد للطغاة المتمردين ونسبة المحاسن لأهل العناد المعتدين •
البغى	: تقديم المفضول على الفاضل •
الاحسان	: العلم باحاطة الامام وقدرته على ما بطن وظهر وتجلى واستتر •

ابناء ذى القربى : محبة الرسول وولاية أولاد البتول وتفضيل الهاشميين والقول بامامة الأئمة الفاطميين .

الظلم : وضع الامامة فى غير آل محمد (١) .

هذا طرف من التأويلات التى أوردها هذا الداعى ، وبناء على مذهب الاسماعيلية تسقط العبادة عن عرف هذه التأويلات ، ويحتج الاسماعيلية لذلك بقوله تعالى « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » (٢) أى المعرفة التامة والتأويل (٣) .

ويختتم هذا الداعى سلسلة التأويلات الطويلة التى أوردها بقوله : هذا تأويل اعتقادى فى الدين ، وخلاصة اجتهادى فى تحصيل علم اليقين وهو دين الرسول الكريم ، وملة أبناء ابراهيم الخليل ، ومذهب النبأ العظيم ، وعقيدة أهل البيت القويم ، فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ، ان الله سميع عليم (٤) .

ويقول الشهرستانى ان الاسماعيلية خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة ، وصنفوا كتبهم على هذا المنهاج ، فقالوا فى البارى جل وعلا : انا لا نقول هو موجود ولا موجود ، ولا عالم ولا جاهل ، ولا قادر ولا عاجز (٥) .

وينسب للاسماعيلية الحسن بن محمد بن الصباح صاحب قلعة « الموت » وقد اشتهر هو واتباعه بالاغتيال والفتك ، وكانت تعاليمه ذات درجات متفاوتة تبدأ بالتشكيك وتنتهى بالكفر والتقرب الى الله بقتل المسلمين .

(١) عارف تامر : أربع رسائل اسماعيلية ص ١٢ — ١٧ والملل والنحل للشهرستانى القسم الأول ص ١٧٢ .
(٢) سورة الحجر الآية ٩٩ .
(٣) محمود الخشيشى : الفرق الاسلامية ص ٦٠ .
(٤) أربع رسائل اسماعيلية ص ١٧ .
(٥) الملل والنحل جـ ١ ص ١٧٢ .

ومن الواضح أن فرقة تسير على هذا الوضع ليست من الاسلام فى شىء ، ولا تنبع مبادئها من روح الاسلام ، وليس لها من التشـيع الا الاسم الذى ادعاه أتباعها ليستروا به هذه الضلالات (١) •

بقى أن نقول كلمة هامة نفرق بها بين الفاطمية وهم شـعبة من الإسماعيلية وبين الإسماعيلية ، وتلك الكلمة لا تتصـل بالنسب فذلك أمـر ندعه الآن لنتاوله بالحديث عند الكلام عن الفاطميين فى الجزء الرابـع من هذا الموسوعة ، ولكنها تتصل بالمبادىء ، فقد كان الاسماعيلية أميـل للزيف والضلال ، فلما تولدت عنها الدولة الفاطمية ، وظهرت هذه الأسرة للنور بعد أن عاش الاسماعيلية فى الظلام عشرات السنين ، واسـتطاعت الدولة الفاطمية أن تحكم مصر ، لـما تم ذلك اضطر الفاطميـون أن يقللوا من غلوائهم بعض الشىء ليضمنوا ولاء النـاس لهم ، وليستطيعوا أن ينالوا لونا من الاستقرار ، فلم تعد الصلاة موالاة الامام ، ولم يعد الحج زيارته ، ولا صار الصوم الامساك على افشاء سره ، وانما اختفى هـذا التأويل ، وظهرت هذه العبادات على حقيقتها كما يراها المسلمون ، ولعل الفاطميين قصدوا بذلك أن يقابلوا المصريين بمبادىء يمـكن نشرها ، اذ وضح أنه من غير الممكن أن تعيش فى النور تلك التعاليم التى ولدت فى الظلام ، وأنه من غير الممكن كذلك أن تدين جماهير المصريين والسوريين لأفكار الاسماعيلية ، وكان ذلك أشبه بعصـابات البرابرة والتتـار التى هبطت تريد محق الحضارات ولكن الحضارات تغلبت عليها وأخضعتها لها ان لم يكن تماما فبعض الشىء • ويتضح ذلك كل الوضوح من مطالعـة أهم المصادر الاسـماعيلية التى دونت فى العهد الفـاطمى مثـل دعائم الاسلام ، وتأويل دعائم الاسـلام ، والمجـالس المؤيدية ، والمجـالس المستنصرية والمجالس والمسامرات ، فان ما فى هذه المراجع ان بعد عن آراء المسلمين فان الشقة ليست واسـعة • وفيمـا يلى نموذجان من هـذه المصـادر :

---

(١) اقرأ : Prof. B Lewis : The Origin of ismailism

١ — من المجلس العاشر من الجزء الرابع من تأويل دعائم الاسلام .

(درس من داعى الدعاة للدعاة)

قال النعمان داعى الدعاة : قال رسول الله ﷺ صلوا صفوفكم وحاذوا بين مناكبكم فتعديل الصفوف وسد ما فيها من الفرج من واجب الصلاة ، ومثل ذلك فى الباطن اعتدال أهل الدرجات فى دعوة الحق على درجاتهم وحدودهم التى حددت لهم ، لا يتجاوز أحد منهم حده الى غيره ، ومن رأى منهم خللا فليجتهد فى سده (١) .

٢ — من المجلس التاسع من المائة الثانية من المجالس المؤيد به .

(درس للعامة)

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله والصلاة والسلام على رسوله محمد وعلى أخيه وابن عمه على بن أبى طالب البرزخ بين البحرين : العذب الفرات والملح الأجاج ، وعلى الأئمة من ذريته هداة من ذرأ الله من خلقه والمتمين كلمة عدله وصدقه ، أيها المؤمنون صلوا ما أمر الله به أن يوصل بقوله « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » (٢) ، فأولوا الأمر هم الأئمة (٣) .

ومن الواضح أنه ليس معنى هذا اختفاء المذهب الاسماعيلى فى عهد الفاطميين ، ولكن المقصود هو قربه من الاعتدال وتجاوزه عن الضلالات الصارخة التى قال بها أكثر الاسماعيلية . وقد بقيت مبادىء الاسماعيلية يدعى لها فى شىء من الخفاء كما حدث فى رسالة حميد الدين بن عبد الله الكرمانى داعى الحاكم بأمر الله ، كما ترك لشعراء الفاطميين أن يعلنوا عن هذه المبادىء فى شعرهم ، ولم يكن الشعراء يلاقون الحرج الذى

---

(١) المجلس كله فى تأويل دعائم الاسلام ١٧٢ ب — ١٧٥ ب .
(٢) سورة النساء الآية ٥٩ .
(٣) المجلس كله فى المجالس المؤيدية وجه الورقة ١٩ الى ظهر الورقة ٢١ .

يلاقيه العلماء ، فالعلماء بطبيعتهم أكثر تحفظا من الشعراء ، ثم ان العلماء يلقون دروسهم الى طلاب لهم جانب ثقافى ولهم صلة بالتفكير الاسلامى ، ولا شك أنهم سينفرون من هذه الدراسات لو شطت وبالغت فى الغلو ، ولكن الشعراء يلقون شعرهم الى العامة وليس للعامة ثقافة الطلاب بطبيعة الحال .

أضف الى ذلك أن من طبيعة الشعر المبالغة بل الكذب أحيانا ، وليس ذلك من طبيعة العلم ، فالشعر يبنى على الخيال وأعذبه أكذبه كما يقولون ، أما العلم فيبنى على الحقائق ، وطبيعته الدقة والصدق ، ومن النماذج الشعرية التى حملت بعض تعاليم الاسماعيلية قول ابن هانىء عن الخليفة الفاطمى :

ولله علم ليس يحجب دونكم
ولكنه عن سائر الناس محجوب

حل برقادة المسيح
حل بها آدم ونوح

حل بها الله ذو المعالى
وكل شىء سواه ريح

ما أجزل الله ذخرى قبل رؤيته
ولا انتفعت بايمان وتوحيد (١)

وقول الأمير تميم يمدح الخليفة :

يا ابن الأئمة والهادين متصلا
بصفوة الله أهل الوحى والسور

---

(١) انظر ديوان ابن هانىء ص ٧ و ٢٦ و ٣٠ .

ما أنت دون ملوك العـــالمين سوى
روح من القـــدس فى جســم من البشر (١)

ومن شعر المؤيد فى الدين قوله يمدح الخليفة أيضا :

فوجهــــك وجـــه الاله المنـــير
ونـــورك من نـــوره كالحجـــاب
يـــداك يـــدا الله مبســـوطتان
وأنت له الجنب دون ارتيــــاب
وأنت المثيب لأهــــل الثـــواب
وأنت المعـــاقب أهـــل العقـــاب (٢)

واختفت الاسماعيلية مرة أخرى من عالم النور بسقوط الفـاطميين سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) وعادت الاسماعيلية الى عالم الظلام ، وطـال اختفاؤها هذه المرة ، وظرت بالعالم الاسلامى يقظة فى عهد السـلاجقة والأيوبيين وساد مذهب أهل السنة ، وظن الناس أن الاسماعيلية اختفت الى الأبد ولكن ظهر أن للاسماعيلية قوى لا تزال تتحرك وتعمـل ، ففى العصر الحديث جهد الاستعمار الأوربى ليجد أسلحة يقاوم بها الاسـلام ويسيطر على المسلمين ، ويبدو أن الاسماعيلية كانوا أحد هذه الأسـلحة فاذا بامام اسماعيلى يظهر من جديد ، يساعد الانجليز ويساعده الانجليز يتيح له الانجليز أن ينشر مذهبه بين مسلمى مستعمراتهم ، ويضمن لهم هو أن يخضع أتباعه لهم ، وأشهر أئمتهم المحدثين أغاخان ، وهـو من نسل الحسن بن محمد بن الصباح سالف الذكر ، وكان صاحب خيل وغنى وأرستقراطية رفيعة ، ولم يكن أغاخان عند أتباعه موضع نقد ، وقد مات حديثا بعد أن عين حفيده الشاب الأمريكى ليكون اماما لهـذه الطائفة ، وهذا الامام هو ابن على خان الشهير ، وهو سر أبيه وجده .

---

(١) ديوان الأمير تميم : نسخة خطية بمكتبة المرحوم الأستاذ الدكتـور كامل حسين ص ٥١ .
(٢) ديوان المؤيد فى الدين ص ٢٣١ — ٢٣٢ .

وعن طريق الدعوة الاسماعيلية الجديدة انتشر الاسلام فى افريقية ويوجد كثير من الاسماعيلية فى الهند وقلة منهم فى سوريا •

واذ كنا من قبل قد قلنا أن الدراسات الحديثة قربت بين الاثنى عشرية والزيدية وبين أهل السنة ، فان الاسماعيلية الحديثة ظلت فى طريقها لم تلتق بأخواتها ولم تتعاون مع هذه الفرق فى حقل الدراسات الاسلامية أو فى حقل المستقبل السياسى للأمم الاسلامية حتى الآن ، ولكنى على يقين من أن يوما سريعا سيجىء حيث ينجذب كثيرون من رجال هذه الطائفة الى رحبة الاسلام الصحيح ، أو قل ان ما وصل لهم هو الاسلام المُوجَّه وجهة معينة خاطئة ، أما العقيدة الاسلامية التى وصلتهم فستبقى وستمتد جذورها وتورق أغصانها ، وأما هذا التوجيه الخاطىء فسينمحى ويزول ، وما أجمل أن يحطم هؤلاء الاسماعيليون هذا الحاجز الصناعى الذى يحول بينهم وبين اخوانهم المسلمين ، وأن يلتقوا بهم متعاونين متساندين لخدمة الدين الذى يجمعهم والعقيدة التى تضم شملهم ، وما أجمل أن يعرف هؤلاء الاسماعيليون أصدقاءهم الحقيقيين وأعداءهم الحقيقيين ، وأن يتعاون الكل لما فيه مصلحة الجميع ، ذلك يوم لا شك آت وأغلب الظن أنه قريب •

على أن الوصول الى هذا يحتاج الى جهد من جانب المسلمين ليقدموا دعوة الاسلام الصافية الى هؤلاء الذين يحاول قادتهم أن يضلوهم ، وقد جمعتنى الظروف وأنا طالب بجامعة كمبردج بمهندس من مسلمى افريقية الذين ينتمون الى طائفة الاسماعيلية ، وتحدثنا عدة مرات عن الاسلام ودعوته وأهدافه ، وأشهد لقد كانت استجابته أسرع مما توقعت، وسرعان ما رأيته مسلما فقط بعد أن كان مسلما اسماعيليا ، ولقد كان فرحى بهذا الانتقال عظيما ، ولكن فرحه كان أعظم ، وسرعان ما أصبح الأغاخان جديرا بالنقد والنقد المرير ، بعد أن كان مقدسا لا يسأل عما يفعل ، ولقد وعد الصديق المهندس أن ينشر هذه الدعوة بين آله ومواطنيه، وأرجو أن يكون قد فعل ، وان كانت حالته وثقافته الدينية قد لا تساعدانه على الوقوف أمام دعاة الاسماعيلية وما فى أيديهم من أسلحة مالية وجدلية •

ثورات الشيعة

ثورات الشيعة فى خلال العهد الأموى كانت ثورات متصلة متشابهة البواعث متشابهة الأهداف ، فبواعثها كراهية الأمويين ، وأهدافها اسقاطهم ، وحركات الشيعة الثورية وثيقة الصلة بحركات الشيعة الفكرية، فقد انضم مدعو التشيع للشيعة فى تفكيرهم فأفسدوا أفكارهم كما سبق القول ، وكذلك انضم مدعو التشيع للشيعة فى ثوراتهم فأفسدوا خططهم ، فالباحث المدقق يرى أن هدف مدعى التشيع فى ثوراتهم لم يكن فقط اسقاط الأمويين بل اضعاف المسلمين جميعا وتقليم أظافرهم ، ومن أجل ذلك كانوا ينهزمون أو يصطنعون الهزيمة ، وهم من أجل ذلك أحيانا يقتلون زعيمهم الشيعى بأنفسهم ، يكونون معه ويدفعونه للثورة فاذا استجاب انقلبوا عليه وقتلوه ، وقد حاول الفرزدق الشاعر المشهور أن يعبر عن ذلك للحسين فقال له عن أهل الكوفة : « قلوبهم معك وسيوفهم عليك » (١) ونقول للفرزدق إن قلوبهم كانت كسيوفهم ليست مع الحسين ولا مع المسلمين ، وبتلك السيوف قُتِلَ بعضُ الشيعة وكبارُهم .

لقد كان أهل الكوفة يستجيبون لكل نداء للثورة حتى ليجد الباحث ثورات متصلة دون أن يجد لها سببا معقولا ، كأن الثورات أصبحت هدفا لذاتها ، واضطراب الأمن أصبح مقصودا لذاته ، وسنجول جولة نذكر فيها ثورات الشيعة فى العهد الأموى منبهين أننا لن نكرر ذكر الشيعة ومدعى التشيع فذلك أساس حديثنا وهو مقصودنا ، ذكرناه أو اكتفينا بكلمة الشيعة عن هذا التعبير الطويل .

الحسين بن على :

ذكرنا سابقا أن الحسين بن على كان ضمن القلائل الذين لم يبايعوا

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٩٠ .

ليزيد في حياة معاوية ، ولذلك وجد الحسين نفسه في حل من الخروج على يزيد بعد وفاة معاوية ، وقصة خروج الحسين ، ودعوة أهل الكوفة له ، وارساله ابن عمه مسلم بن عقيل وما تلا ذلك حتى مقتل الحسين ، قصة تذكرها المراجع الكثيرة التي بأيدينا بتفصيل كامل لا يدع حركة ولا يترك همسة دون تدوين (١) ، وسنوجز ذلك من مجموعة هذه الكتب .

تحركات الحسين عقب وفاة معاوية :

كان الحسين بالمدينة عند وفاة معاوية ، وكان أهم ما يريده يزيد أن تتم له بيعة الحسين ، فهو زعيم المعارضين غير مدافع ، فأرسل الى والي المدينة يطلب منه أخذ البيعة له من الحسين وصحبه ، وكان الوالي هو الوليد بن عتبة بن أبي سفيان (٢) ، فاستدعى الوليد الحسين وطلب منه البيعة،فقال له الحسين : أَخِّرْني وارفق . فأخره فخرج الحسين الى مكة من ليلته ومعه نساؤه وأهل بيته (٣) ، وفي مكة تلقى الحسين رسائل متعددة من أهل الكوفة يدعونه للسير اليهم ويعدونه بالبيعة له ، ومن أهم هذه الكتب كتاب من سليمان بن صرد ورفاعة بن شداد وشيعتهما من أهل الكوفة ، ونصه هو :

للحسين بن علي من سليمان بن صرد ورفاعة بن شداد وشيعتهما من المؤمنين المسلمين من أهل الكوفة . أما بعد فالحمد لله الذي قصم عدوك الجبار العنيد الذي اعتدى على هذه الأمة فانتزعها حقوقها ، وغصبها أمورها ، وغلبها على فيئها ، وتأمّر عليها على غير رضىً منها ،

---

(١) يعتبر الطبري من اهم هذه المراجع وقد ذكر هذه القصة في أكثر من مائة صفحة (انظر الجزء الرابع ص ٢٥٧ — ٣٦٠) .

(٢) هذه رواية الطبري ج ٤ ص ٢٥٧ ، ويقول ابن قتيبة ان والي المدينة انذاك كان خالد بن الحكم (انظر الامامة والسياسة ج ١ ص ١٩٥) .

(٣) عمر ابو النصر : ال محمد في كربلاء ص ٦٣ .

ثم قتل خيارها واستبقى شرارها ، فبعدا له كما بعدت ثمود ، انه ليس علينا امام ، فاقدم علينا لعل الله يجمعنا بك على الهدى ، فان النعمان ابن بشير فى قصر الامارة ، ولسنا نجتمع معه فى جمعة ولا نخرج معه إلى عيد ، ولو قد بلغنا مخرجك أخرجناه من الكوفة وألحقناه بالشام (١)٠

وتلقى الحسين خطابات أخرى كثيرة بهذا المعنى من جماعات الكوفة بلغت عدة مئات ، ومن هذه الخطابات خطاب يقول له : ان معك مائة ألف كاملى العدة والسلاح (٢) ، فاختار الحسين مسلم بن عقيل بن أبى طالب وقال له : سر الى الكوفة فانظر ما كتبوا به الى فان كان حقا خرجنا اليهم ، فخرج مسلم حتى أتى الكوفة فالتف حوله الناس وبايعوه للحسين وظهر له النصر ، فأرسل للحسين بذلك وطلب منه الحضور ٠

وأدرك يزيد أن الكوفة لابد أن تؤخذ بالشدة ، وأن النعمان بن بشير لا يصلح لقيادة الكوفة فى ذلك الوقت الخطير ، فعزله وولى عليها رجلا باع دينه بدنياه ذلك هو عبيد الله بن زياد والى البصرة الذى ضم له الخليفة الكوفة فأصبح بذلك أمير البلدين ، وهى ثقة تدفعه أن يرتكب الصعاب ليثبت أنه بذلك جدير ٠

وسار عبيد الله الى الكوفة ٠ وسارع يطلب مسلم بن عقيل ، وسرعان ما وجد مسلم نفسه وحيدا وانفضت من حوله الآلاف الاثنا عشر التى بايعته منذ أيام ، حتى ليروى الطبرى أنه لم يجد مأوى يأوى اليه ، فلجأ الى بيت هانىء بن عروة أحد زعماء الكوفة يطلب الحماية ، وعرف عبيد الله ذلك فأرسل إلى هانىء فجاءه فقبض عليه ، وألقى القبض على مسلم ، وجىء به أيضا الى عبيد الله دون أن ينصره أحد ، وفى القصر قُتِلَ مسلم وأُلقِىَ جثمانه الى الناس ، وأما هانىء فسُحِبَ الى الكناسة حيث قُتِلَ هناك وصلب (٣) ٠

---

(١) الامامة والسياسة ج ٢ ص ٣ والطبرى ٤ : ٢٦١ ٠
(٢) الطبرى ج ٤ ص ٢٩٤ ٠
(٣) الطبرى ج ٤ ص ٢٦٠ ٠

وفى تلك الأثناء كان الحسين يفكر فى اللحاق بمسلم ولم يكن يعلم ما جرى له ، فكان الحسين يستشير الناس فيشيرون عليه ، وكان من الناس من يقدم مشورته ونصحه دون أن يستشار ، وظهر اتجاهان يمثل عبد الله بن الزبير أحدهما ويمثل عبد الله بن العباس الاتجاه الثانى ، فقد كان ابن الزبير يدرك أن أهل الحجاز لا يبايعون له ولا يتابعونه أبدا ما دام الحسين بينهم ، فان الحسين أعظم فى أعينهم وأنفسهم منه وأطوع فى الناس (١) ، ولذلك جاء ابن الزبير الى الحسين فحدثه ساعة وقال له : ما أدرى ما تَرْكُنا هؤلاء القوم (بنى أمية) وكفّنا عنهم ونحن أبناء المهاجرين وولاة هذا الأمر دونهم ، خبرنى ما تريد أن تصنع ؟ فقال الحسين : والله لقد حدثت نفسى باتيان الكوفة ، ولقد كتب الى شيعتى بها وأشراف أهلها . فقال ابن الزبير : أما لو كان لى بها مثل شيعتك ماعدلت بها . وكان الحسين يدرك أن ابن الزبير يخدعه ويدفعه للخروج ليخلو له الجو ، ولذلك قال الحسين بعد خروج ابن الزبير : ان هذا ليس شىء يؤتاه من الدنيا أحب اليه من أن أخرج من الحجاز الى العراق (٢) .

أما ابن عباس فقد هتف بالحسين قائلا : ان أهل العراق قوم غدر فلا تقربنهم ، أقم بهذا البلد فانك سيد أهل الحجاز ولولا أن يرزأ بى أو بك لتشبثت بيدى فى رأسك . قال ابن عباس : ولكن الحسين أجابنى بقوله : لان أقتل بمكان كذا وكذا أحب الى من أن تستحل حرمة مكة بى . فكان ذلك الذى سلا نفسى عنه (٣) وحينئذ قلت له : فان أبيت الا الخروج فسر الى اليمن فان فيها حصونا وشعابا،وهى أرض عريضة طويلة ، ولأبيك بها شيعة وأنت عن بنى أمية فى عزلة ، ومن هناك تكتب الى الناس وتبث دعاتك . فقال الحسين : يا ابن عم . أنى والله أعلم أنك ناصح مشفق ، ولكنى قد أزمعت على السير للكوفة . قال ابن عباس : فان كنت سائرا فلا تسر بنسائك وصبيتك ، فوالله انى لخائف أن تقتل كما قتل عثمان

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٦١ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٨٨ وعقيدة الشيعة ص ٩٦ .
(٣) الأزرقى اخبار مكة ٣٦١ .

ونساؤه وولده ينظرون اليه ، ولقد أقررت عين ابن الزبير بتخليتك اياه والحجاز ، ثم خرج ابن عباس فمر بابن الزبير فقال : قرت عينك يا ابن الزبير (١) •

رحلة الحسين :

وأهمل الحسين هذه النصائح وخرج فى أخريات سنة ٦٠ هـ بأسرته ونسائه وأطفاله وخدمه وقليل من مريديه وكان عددهم اثنين وتسعين ، ويقول Wellhausen انه مما هو جدير بالاعتبار أن الأنصار والقرشيين تخلفوا عن الحسين فلم يخرج من المدينة واحد منهم معه ، ولم يكن منهم بين شيعة الكوفة الا أفراد قلائل جدا (٢) وعلى كل حال فان الحسين قد اتجه بهذه الجماعة الصغيرة الى الكوفة دون أن يعرف ما جرى لمسلم •

وفى الطريق قابله الفرزدق الشاعر سالف الذكر قادماً من الكوفة فسأله الحسين : بيّن لنا نبأ الناس خلفك • فأجاب الفرزدق : من الخبير سألت ، قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية ، والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء • ويبدو أن الحسين نسى صدر هذا الكلام وتذكر عجزه فعلق عليه بقوله : صدقت ، لله الأمر والله يفعل ما يشاء ، وكل يوم ربنا فى شأن ••• ثم حرك الحسين راحلته وواصل سيره (٣) •

والتقى الحسين عند ماء من مياه العرب بزعيم عربى اسمه عبد الله ابن مطيع العدوى ، ويبدو من كلامه حكمته وبعد نظره ، فقال هذا للحسين : أذكرك الله وحرمة الاسلام أن تنتهك ، أنشدك الله فى حرمة رسول الله ، أنشدك الله فى حرمة العرب ، فو الله لئن طلبت ما فى يد بنى أمية ليقتلنك ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحداً أبداً ، لا تأت الكوفة ولا تتعرض لبنى أمية •

ولكن الحسين أبى أن يسمع له ومضى (٤) •

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ٣٢٨٨ وعقيدة الشيعة ص ٩٥ .
(٢) Al Khawarig and Al Shiah p. 173.
(٣) الطبرى جـ ٤ ص ٢٩٩ والعقد الفرية جـ ٤ ص ٣٨٤ .
(٤) الطبرى جـ ٤ ص ٢٩٨ .

وسار الحسين مرحلة أخرى حيث رأى رجلا عائداً من الكوفة اسمه بكير بن ثعلبة الأسدى ، وكان من مريدى الحسين رجلان أسدنيان أيضا فالتقيا ببكير وسألاه عن حال الكوفة فقال لهما إنه لم يبرح الكوفة حتى قتل مسلم بن عقيل وهانىء بن عروة ، وأنه رآهما بنفسه يُجَرّان فى السوق بأرجلهما • ووضح الأسدى لقريبيه أن أشراف الناس بالكوفة قد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم ، يستمال بالمال ودهم وتستخلص به نصيحتهم فسارع هذان المريدان الى الحسين وأخبراه الخبر ، وقالا له : ننشدك الله فى نفسك وآل بيتك الا انصرفت من مكانك هذا ، فانه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة ، بل نتخوف أن تكون الكوفة عليك ، ولكن بنى عقيل قالوا : والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا أو نذوق ما ذاق أخونا (١) ، فقال الحسين لأتباعه : من أحب منكم الانصراف فلينصرف ليس عليه منا ذمام • فتفرق الناس عنه يميناً وشمالا وبخاصة أولئك الذين انضموا اليه فى أثناء رحلته ولم يبق معه الا أصحابه الذين جاءوا من المدينة وأفراد قليلون غيرهم(٢)•

ودخلت سنة احدى وستين ، ودخل معها الخطر ، وأحدق هذا الخطر بالحسين وبجماعته الصغيرة ، فان عبيد الله بن زياد لما استقر له الأمر بالكوفة وانتهى من مسلم وهانىء ، وعرف أن الحسين فى طريقه الى الكوفة، بعث الحصين بن تميم على رأس جيش كبير وأمره أن ينزل القادسية وأن يضع المسالح ، ويقدم الحر بن يزيد التميمى بين يديه فى ألف من رجاله ليرتادوا له الطريق ، وصدرت الأوامر صريحة بأن يكون الحسين بين أمرين : أن يستسلم ويسلم نفسه الى ابن زياد ، أو يقاتل •

وفى مكان يقال له ذو حسم التقى الحسين بالحر بن يزيد ، والعجيب أن الصلاة كانت تحضر فيؤم الحسين رجاله ورجال خصمه ، بل أكثر من ذلك تركت للحسين فرصة أكثر من مرة ليخطب رجال الحر ويحثهم على الثورة على حكم بنى أمية (٣) •

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ٢٩٩ — ٣٠٠ •

(٢) Al Khawarig and al Shiah p. 170.

(٣) انظر الطبرى جـ ٤ ص ٣٠٢ وما بعدها •

وعندما أحس الحسين بالخطر ، وأحدقت به سيوف الحر بدأ يفكر فى الانصراف بأصحابه،ولكن الانصراف لم يكن له من سبيل،فقد قال له الحر : أُمِرْنا إذا نحن لقيناك ألا نفارقك حتى نُقْدِمَك على عبيد الله بن زياد . فقال له الحسين : الموت أدنى اليك من ذلك . ثم اقترح الحر على الحسين أن الحر:أُمِرْنا اذا نحن لقيناك ألا نفارقك حتى نقدمك على عبيدالله بنزياد . يسأل رأيه ، فاتجه الحسين الى الطريق الصاعد الى كربلاء .

وعزز عبيد الله بن زياد جيوشه المرسلة الى الحسين بجيش آخر بقيادة رجل من أولاد السابقين الأولين هو عمر بن سعد بن أبى وقاص ، وكان تحت قيادته أربعة آلاف من الجنود ، وكان عبيد الله قد بعثه واليا على الرى وكلفه بمحاربة الديلم الذين ثاروا فى هذه البقاع ، ولهذا الغرض جمع جيشه ولكنه تلقى أمراً بالسير الى الحسين حتى اذا فرغ منه سار الى ولايته بالرى ، ولما أظهر التثاقل فى السير الى الحسين هدده عبيد الله بعزله عن ولاية الرى التى كانت أمله ، فسار بجيشه لمقابلة الحسين حتى لا تفلت منه هذه الولاية . وليس يدرى الانسان كيف طغى حب المال والجاه فأعمى أفرادا من هذه النخبة التى كان عليها أن تسير سيرة آبائها فى العمل للخير ورفع شأن الاسلام .

ومن الواضح أن القادة الذين سبق ذكرهم (الحصين والحر وعمر ابن سعد) كانوا يخشون دم الحسين ويتمنون ألا يمسوه بسوء وكان ذلك دعاءهم دائماً ، وقد استطاع عمر بن سعد أن يحصل على اتفاق مع الحسين ظن فيه السلامة ، فقد عرض عليه الحسين أن يعود الى المدينة ، أو يسير الى أى ثغر من ثغور المسلمين فيكون مجاهدا فى سبيل الله ، أو يسير الى يزيد بدمشق ، وأرسل عمر بهذا الى عبيد الله فسر به عبيد الله وأظهر الموافقة ، ولكن سرعان ما قال شمر بن ذى الجوشن : أتقبل هذا منه ؟ والله لئن رحل من بلدك ولم يضع يده فى يدك ليكونن أولى بالقوة والعزة ولتكونن أولى بالضعف والعجز ، فلا تعطه هذه المنزلة ، فانها من الوهن ، ولكن لينزل

على حكمك هو وأصحابه . فقال ابن زياد : نعم ما رأيت ، الرأى لك (١) .

وأرسل ابن زياد خطاباً قاسياً الى عمر بن سعد مع شمر بن ذى الجوشن وأمره أن يرسل الحسين اليه مع أصحابه فان أبى الحسين فليقاتله عمر ، فان قتله جعل الخيل تطأ صدره وظهره ، وختم ابن زياد خطابه بقوله: ان أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع ، وان أبيت فأعتزل عملنا وجندنا وخل بين شمر وبين العسكر فانا قد أمرناه بأمرنا .

وأبى الحسين الاستسلام فلم يبق الا الحرب ، واشترك فى حربه القادة السابقون الا الحر بن يزيد فانه عدل الى الحسين لما أبى ابن زياد أن يقبل ما عرضه الحسين وكان يظن أن فيما عرضه الحسين ما يكفى للسلامة (٢) ودارت معركة غير متكافئة ، جيوش معدة من جانب وجماعة صغيرة العدد قليلة العدة من جانب آخر ، وتساقط أتباع الحسين دونه ، وكان أول القتلى من جماعة الحسين مسلم بن عوسجة ثم عبد الله بن عمير الكلبى وهما من خيرة الأبطال ، ثم توالى الصرعى وتساقط الأهل والأصدقاء ولم يبق مع الحسين الا رهط من ثلاثة أو أربعة ثم هوى هذا الرهط بين يديه وبقى وحده . وتوضح لنا كل الروايات الموجودة أن رجال عمر بن سعد كانوا يتحاشون قتل الحسين ، وأتيحت الفرصة لكثيرين منهم ليقتلوه دون عناء ولكن كان كل منهم يتمنى أن يكون قتله على يد سواه ، كان الحسين يحمل عليهم فيولون الأدبار لا خوفاً ولكن جلالا وهرباً من دمه . ويقول الطبرى (٣) : ولقد مكث طويلا من النهار ولو شاء الناس أن يقتلوه لفعلوا ، ولكن كان يتقى بعضهم ببعض ، ويحب هؤلاء أن يكفيهم هؤلاء دمه ، فنادى شمر فى الناس : ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل ؟ اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم . فحمل عليه الجند من كل جانب وضربه زرعة بن شريك التميمى ضربة على عاتقه فجعل ينوء ويكبو من قسوة الألم ، ثم جاءه رجل فيه لوثه

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ٣١٣ — ٣١٤ والعقد الفريد جـ ٤ ص ٣٧٩ .
(٢) تاريخ الامم والملوك جـ ٤ ص ٣٢١ ، ٣٢٥ .
(٣) الجزء الرابع ص ٣٤٦ .

اسمه سنان بن أنس فطعنه بالرمح وقضى عليه واحتز رأسه ، ومما يدل على جنون هذا القاتل أنه حمل الرأس وذهب الى عمر بن سعد وأنشد :

أوقـــر ركـــابى فضـــة وذهبـــا
أنـــا قتـــلت الملـــك المحجبـــا
قتلت خـــير النـــاس أمـــاً وأبـــا
وخـــيرهم — اذ ينســـبون — نســـبا

فقال عمر : أشهد أنك لمجنون ، ولو سمعك ابن زياد تقول هذا لضرب عنقك ، وقد قتل من جيش ابن زياد سبعة وثمانون رجلا ، وكان الحسين فى الخامسة والخمسين عند مقتله ، وقد وجدت به ثلاث وثلاثون طعنة وأربـــع وثلاثون ضربة ، وكان قتله فى العاشر من المحرم ، واذا جاز لنا أن نتعجـــل الأحداث فى كلمة قصيرة قلنا ان قتلة الحسين ما بقى أحد منهـــم الا وعوقب فى الدنيا ، أما بالقتل أو بالعمى أو ســـواد الوجـــه أو زوال الملك فى مـــدة يسيرة (١) ، وسيأتى فيما بعد تفصيل ذلك عنـــد كلامنا عن المختار بن أبى عبيـــد .

والعجيب أن هذا المسمى عمر بن سعد تمادى فى ضلاله وطاعة ســـيده ابن زياد فأمر أصحابه أن يوطئوا خيلهم الحسين ففعلوا حتى رضوا صدره وظهره(٢) ولم ينج من هذه المعركة الا خمسة هم على زين العابدين ، وكان مريضاً فلم يحضر المعركة ، وعمته زينب ، وأخـــوه الأصـــغر عمر ، وأختاه فاطمة وسكينة (٣) ، وحمل هؤلاء مع رأس الحسين الى الطاغية ابن زياد ، فأرسل الجميع الى يزيد ، وقد كان ارســـال رءوس القتلى والشـــهداء الى أصحاب المصلحة فى قتلهم سنة متبعة ليتـــأكدوا من نهاية خصـــومهم ، وفى مواضع متعددة بهذه الموسوعة ذكرنا نظائر لهذا الحادث ، ويروى أن يزيد

---

(١) انظر ابن الجوزى : تذكرة خواص الأمة ص ١٥٨ .
(٢) الطبرى جـ ٤ ص ٢٤٧ .
(٣) عقيدة الشيعة ص ١١٤ .

عندما رأى هذا الركب بكى وبكت معه نساء بنى أمية ، وأكــرم يزيد مثوى هؤلاء ، وجزاهم عما سلب منهم ، وردهم الى المدينة (١) ٠

رأس الامام الحسين ومدفنها الآن :

أين دفن رأس الحسين ؟

موضوع يثار من حين الى آخر ، وليست لدينا معلومات دقيقــة عنه ، ولكن لدينا أفكار حول الموضوع لعلها تنير لنا السبيل :

أولا ــ إن اكرام الميت دفنه كمــا تقضى بذلك الشريعة الاســلامية ، ولقد دفن جسم الحسـين حيث قتــل فى كربلاء ، أما الرأس فقــد قضت الضرورة تأخير دفنه لالتزام عبيد الله بارساله الى يزيد بدمشق ، وبعد أن رأى يزيد الرأس كان من الطبيعى أن يدفن بسرعة ٠

ثانيا ــ لم يكن من مصــلحة يزيد أن يسمح لأهل الامــام الحســين باصطحاب الرأس فى رحلة العودة الى المدينة لأن هــذا يثير السخط عليــه فى كل مكان يمر به ابن بنت رسول الله ، وربما أشعل ثورات عليه ٠

ثالثا ــ لا نتصور أن يقبل أهل الامام أن يدفن الرأس بدمشق خــوفا من أعــداء آل البيت الذين كانوا كثيرين فى بلاط يزيد ويخشى أن يحدثوا بالرأس الشريف حدثا يتنافى مع جلاله ومكانته ٠

ولعل هــذه الأفكار هى التى دعت الى حل وســط هو ما أشــار اليه المقريزى (٢) وأبو الفدا (٣) بأن الرأس الشريف دفن بعسقلان فى فلسطين ، ويرجح هذان المؤلفان أن الدولة الفاطمية عندما جاءت الى مصر نقلت رأس الحسين الى القاهرة ٠ وهذا يتمشى من النمط المعروف عن الفاطميين ، فقــد

---

(١) الفخرى ص ٩٩ ــ ١٠٠ ٠

(٢) الخطط جـ ٢ ص ١٨٣ ــ ١٨٤ ٠

(٣) المختصر فى أخبار البشر جـ ١ ص ١٩١ ٠

نقلوا جثث آبائهم وأجدادهم من تونس الى القاهرة لأنهم كانوا يتجهون الى جعل مصر مركزا لنشاطهم فى الشرق والغرب •

السيدة زينب ووفادتها الى مصر :

كانت السيدة زينب أخت الحسين وبنت الامام على فصيحة لبيبة ، رقيقة القلب ، عالمة ، وقد أعادها يزيد مع ذويها الى المدينة ، وكانت آنذاك تعد كبيرة الركب ، فالتفت القلوب حولها ، وكانت شديدة التأثير على الناس بشخصيتها وبطولتها ، ويروى أنها لما عادت الى المدينة أحاط الناس بها ، واتخذوا دارها مزارا ومركزا لتجمعاتهم ، فخاف من ذلك حاكم المدينة عمرو ابن سعيد فكتب الى يزيد بذلك ، فأجابه يزيد بأن يطلب منها أن تختار لها أى بلد آخر لتعيش به عدا المدينة •

وكان معروفا عن مصر أنها شديدة الولاء لعلى بن أبى طالب ، وقد ظلت حريصة على الاعتراف بخلافته ، واستعصت على معاوية على الرغم من أن معاوية كان بالشام على حدود مصر ، وكان له جيشه وسلطانه ، ولم يستطع أن يقهر والى مصر الا بعد حيل طويلة أوردناها فى الجزء الاول من هذه الموسوعة (١) ومن أجل حب المصريين لآل البيت واحساس السيدة زينب بذلك كان من الطبيعى أن تختار مصر محلا لاقامتها ، فحضرت الى مصر ومعها السيدة فاطمة والسيدة سكينة ابنتا الامام الحسين ، أما على ابن الحسين فلم يكن من الممكن أن يغادر الحجاز ليقوم بواجبه هناك ما وسعته الحيلة •

ويروى أنه لما سمع والى مصر بمقدمتها خف للقائها ومعه جمع من العلماء والأعيان واستقبلوها عند بلدة العباسة بالشرقية وخصص لها منزل أقامت به فى القاهرة وماتت رضى الله عنها سنة ٦٢ هـ ودفنت فى مكان اقامتها وأقيم لها بعد ذلك الضريح العظيم بالحى الذى عرف باسمها •

---

(١) ص ٦٣١ وما بعدها من الطبعة الحادية عشرة •

المؤرخون والمعـــــركة :

يختلف المؤرخون بطبيعة الحال فى التعليق على معركة كربلاء ، فمنهم من اكتفى بذكر الروايات التاريخية دون أن يبدى رأيا فيها كالطبـــرى وابن الأثير وابن قتيبة وغيرهم ، ومنهم من علق عليها سابا أعداء الحسين ومنزلا اللعنة عليهم كابن طباطبا (١) والعقاد (٢) ، ومنهم من علق على نتائجها فقط كالسيد أمير على الذى يقول : أن مذبحـــة كربلاء أشـــاعت الذعر فى البلاد الاسلامية وأشعلت حماسة الفرس • ودفعتهـــم الى كفاح الأمـــويين حتى أسقطوا دولتهم وأقاموا دولة بنى العباسى (٣) •

وكان نيكلسون من المؤرخين القلائل الذين علقوا تعليقات عملية عـــلى هذه الحادثة فذكر أن المؤرخين المسلمين الذين كانوا فى الغالب يكرهون بنى أمية عدوا الحسين شهيداً وعـــدوا يزيد ســـفاكا ، ولكن ذلك لا يوافق رأى المحدثين من المؤرخين الذين يعدون الحسين ثائراً محدثا فتنة ضحى بنفســـه فيهـــــا •• (٤) •

وعلق Wellhausen كذلك على هذه الحـــادثة تعليقا فيـــه جـــراءة المستشرقين قال : وما كان مثل الحسين الا كمثل آنية من الفخار اصطدمت بحديد هو عبيد الله ، لقد مضى الحسين كما مضى المسيح فى طريق مرســـوم ليضع ملكوت الدنيا تحت الأقدام ، ومد يده كالطفل ليأخـــذ القمـــر ، ادعى أعرض الدعاوى ولكنه لم يبذل شيئاً فى تحقيق أدناهـــا بل ترك للآخـــرين أن يعملوا من أجله كل شىء ، وفى الواقع لم يكن أحد يوليه ثقة ، (يقصـــد ما دوناه فى هذا البحث من أن المهاجرين والأنصار وهم عصب الاسلام تخلوا عن الحسين ولم يؤيدوا حركته من أول الأمر) ولم يكد يصطدم بأول مقاومة حتى انهار ، فأراد الانسحاب ولكن كان ذلك متأخراً ، فاكتفى بأن راح ينظر

---

(١) الفخرى فى الاداب السلطانية .
(٢) الحسين سيد الشهداء فى عدة أمكنة .
(٣) A Short History of the Saracens p. 87.
(٤) See - A Literary History of the Arabs p. 107.

الى أنصاره وهم يموتون فى القتال من أجله ، وأبقى على نفسه حتى اللحظة الأخيرة (١) .

ونحب أن نعلق على هذه الحادثة من عدة جوانب :

فأولا : لا نشك فى أن ابن زياد كان طاغية جبـاراً ، خلا قلبه أو كـاد من الانسانية ، فماذا كان عليه لو أرسل الحسين الى يزيد ليرى فيه رأيه ؟

ثانياً : هذا الشيخ النزق الذى يسمى عمر بن سـعد كيف باع دينـه وماضى أسرته ليرضى الدنيا ولينال الجزاء من السـفاك عبيد الله بن زياد ؟ وماذا كان سيخسر لو اعتزل الأمر ؟ وكيف جـاز له أن يهمـل النسـوة من أقاربه ؟ وأن يأمر أن تطأ الخيل صدر الحسين وظهره ؟

ثالثاً : نجىء الى الحسين رضى الله عنه لنقـرر أن تصرفاته فى بعض نواحى هذه المشكلة كانت غير مفهومة للمنطق ولا مقبولة للعقـل العادى ، والباحثـون الذين يتبعـون المنطق والعقـل العادى ينظـرون الى موقف الحسين ويحكمون عليه بالمقاييس العادية فيقضون عليه باللوم لأنه :

١ — لم يقبل نصح الناصحين وبخاصة عبد الله بن العباس .

٢ — نسى أو تجاهل خلق أهل الكوفة وما فعلوه مع أبيه وأخيه .

٣ — خرج بنسائه وأطفاله وقلة من الأتباع متجاهلا قـوة خصـمه العـاتية .

٤ — عرف فى الطـريق غـدر أهل الكوفة ومع هـذا واصـل السير مستجيباً لرأى بنى عقيل الذين أصروا — دون استعداد — على أن يأخذوا بثأر مسلم بن عقيل أو يموتوا على ما مات عليه .

٥ — أخذ الحسين يتقى السهام والضربات بأولاده وأهله وصحبه حتى خروا جميعاً بين يديه .

---

(١) Wellhausen : al Khawarig and Al Shiah p. 187.

ونهتف فى النهاية مع المنطقيين صارخين : يا لله : قد تكون ولاية يزيد العهد عملا خاطئاً ، ولكن هل هذا هو الطريق لمحاربة الخطأ والعودة الى الصواب •

هذا هو اتجاه المنطقيين ، ولكن هذا الاتجاه ليس هو كل شىء فى قضية ثورة الحسين رضى الله عنه ، فما كانت هذه الملاحظات لتغيب عن فكر الحسين ، ومن أجل هذا ينبغى علينا أن نذكر أن بعض المفكرين الذين يمتازون بالعمق يرون أن تصرفات الحسين ، كانت صادرة عن عقل عميق موهوب ، ليس من السهل على الطبيعة العادية أن تدرك كنهه ، وأن الحسين رأى أن صرح بنى أمية لايزعزعه الاتضحية جسيمة ، فجعل من نفسه وآله هذه التضحية وهذا الفداء ، ليثير الناس على قاتليه ، فيقضى بذلك على هذا الصرح ، وينقذ المسلمين من نظام توارث السلطة ، وسواء خطر هذا ببال الحسين أو لم يخطر فان النتيجة كانت مطابقة لهذا الاتجاه ، وكان دم الحسين هو المعول الذى قوض الحكم الأموى •

واذا كان التفكير الاسلامى يرى أنه لا يجوز الخروج على السلطان الجائر الا لجماعة لهم من القوة والمنعة ما يغلب على ظنهم معها أنها تكفى للنهوض وازالة الجور (١) ، فان قوة الحسين ومن معه كانت كذلك ، ولكن على المدى الطويل ، فقد استطاع الحسين بهذه الدماء أن يسقط بنى أمية ، وتكاد هذه النتيجة تكون موضع اجماع من المؤرخين •

وعلى كل حال فقد كانت فتنة أيسر ما نقول عنها أنها وسعت باب الفرقة والتهمت الآلاف والملايين من المسلمين ولا يزال بابها مفتوحا حتى كتابة هذه السطور ، وقد أخذ مدعو التشيع هذه الحادثة ليضعوا حولها ألواناً من الخرافات سنتحدث عن بعضها عند الكلام عن « التوابين » فيما يلى ، ومن أهم ما نورده هنا ما روى من أن الشيعة كانوا اذا مات شيعى وضعوا له قلادة من طين تربة الحسين فى رقبته ، وخاتماً فى سبابته ،

---

(١) مقالات الاسلاميين للاشعرى ج ٢ ص ١٤٠ .

وضمنوا له بذلك الجنة (١) ، وما نُسِبَ الى على الرضا من أنه قال : ان أكل طين من القبر حرام كأكل الميتة ، الا طين تربة الحسين فهو شفاه من كل داء .

التوابون :

لم يضع عبد الله بن الزبير الفرصة ، فما إن قُتِلَ الحسين حتى أيقن أن الأمر خلا إليه ، فأعلن نفسه خليفة فى مكة ، وأعلن الثورة على بنى أمية ، وقد ذاع أمره وعظم خطره ، وبخاصة عندما مات يزيد بعد مقتل الحسين بسنتين وبضعة شهور واضطرب حبل بنى أمية فى الشام عقب موته ، وسنتكلم عن هذا فيما بعد ، ولكن الذى يهمنا الآن أن الطاغية عبيد الله ابن زياد عجز عن ضبط الأمن فى البصرة والكوفة عند ما اختل الأمر فى الشام ، فتسلل فى الظلام ، وكان فى البصرة حينذاك ، ونجا بنفسه من ثورة أعدائه الكثيرين ، وفى هذا الجو ظهر التوابون .

والتوابون جماعة من شيعة الكوفة ينبىء عنهم هذا الاسم . انهم اعترفوا بضلالتهم ، وبأنهم دعوا الحسين الى بلادهم ثم انفضوا عنه ، ثم قتلوه (٢) ، وأرادوا أن يكفروا عن اثمهم وأن يزيلوا خطيئتهم ، وكان سبيلهم الى ذلك التوبة والثأر للحسين ، وبذلك سموا التوابين ، انهم سموا التوابين لادعائهم التوبة ، ولكن ممن يأخذون الثأر ؟ كان أولى بهم أن يثأروا للحسين من أنفسهم ، بيد أنها الكوفة ومدعو التشيع بها ، يعيشون فى سلسلة من الثورات ، يثورون على بنى أمية فيدعون الحسين اليهم ، ويثورون لبنى أمية فيقتلون الحسين ، ثم يثورون للحسين فيحاولون الثأر له .

---

(١) عقيدة الشيعة ص ١٠٣ — ١٠٤ .

(٢) من الاسماء التى تذكرها المراجع التى بين أيدينا وتنسب لها القدرة على التقلب شبث بن ربعى التميمى الذى حارب ضد الحسين بعد أن كان أحد الذين دعوه الى الكوفة ، وحميد بن مسلم الازدى الذى اشترك فى قتل الحسين ثم عاد فأصبح من أشد المتحمسين للاخذ بثأره .

ويقول الطبرى : ان الشيعة قد تلاقت بالتلاوم والتندم ، ورأت أنهـا قد أخطأت خطأ كبيراً بدعائهم الحسـين الى النصرة وتركهم اجابتـه حتى قتل الى جانبهم دون أن ينصروه ، ورأوا أنه لا يغسـل عارهم والاثم عنهم فى مقتله الا بقتل من قتله أو القتل فيه ، ففزعـوا بالكوفة الى خمسة نفـر من رؤوس الشيعة (١) ، واستقر الرأى بعد مناقشات بينهم على أن تـكون الرياسة الى سـليمان بن صرد الخزاعى وكانت له صـحبة مع الرسـول • ولكن سليمان سرعان ما أدرك أن قتلة الحسـين هم هؤلاء المطالبون بدمه ، وقد جاء فى كلماته التى يرويها الطبرى « انى نظرت فرأيت أن قتلة الحسين هم أشراف أهل الكوفة وفرسان العرب وهم المطالبون بدمه (٢) • ومع هذا هتف هؤلاء « يالثارات الحسين » وتجمع عدد كبير وأصبح لهم السـلطان على الكوفة ، وبدءوا يهددون سلطان الشام •

وفى هذه الأثناء كان مـروان بن الحكم قد قفـز الى الخلافة وانتصر على معارضيه فى الشام ، وبدأ يتطلع لاخضـاع جميع الثائرين فى العـالم الاسـلامى ، وكان « التوابون » من الثائرين الذين اتجهت لهم همته ، ومن الطبيعى أن يلجأ الى الطاغية العارف بمواطن الضعف فى الكوفة وفى رجالها إلى عبيد الله بن زياد ، فسيره بجيش كبير من أهل الشـام ، والتقى ابن زياد بالتوابين عند مكان يقال له « عين الوردة » حيث دارت معركة عنيفة سقط فيها سليمان بن صرد وكثيون من التوابين وانتصر أهل الشـام (٣) • وكان ذلك سنة ٦٥ هـ •

ولم ينته التوابون بعد هذه الموقعة ، بل ظلوا يطلبون التوبة والغفران لذنبهم العظيم ، ولا تزال بقايا التـوابين تعيش فى العـراق حتى العهـد الحاضر ، ولقد رأيتهم عند زيارتى للعراق سـنة ١٩٥٠ يجتمعـون فى أيام

---

(١) تاريخ الامم والملوك ج ٤ ص ٤٢٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٣٢ .
(٣) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٤٦٢ وما بعدها وتاريخ اليعقوبى ج ٣ ص وعقيدة الشيعة ص ١١٦ وتهذيب الاسماء للنووى القسم الاول ج ١ ص ٢٣٤ .

عاشوراء فى الفترة التى قتل فيها الحسين ويكونون جمعات كبيرة ، ينشدون أناشيد حزينة حماسية ، ثم يتوقفون عن الانشاد فترة يضربون فيها صدورهم العارية بقسوة عنيفة عدة ضربات ، ثم يعودون الى الانشاد ثم الضرب وهكذا ، حتى تسيل الدماء من صدورهم أو تكاد ، ومنهم من لم يكتف بضرب نفسه بيده بل يعمد الى خنجر أو سيف فيضرب به رأسه ويسيل دمه ، وتعتبر تلك الأفعال عندهم من وسائل التوبة ، اذ أنهم يعتقدون أن أخطاء اجدادهم قد انحدرت اليهم ولا وسيلة لتكفير هذه الأخطاء الا اراقة دمائهم فى نفس الفترة التى أريق فيها دم الحسين ، وبعضهم يبالغ فى هذا التكفير فيسيل دمه على الأرض ليختلط بالتربة التى امتصت دم الحسين فكأنه بذلك امتزج به ولم يضن عليه بدمه ٠

المختار بن أبى عبيد

من نتاج الطائف شخصيات بعيدة الغور ، واسعة الشهرة ، غير واضحة المعالم ، أو قل أنها مضطربة المعالم ، ومن أهم هؤلاء المختار بن أبى عبيد والحجاج بن يوسف الثقفى وزياد بن أبيه وابنه عبيد الله .

وقد ولد المختار فى السنة الأولى للهجرة ، ولقب أحياناً بكيسان لأنه تلقى العلم عن « كيسان » مولى على أبى طالب ، أو لأن كيسان حثّه على الأخذ بثأر الحسين وعرفه بقاتليه ، ويرى البغدادى أن « كيسان » كان لقبا أصيلا للمختار (١) .

والمختار شخصية من الشخصيات القلقة فى التاريخ الاسلامى ، وأعتقد أن أدق وصف له أنه رجل كان يسعى للجاه والمال ولا يهتم بالوسائل التى توصله اليهما ، فهو مستعد أن يكذب وأن ينافق وأن يدعى النبوة أو الألوهية ، وأن ينقلب من صديق الى عدو ومن عدو الى صديق اذا كان ذلك يساعده على تحقيق مأربه . ومن الواضح أن مثل هذا الرجل لابد أن يكون ذكيا حاد الذكاء ، ومنحرف الذكاء فى نفس الوقت .

كان فى صباه ملتحقا بعمه سعد بن مسعود الذى كان عاملا لعلى ابن أبى طالب على المدائن ، فعاملاً لابنه الحسن من بعده ، ولما انهارت قوى الحسن واعتُدِىَ عليه لجأ الى المدائن . فقال المختار لعمه : هل لك فى الغنى والشرف ؟ قال العم : وما ذلك ؟ قال المختار : أن توثق الحسن وتستأمن به الى معاوية . قال سعد : عليك لعنة الله ، أَثِبُ على ابن بنت رسول الله فأوثقه ؟ بئس الرجل أنت (٢) .

وهكذا كان المختار يريد أن يقدم الحسن قربانا لينال الحظوة مع عمه عند بنى أمية ، ولكن هذه الأمنية لم تتم ، فليحاول المختار طريقا آخر أو طرقا أخرى للجاه والمال :

رأى المختار أن انضمامه للشيعة آنذاك سيجذب اليه كثيرين من

---

(١) الفرق بين الفرق ٢٦ .
(٢) الطبرى جـ ٤ ص ١٢٢ .

الأنصار والأعوان ، ففتح باب داره بالكوفة لمسلم بن عقيل عندما وفد هذا الى الكوفة وبايعه وساعده [١] ، ولما قتل مسلم أمر ابن زياد بالقبض على المختار وضربه بقضيب فشتر به عينه كما يقول الطبرى ثم ألقاه فى السجن [٢] .

وكانت صفية أخت المختار تحت عبد الله بن عمر فبكت لما أصاب أخاها ، فكتب عبد الله الى يزيد بن معاوية يستشفع للمختار ، فأمر يزيد واليه ابن زياد أن يخلى سبيل المختار ، فأطلقه عبيد الله وأمره أن يدع الكوفة ففعل ، وطاف المختار هنا وهناك ثم انتهى به المطاف الى عبد الله بن الزبير بمكة ، وكان ابن الزبير قد أعلن نفسه خليفة ، وكانت حاجته الى المختار ظاهرة وحاجة المختار اليه واضحة ، ولكن « السيفان لا يجتمعان فى قراب واحد » فكان كل منهما يخشى الآخر ولا يطمئن اليه . وسننقل فيما يلى رواية الطبرى التى تبين لنا حاجة كل منهما للآخر وحذره منه :

لما التقى المختار بابن الزبير قال المختار : انى قد جئتك لأبايعك على الا تقضى الأمور دونى ، وعلى أن أكون أول من تأذن له ، واذا ظهرت استعنت بى على أفضل عملك . فقال له ابن الزبير : أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه .

ولكن المختار لم يقتنع بأن ينزل على كتاب الله وسنة النبى ، فصاح بابن الزبير . وشر غلمانى أنت مبايعه على كتاب الله وسنة نبيه ، فمالى اذاً فى هذا الأمر من الحظ الا ما لأقصى الخلق منك . لا والله لا أبايعك أبدا الا على الخصال التى ذكرتها .

قال عباس بن سهل وهو من أصحاب ابن الزبير : فالتقمت أذن ابن الزبير فقلت له : اشتر منه دينه حتى ترى رأيك . فقبل ابن الزبير شروط المختار وتمت عليها البيعة [٣] .

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ٤٤١ .
(٢) المرجع السابق ٤٤٢ .
(٣) المرجع السابق ص ٤٤٥ .

وصمد المختار بجانب ابن الزبير ابان محنة الحصار الأول لمكة الذى قام به الحصين بن نمير السكوتى فكان من أحسن الناس بلاء وأعظمهم غناء . وفى أثناء هذا الحصار مات يزيد واضطربت دمشق ، وعلا أمر ابن الزبير ودان له أغلب العالم الاسلامى ، ولكن ابن الزبير لم يستعمل المختار على أية ناحية من النواحى التابعة له ، وكأنما أحس ابن الزبير بانتظام أمره فأهمل شأن المختار ، ولما أحس المختار بذلك فكر فى الكوفة فهى المهد الوثير لمن يرغب الفتنة ويعمل على اشعال الثورات ، وسأل المختار بعض القادمين من الكوفة فعرف أنهم يتبعون ابن الزبير ولكنّ بها رجالا يكتمون أمرهم وينتظرون من يقودهم ليأكل بهم الأرض.
ولكن رجالا يكتمون أمرهم وينتظرون من يقودهم ليأكل بهم الأرض .
قال المختار : أنا أبو اسحاق ، أنا والله لهم ، أنا أجمعهم على الحق . وأنفى بهم ركبان الباطل ، وأقتل بهم كل جبار عنيد . وبدأ رحلته الى الكوفة مهد الثورات ومركز الفتن[1] .

وفى الكوفة وجد المختار ثورة التوابين فى مطلعها وحاول أن تكون له قيادتها ولكن أغلب الشيعة اختاروا سليمان بن صرد لقيادتهم ، ولم ينضم اليهم المختار بل جلس ينتظر وتشكك فيه عامل ابن الزبير فحبسه ، فلما هزم التوابين وعاد شتاتهم الى الكوفة انتهز المختار هذه الفرصة فكتب الى قائدهم رفاعة بن شداد من السجن يقول « أما بعد فمرحبا بالعصبة الذين عظم الله لهم الأجر حين انصرفوا ، ورضى انصرافهم حين قفلوا ، أما ورب البنية التى بنا ما خطا خاطٍ منكم خطوة ، ولارتارثوة الا كان ثواب الله له أعظم من ملك الدنيا ، وان سليمان قد قضى ما عليه وتوفاه الله فجعل روحه مع أرواح الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين . ولم يكن بصاحبكم الذى به تنصرون ، انى أنا الأمير المأمور ، والأمين المأمون ، وأمير الجيش ، وقاتل الجبارين ، والمنتقم من أعداء الدين ، والمقيد من الأوتار . فأعدوا ، واستعدوا ، وأبشروا ، واستبشروا . أدعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٤٧ .

ـلم والى الطلب بدمـاء آل البيت والـدفاع عن الضعفاء وجهـاد المحلين » (١) فلما تلقى قادة الشيعة ذلك حضروا الى المختار فانتزعوه من السجن ، وبدأ الخطوة الأولى من خطوات قيادته .

وقام المختار بأمور متناقضـة لم يسـترها بعض الشيء الا ذكاؤه الوقاد ، ولكنها على كل حال ظهرت للأعين النفاذة فقـد ادعى المختار أن ابن الحنيفة هو الذى أرسله وأنه وزيره ويعمل باسمه للطلب بحق أهل البيت والثأر من قاتلى الحسين وصحبه ، ولكنه فى نفس الوقت أمَّن عمر ابن سعد وجالسه ، ولم يتعرض لقتلة الحسين بسوء (٢) ، حتى قال ابن الحنفية لبعض رجالات المختار : انه يدعى أنه لنـا شيعة وقتلة الحسين جلساؤه على الكراسى يحدثونه(٣) وادعى المختار أنه يسير على سنة القرآن وهدى الاسلام ، ولكن ظهرت منه ألوان من الضلالات تبعده عن الاسلام وحوزته ، فمن ذلك أنه كان عنده كرسى قديم قد غشاه بالديباج وزينـه بأنواع الزينة ، وقال : هذا من ذخائر أمير المؤمنين عـلى كـرم اللـه وجهه ، وهو عندنا بمنزلة التابوت لبنى اسرائيـل ، وكان اذا حـارب خصومه حمله فى الصف الأول وقال : قاتلوا ولكم الظفر والنصرة . وله اسجاع يقلد بها القرآن . ووعود يدعى بها علم الغيب فان تحققت جعل ذلك دليلا على صدق دعواه وان لم تتحقق قال : قـد بدا لربكم ، وذلك هو القول « بالبداء » أى أن الله يغير رأيه لانه يبدو له شىء جديد (٤) .

وهكذا نجد فى ادعاء المختـار للتشيع لونا جديدا لم نره من قبـل ، فقد رأينا مدعى التشيع يقصدون الى تهديم الاسلام ، ولكن المختـار ادعى التشيع قاصدا الجاه والمال .

وقد تشكك بعض الشيعة فى أمر المختار عندما بدأ أمره يظهر فذهب وفد منهم الى محمد بن الحنفية يسألون رأيه فيه ، وأجاب ابن الحنفيـة جوابا مبهما اذ قال : والله لوددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شـاء

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٧١ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٤٩ .
(٣) المرجع السابق ص ٥٢٣ .
(٤) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ١٣٢ — ١٣٣ .

من خلقه ، وعاد هؤلاء بذلك القول فاتخذه المختار دليـل تأييد له من ابن الحنفية ، وجمع الجموع حيث خطب أعضاء هذا الوفد وذكـروا أن ابن الحنفية يؤيد المختار (١) .

وقيل للمختار : ان ابراهيم بن الأشتر هو القـائد المهيب الجانب فى الكوفة ، وانه اذا انضم للمختار ضمن المختار ألوانا من النجاح ، وكـان ابراهيم متشككا فى أمر المختار ، ولكن المختار لم يدعه للشك فوضع خطابا على لسان ابن الحنفية وقفله وختمـه وحمله الى ابن الأشتر وأحضر من الشهود من أيد أن هذا الخطاب من ابن الحنفية ، فلما قرأه ابراهيم وجـد فيه اعتراف ابن الحنفية بأن المختار وزيره ورسوله للطلب بدماء آل البيت، ووجد فيه كذلك أمرا من ابن الحنفية لابراهيم أن ينضم للمختار مع أهله وعشيرته ، وخضع ابراهيم للأمر وانضم ، فكان من أكبر عوامل النصر التى تحققت للمختار (٢) .

وتجمعت للمختار بذلك عوامل الأمل فى النصر فبـدأ كفاحه المسلح وانتصر فيه ، فهزم أنصـار عبد الله بن مطيع عامل ابن الزبير على الكوفة وخلص له الأمر فيها ، وامتد ملكه حتى الموصل وهبت بالبصرة ثورة تؤيده، وقرب بذلك من القمة (٣) .

ولكن الكوفة لم تجد فى المختار قط ما يدعوها للاطمئنان اليه وتصديقه فيما يدعيه ، فقد كان حتى الآن يسمح لقتله الحسين بمصادقته ومجالسته وكانت ترهاته وأباطيله تفشو وترداد ، وكأن ابن الأشتر نفسه يراوده الشك وهو يحمل هذا الكرسى فى حروبه ، فليس له بذلك عهد فى الحروب الاسلامية ، ولكن تصديق ابن الأشتر كان أقوى من شكه فبقى مخلصـا له الى حين .

وخطا المختار خطوة أخرى يريد أن يتوج بهـا انتصـاراته فبـدأ يحارب عبيد الله بن زياد ، وأرسل المختار لذلك جيشا بقيادة يزيد بن أنس،

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٩٢ .
(٢) اقرأ نص الخطاب فى الطبرى ج ٤ ص ٤٩٥ .
(٣) المرجع السابق ص ٥٠٧ وما بعدها .

ولكن جيش الشام غلبه وخر يزيد فى هذه المعركة ، فأرسل المختار جيشا آخر بقيادة قائده الأول ابراهيم بن الأشتر ، ووجدت الكوفة الفرصة للثورة على المختار فقد بدأ ينهزم أمام أهل الشام ، وقد خلت الكوفة من قائده المهيب وأكثر أتباعه ، فهبت بالكوفة ثورة عارمة ، أعلن قائدوها أن المختار كذاب وأنه غير مؤيد اطلاقا من محمد بن الحنفية ، وأحاطت الثورة بقصر الرياسة وفيه المختار ومنعوا عنه الماء وهددوا حياته ، ولكن ذكاء المختار لم يخنه ، فعالج أمره بحكمة أنقذته من هزيمة محققة ، فأرسل سرا يستدعى ابراهيم بن الأشتر وجيشه ، وفى نفس الوقت كتب للثوار يطلب أن يرسلوا وفدا مشتركا لابن الحنفية ليستبين للناس رأى ابن الحنفية ، وكان يقصد بذلك الابطاء والتأخير حتى يعود جيش ابن الاشتر وعاد هذا الجيش ، وتولى المختار قيادة جزء منه وتولى ابن الأشتر قيادة الجزء الآخر وأنزلا بالكوفة هزيمة شنيعة ، ووجد المختار الفرصة سانحة ليتخلص من قتلة الحسين ، فنكل بهم وقتلهم ، ارضاء للشيعة من جهة وانتقاما منهم لما ابدوه من تأييد للثائرين ضده من جهة أخرى ، وكان فى قمة من قتلهم عمر بن سعد بن أبى وقاص وابنه [1]

وعاد المختار بعد أن أخضع الكوفة لحرب عبيد الله بن زياد فأرسل اليه جيشا كثيفا بقيادة ابن الاشتر فى ذى الحجة سنة ٦٦ هـ ، وفى مطلع العام الثانى دارت معركة عنيفة عند نهر خازر بالقرب من الموصل بين ابن الأشتر والطاغية ابن زياد ، وقد استطاع ابن الأشتر أن يضرب ابن زياد ضربة قدته نصفين ، وسقط فى هذه المعركة أيضا الحصين بن نمير السكونى الذى سبق له أن حاصر الكعبة ورماها بالمنجنيق • ووصل المختار بذلك الى قمة مجده فدانت له الموصل وأرمينية واذربيجان ، وأرسل رأس ابن زياد الى المدينة وأحرق جثته [2] •

ولكن المختار لم يدم فى القمة طويلا ، فقد اجتمعت عليه عوامل هزت المجد الذى يجلس عليه ، وأهم هذه العوامل ترهاته وأباطيله

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ٥٣٢ .

(٢) اليعقوبى ٣ : ٦ والطبرى ص ٥٥٥ .

تزيد كل يوم ظهورا ووضوحا مما جعل ابن الحنفية يعلن براءته منه (١) .
وقد سبب هذا الاعلان خسارة كبيرة للمختار فقد فتر عنه قائده الاعظم ابراهيم بن الاشتر وبقى بالموصل ، بعد هزيمته لعبيد الله بن زياد ، وظهرت الجفوة بين المختار وبينه ، ومن العوامل التى أضعفت المختار كثرة الدماء التى سفكها بالكوفة ليصل الى المجد أو ليحافظ عليه بعد أن وصل اليه ، ومنها كذلك أنه اعتمد على الكوفة واتخذها عاصمة له ، ولا بد أن يهوى الى القاع كل من اعتمد على الكوفيين أو وثق بهم . ثم يجىء العامل الأهم وهو أن انتصارات المختار جعلته منافسا لخليفتين عظيمين أحدهما عبد الله بن الزبير بمكة والثانى عبد الملك بن مروان بدمشق وهيهات أن يستطيع المختار أن يصمد لهذين البطلين أو لهذه العوامل مجتمعة .

وعين عبد الله بن الزبير أخاه مصعبا واليا على البصرة وأمره بحرب المختار ، وصحب معه بطلا مغوارا هو المهلب بن أبى صفرة ، ودارت معركة عنيفة بحمام أعين قضى فيها على جيش المختار الذى كان يقوده أحمر ابن شميط بعد أن اعتزل ابن الأشتر قيادة جيوش المختار ، ولم ينج من جيش المختار الا الفرسان الذين ولوا بخيولهم هاربين ، وانتهز أهل الكوفة هذه الفرصة فانفضوا من حول المختار وثاروا عليه ، وسرعان ما وجد نفسه وحيدا ليس معه أحد،فنزل بسيفه يحارب ويقاتل حتى خر قتيلا فى شوارع الكوفة ، وكان ذلك فى نفس السنة التى قتل فيها عبيد الله بن زياد ، وكانت تلك نهاية المختار (٢) .

بقى شىء يتعلق بهذه النهاية ، ذلك أن المختار — كما ذكرنا من قبل — كان قد أسرف فى التنكيل بأهل الكوفة والفتك بأشرافها عقب ثورتها الأولى عليه ، وكان الموالى يمثلون عصب جنده فى هذه الجولة ، فلما هزمت جيوش المختار أمام مصعب هب أهل الكوفة ليثأروا لأنفسهم مما أنزله المختار وأتباعه الموالى بذويهم من فناء وتدمير ، وشجعهم على ذلك مصعب ابن الزبير ، وكانت نتيجة ذلك أن خر فى المعارك عدد كبير واستسلم آلاف من أتباع المختار وأكثرهم من الموالى ولكن مصعبا اعمل فيهم السيف بعد

---

(١) الشهرستانى . الملل والنحل جـ ١ ص ١٢٣ .
(٢) ...متوبى جـ ٣ ص ٩ والطبرى جـ ٤ ص ٥٧٠ .

الاستسلام وقد عيب ذلك على مصعب ، ويروى أن عبد الله بن عمر رأى مصعبا بعد هذه الحادثة فصاح به : أنت قاتل سبعة الاف من أهل القبلة فى غداة واحدة ؟ فأجابه مصعب مدافعا عن نفسه : انهم كانوا كفرة سحرة فقال ابن عمر : والله لو قتلت عدتهم غنما من تراث أبيك لكان ذلك سرفا(١)

الزيـــدية :

بطلا الزيدية هما زيد بن على بن الحسين وابنه يحيى بن زيد ، وقد قتل أولهما بالكوفة سنة ١٢٢ هـ وقتل الثانى بخراســان سنة ١٢٥ هـ وليس معنى هذا أن الكوفة هدأت بين مقتل المختار سنة ٦٧ هـ ومقتــل زيد بن على سنة ١٢٢هـ ، لا ، فقد اشتبكت الكوفة فى ألوان من الصراع غير شيعية كثورة ابن الاشعث وغيرها من الثورات الكبيرة والصغيرة حتى اخضعــها الحجاج بالعصا والقسوة فطأطأت الرأس حتى هبت من جديد على يد زيد بن على .

وقد تكلمنا فيما سبق عن زيد بن على ومبادئه ، ولم يكن زيد بن على من سكان الكوفة ، وانما ساقه اليها ما ساق سواه من الطالبين بالخلافة من الشيعة من الوعود الخلابة والايمان المغلظة والعهود والمواثيق التى سرعان ما تختفى وتذوب ، وقد أعد زيد نفسه للخلافة واستجمع كل الشروط التى يراها لازمة لحمل هذا العبء من عدالة وعــلم وشــجاعة ولم يبق الا أن يطالب بها ، فانتظر الفرصة التى سنحت بذلك .

وكان خالد بن عبد الله القسرى واليا لهشام ، ثم غضب هذا عليــه وألزمه بغرامة كبيرة ، ويقال أن خالدا ادعى أن له أموالا عند زيد بن على ليتخلص من العذاب الذى كان نازلا به ، فطولب زيد بن على بهذا المــال فأنكر أن لديه أموالا لخالد فسيق الى الكوفة لمواجهة خــالد ، وكان يوسف ابن عمر هو أمير الكوفة آنذاك ، وتمت المواجهة ، فاعترف خالد أنه ليس له مال عند زيد ، وأخرج زيد من الــكوفة دون ابطاء خوفا من التفــاف الشيعة حوله ، واتخذ زيد طريقة الى المدينة ولكن أهل الكوفة تبعــوه .

---

(١) الطبرى ٤ ص ٥٧٢ .

ويروى لنا اليعقوبى والطبرى وابن طباطبا وغيرهم أن أهل الكوفة قالوا لزيد نفس العبارات التى قالها أجدادهم لأجداده ، وسلكوا معه نفس السلوك الذى سلكه أجدادهم مع أجداده ، وأكدوا له ما أكده أجدادهم من قبل أنهم هذه المرة لن يخونوا ولن يسلموه ، ومن عباراتهم التى توردها المراجع السابقة قولهم : أين تذهب يرحمك الله ومعك مائة ألف سيف نضرب بها دونك ، وليس عندنا من بنى أمية الا نفر قليل لو أن قبيلة واحدة منا صمدت لهم لكفتهم بأذن الله . فقال : يا قوم انى أخاف غدركم فانكم فعلتم بجدى الحسين ما فعلتم فقالوا : نناشدك الله الا ما رجعت ونحن نبذل أنفسنا دونك ونعطيك من الايمان والمواثيق والعهود ما تثق به ... ووقع الرجل العالم المفكر فى نفس الخطأ الذى ارتكبه أسلافه ، ووثق بقوم ليسوا جديرين بالثقة ، والتف حوله آلاف من الرجال وشرعوا الاسلحة ، وأعلن زيد دعوته ، فهب فى وجهه يوسف بن عمر ومعه قليلون من أهل الشام ، ولكن يوسف سرعان ما جذب الرجال من صفوف زيد فاذا بصفوف زيد تتناقص ورجال يوسف يتكاثرون ، ونظر زيد فوجد الناس قد انفضوا عنه وخذلوه وأسلموه ، ولم يبق معه الاشرذمة يسيرة ظل يجاهد بها جهادا لا أمل فيه ، حتى هوى ودفن اتباعه القليلون جثته ، ولكن يوسف ابن عمر دل عليها فأخرجها وصلبها ثم حرقها وذرى رمادها فى الفرات (١) وانتهت بذلك ثورة أخرى من ثورات الكوفة .

وفر من المعركة بعد قتل زيد ابنه يحيى فاتجه متنكرا الى خراسان حتى وصلها ، وحط رحاله فى بلخ وتوارى بها فكتب يوسف بن عمر بذلك الى هشام ، فكتب هذا الى نصر بن سيار يحذره من يحيى ، وقد استطاع نصر أن يلقى القبض على يحيى ويودعه السجن ، ولكن يحيى استطاع أن يهرب من سجنه ويجد له بعض الانصار الذين التفوا حوله ، والعجيب أنه استطاع بجماعة لا تزيد عن مائة وعشرين رجلا أن يهزم جيشا يقوده عمر ابن زرارة القسرى عامل نيسابور ، وقتل عمرو فى المعركة فكبر شأن يحيى

---

(١) انظر اليعقوبى ج ٣ ص ٤٦ وما بعدها والطبرى ج ٥ ص ٤٨٢ وما بعدها والفخرى لابن طباطبا ص ١١٢ وما بعدها .

وكثر أتباعه وسلاحه وأصبح خطرا يهدد الأمويين وكان ذلك فى عهد الوليد ابن يزيد ، فاضطر نصر بن سيار أن يواجهه بنفسه بجيش كثيف بالقرب من مرو ، ودارت معركة عنيفة انتهت بقتل يحيى وصلبه ثم حرقه على نحو ما فعل بأبيه (١) .

وانتهت ثورات الزيدية بذلك ولكن انتقال ميدان الثورات الشيعية من الكوفة الى خراسان كان ذا أثر كبير جدا ، فلم تكن فى خراسان خيانة الكوفة ، ولذلك لم تعدأ خراسان ، وظلت تكافح الأمويين حتى أسقطتهم على نحو ما ذكرنا عند الكلام عن قيام الدولة العباسية فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة .

(١) اليعقوبى ج ٣ ص ٥٧ و ٦١ والطبرى ج ٥ ص ٥٣٦ — ٥٣٨ .

عبد الله بن الزبير

هل كانت لعبد الله بن الزبير فلسفة ؟

وهل تعد الحركة التى قام بها ثورة فكرية ؟ وهل تعد ثورة عسكرية ؟

الجواب عن هذه الأسئلة يوجه حكمنا على عبد الله بن الزبير فى نتائج الحركة التى قام بها ، لقد قال كثير من الباحثين إن عثمان أخطأ ، وقلنا عند حديثنا عن عثمان تعبيرا قصيرا ولكنه بالغ الأهمية ، وهو أنه كانت لعثمان فلسفة اتبعها ، أى أنه اجتهد ووصل الى رأى رضى به واقتفاه (١) . والمجتهد قد يخطىء وقد يصيب ، وهذا يخفف من ذنب عثمان ان كان فيما عمل ذنب ، أو لا يلحق به ذنبا أصلا أن كان فى طبيعة ما قام به ما يستدعى الذنوب .

فهل كانت لابن الزبير فلسفة ؟ وهل كانت ثورته قائمة على مبادىء وفكر ؟ واذا لم تكن كذلك فهل كانت ثورة عسكرية فحسب ؟

ان الاجابة عن هذه الأسئلة يستدعى ألوانا من البحث والعرض والأدلة سنحاول أن نقوم بها ، ولكنا بادىء ذى بدء نسارع فنقرر أنه لم تكن لعبد الله بن الزبير فلسفة عامة على الاطلاق ، وأن ثورته لم تكن ثورة من أجل مبادىء ، بل أنها لم تكن كذلك ثورة عسكرية .

تعال بنا نبدأ الحديث من أوله :

عبد الله بن الزبير موضوع حديثنا الآن ولد بالمدينة بعد سنة تقريبا من الهجرة ، وهو أول مولود للمهاجرين بالمدينة ، ولذلك فرح به المسلمون فقد كان هناك ادعاء بأن عقما أصاب المهاجرين ، وهو عريق النسب من جهة أبيه وأمه ، ونشأته عالية رفيعة ، فوالده الزبير بن العوام أحد السابقين الأولين واحد الابطال المشاهير فى الجزيرة العربية ، قيل له مرة وقد ضرب عدوه بسيفه ضربة قسمته نصفين : ما أحد سيفك !! فغضب وقال : ليس

---

(١) انظر موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية للمؤلف .

السيف ولكن اليد التى ضربت به (١) . وأمه أسماء ، المرأة التى اشتهرت بالحكمة والفصاحة وثبات الجنان ، وجده لأمه من خير الأجداد ، انه طيب الذكر أبو بكر الصديق الذى تجمعت له أكرم الصفات وأسمى الخلال ، وجدته لأبيه صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول صلوات الله عليه ، أسلمت وهاجرت ، وخالته عائشة زوجة الرسول الحبيبة (٢) ،ولما لم يكن لعائشة أولاد فقد أخذته من أختها أسماء فنشأ فى بيت الرسول وأصبح كأنه ابن عائشة حتى كان يقال لها : أم عبد الله .

هل بعد هذا نسب ؟ وهل فوق تلك نشأة ؟ اللهم لا .

ولكن علماء النفس والأخلاق لا يتركون الغريزة ظهريا ، ويرون أن البيئة قد تغير من الغريزة ولكنها لا تزيلها ، فما هى أبرز الغرائز فى عبدالله؟ لقد أجمعت كل المراجع التى بين أيدينا على أن ابن الزبير كان بخيلا كزا ممسك اليد ، ولقد أوردنا من قبل ما ذكره عبد الملك بن مروان عن بخله ، ولم يغير سخاء أبى بكر وقناعة الرسول ، من خلق عبد الله ، وأخذ عبد الله من الجو الذى انحدر منه والذى عاش فيه خصلة كان فيها ردّاه . تلك أنه عاش فى بيوت الرياسة والسؤدد ، بيت الرسول ، ولما مات الرسول اتجهت السلطة الى جده أبى بكر ، وبعد وفاة عمر كان أبوه من المرشحين الستة للخلافة وكان له فيها اطماع وهذا دفع عبد الله الى حب الرياسة وتمنى السلطان ، وغريزة حب السلطة طبيعية ، ونمتها هذه الظروف فى بطل حديثنا ونماها كذلك ذكاء فيه وورع ، واحساس بالكمال أو ما يقرب من الكمال .

ولكن قامت دونه حواجز كما قامت دون أبيه ، فبنو هاشم وبنو أمية أعرق محتدا وأوسع جاها وأكثر أنصارا ، ومن هنا دب فيه عامل الغيظ ، واذا اجتمع الغيظ والذكاء والحرمان كانت النتيجة نارا ملتهبة يمتد لهيبها فيحرق الكثير .

وهذا هو المفتاح الذى يبرز لنا حقيقة هذا الرجل : طموح للرياسة ،

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١ : ٢١٢ .
(٢) النووى : تهذيب الاسماء واللغات القسم الاول ج ١ ص ٢٦٦—٢٦٧

وادراك أن دونها عقبات ، وعجز عن مقابلة هذه العقبات وجها لوجه ، وحيل مختلفة فيها حنق وغيظ لازالة هذه العقبات من طريقه •

وقد بدأت هذه الأطماع فى عبد الله مبكرة ، وقد تحدثنا فى الجـزء الأول من هذه الموسوعة عن الدور الذى لعبه ليدفع خالته عائشة الى حرب الجمل (١) رغبة أن يزيل من طريقه على بن أبى طالب الذى كان دون مراء يفضل عبد الله بن الزبير فى كل شىء ، وكانت معركة غاشمة ظالمة سـقط فيها الآلاف رجاء تحقيق هذا الطموح دون جدوى ، ومن الواضح أن هذا الرجل لم يواجه المشكلة بصراحة ، بل استتر خلف خالته ، ودفعها الى هذا الأتون ، واستتر كذلك خلف أبيه وخلف خاله طلحة بن عبيد الله •

والانسان يحار فى تحليل هذه الحادثة العجيبة ، ويدهش كيف جاز لرجل أن يدفع خالته لمثل هذا الصراع ، وليست لنا خالات مثل عائشـة ، ومع هذا لا نرى من يدفع خالته الى مثل هذا اللظى ليحقق لنفسه أملا ، وقد قلنا من قبل أن ابن الأشتر كبَّ ابن الزبير على وجهه فتظاهر هـذا بالموت وترك خالته وحدها تعانى قيادة حركة لا مطمع لها فيها •

كيف بنى ابن الزبير مجده ؟

ولم ينجح أمله على كل حال فى هذه المرة وبدأ يبحث عن أمل جـديد وظهر هذا الأمل ، فقد قتل على ومات معاوية ، وآل الأمـر الى طبقة ابن الزبير من أبناء الصحابة ، لقد تولاه يزيد ببيعة من أبيـه وكان ظاهرا أن الناس لم يحبوا أن يجتمعوا على يزيد ، فليكبر الأمل فى نفس عبـد الله ، ولكن كيف السـبيل الى ذلك وهناك الحسـين ؟ وله من محتـده واسرته وشيعته ما يجعله أحق بالأمر منه ، وقد ذاق عبد الله الهزيمة عندما حارب عليا فأنى له بحرب الحسين ؟

لقد لجأ عبد الله الى حيلة سبق أن شرحناها وهى أنه دفع الحسين ليستجيب لنداء الكوفة وهو يعرف طبيعة الغدر فى رجالها وطبيعة الخيانة ، وسقط الحسين ، فقوى الأمل فى نفس عبد الله • وجدت ظـروف أخرى

---

(١) انظر هذا الحديث فى الجزء الاول من هذه الموسوعة للمؤلف .

جعلت كفته ترجح ، فقد هزت مصيبة كربلاء بنى هاشم فأخلدوا حينا الى الدعة ، وجرت موقعة الحرة التى سقط فيها كثير من أبنـاء المهاجـرين والأنصار فزاد سخط النـاس على يزيد ، وهوجمت مكة ورميت الكعبـة بالمنجنيق ، ومات يزيد ، وضعف ابنه معاوية عن تولى الأمر ، وانقسمت دمشق على نفسها ، وكل هذه الظروف جنى ثمارها عبد الله بن الزبير •

فلنبرز مرة أخرى أن عبد الله لم تكن له موهبة حصل بها على ماحصل عليه ، وانما هو عطاء الأقدار ، فابن الزبير لم يقم بثورة عسكرية دبرها وقادها ، وانما هى ثورات فى الكوفة والبصرة والمدينة لأسباب متعددة ، ثم قسوة عنيفة أخمد بها يزيد هذه الثورات ، فلما مات يزيد وانقسم الأمويون على أنفسهم حانت للرجل الرابض فى مكة الفرصة التى ينتظرها فتلقاهـا وبنى مجده على أساسها ، ومن الواضح أنه لم يخرج مرة لقيادة جيش ، ولم يجازف مرة ليحمى ما حصل عليه من ملك ، كما سـنرى فيما بعـد موقفه مع الحصين بن نمير ، وانما بقى فى مكة ، وكانت ترد له البيعـة من هنا ومن هنـاك ، ولا شك أن كفته تشيل اذا قارناه بنـده عبد الملك بن مروان الذى طُلِبَ اليه أن يكف عن قيادة الجيوش فأبى وألقى بنفسه فى خضم الصراع •

بقيت نواح أخرى جديرة بالايضاح فى حياة هـذا الرجل نذكـرها فيما يـلى :

أولا : لم تكن صلة ابن الزبير طبيعية حتى بأقرب الناس اليه ، فقـد كان أخوه عمرو فى صفوف أعدائه ، كان قائد جيش أموى حارب عبد الله • وانتهى أمره بأن قتله عبد الله ، وكان أخوه مصعب سيفا بتّاراً ولكنه لم يسلم من عبد الله ، وقد خذله عبد الله كما سنرى بعد قليل (١) وقد تركه أولاده وانضموا لجيش الحجاج مما لا يعـرفه خلق العـرب فان أولاد مصعب لم يقبلوا أن يتركوا أباهم فى محنته على الرغم أن أباهم حثهم على ذلك ، وفضلوا أن يموتوا بين يديه •

---

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ١٠ •

ثانيا : كان الرجل ممسكا كزا واذا جاز لهشام بن عبد الملك مثــلا أن يكون بخيلا فلا يجوز ذلك لعبد الله بن الزبير لأن هذا يكوّن ملكا وطبيعة تكوين الملك يحتاج الى السخاء ، ومن العجيب أنه كان كزا حتى فى أحرج الأوقات ، وحين كان الدينار يكسب لصاحبه النصر •

ثالثا : هناك رواية يرويها بعض المؤرخين عن عبــد الله بن الزبير ، وهى إن صحت كان عبد الله بن الزبير أنانيا الى أبعد حدود الأنانية ، فقد روى أن عبد الله لما هدم الكعبة أخذ الحجر الأسود فوضعه فى بيته ،فلمــا بلغ البناء الى موضع الحجر أمر فحفر له الحفار على قدره ، ثم أمر ابنه عبادا أن يأتى بالحجر فيضعه فى مكانه عندما يكون الناس فى صلاة الظهر مع عبد الله ، وأطال عبد الله الصلاة بالناس ليعطى ابنه فرصة الاستقلال بهذا العمل ، فلما أتم عباد وضع الحجر كبر فختم أبوه الصلاة ، وقد غضب المسلمون لهذا التصرفوقالوا : ما هكذا فعل الرسول ، ولقد حكمته قريش فجعل لكل قبيلةٍ نصيبا (١) •

ومن الأنانية ما يروى أنه هدد بالحجر على عائشــة لأنهــا أكثرت الصدقات ، وكان ذلك منه طمعــا فى أن يئول له ثراؤها ، وقد أقســمت عائشة ألا تكلمه لهذا السبب وقد أوردنا هذه القصة فى الجزء الأول من هذه الموسوعة (٢) •

رابعا : استغل عبد الله بن الزبير ضــحايا أهل البيت ، فلما تقــدم أمره اضطهدهم وقسا عليهم وتطور فى ذلك ــ اذا صح ما يقوله اليعقوبى الى درجة تهز اسلامه كما سنرى فيما بعد ، أما أنه بنى مجده على أشلاء البيت فيوضحه لنا خطابه الذى ألقاه عقب مقتل الحسين ، وقد رواه الطبرى وفيه يقول : ان أهل العراق غدر فجر ، وان أهل الكوفة شرار أهل العراق ، وانهم دعوا حسينا لينصروه فلما قدم عليهم ثاروا عليه • وعرضــوا عليه الاستسلام لابن ســمية أو الحرب ، فاختار الميتــة الكريمة على الحيــاة الذميمة ، فرحم الله حسينا وأخزى قاتل حسين ، أفبعد الحسين نطمئن الى

---

(١) تاريخ اليعقوبى جـ ٣ ص ٧ والازرقى : اخبار مكة ص ١٤٣ .
(٢) انظرها كذلك فى المحلى لابن حزم جـ ٨ ص ٢٩٢ .

بنى امية أو نقبل لهم عهدا ؟ لا ولا نراهم لذلك أهلا ، أما والله لقد قتلوه طويلا بالليل قيامه ، كثيرا فى النهار صيامه ، أحق بما هم فيه منهم وأولى به فى الدين والفضل ، أما والله ما كان يستبدل بالقرآن الغناء ، ولا بالبكاء من خشية الله الحداء ، ولا بالصيام شرب المدام ، ولا بالمجالس فى حلق الذكر الركض لطلاب الصيد ، فسوف يلقون غيا (وكان فى ذلك يعرض بيزيد) فثار اليه السامعون ، وقالوا له : أيها الرجل أظهر بيعتك فانه لم يبق أحد بعد الحسين ينازعك هذا الأمر وكان ذلك بدء أمره (١) .

أما اضطهاده لبنى هاشم بعد أن تقدم أمره ومدى هذا الاضطهاد فيرويه اليعقوبى بقوله : وتحامل عبد الله بن الزبير على بنى هاشم تحاملا شديدا ، وأظهر لهم العداوة والبغضاء ، حتى بلغ ذلك منه أنه ترك الصلاة على محمد فى خطبته ، فقيل له : لم تركت الصلاة على النبى ؟ فقال : ان له أهل سوء يشرئبون لذكره ويرفعون رءوسهم اذا سمعوا به ، وأخذ ابن الزبير محمد بن الحنفية وعبد الله بن العباس وأربعة وعشرين رجلا من بنى هاشم ليبايعوا له فامتنعوا فحبسهم ثم نفاهم نفى ابن عباس الى الطائف وظل بها حتى مات ، ونفى محمد بن الحنفية الى رضوى فظل بها حتى مات أيضا ، وانتهك حرمة الحرم فأزعج من استجار به (٢) .

خامسا : لقد حاول الرجل أن يستسلم الى الحجاج ، ولولا أمه لفعل ذلك ، وتلك خطيئة كبرى لا يعرفها المجاهدون وأصحاب المبادىء وقادة الثورات ، فهى رضا بالدنية من أجل الحياة الفانية .

ونتيجة هذه الدراسة أنه لم تكن لهذا الرجل فلسفة ، ولم تكن ثورته ثورة مبادىء ، بل لم تكن ثورة عسكرية أيضا ، وأنه لذلك مسئول عن الدماء التى أراقها ليحقق لنفسه حلما وليبنى لنفسه مجدا . ولم يكن له من تصرفاته ولا من عبقريته ما يستطيع به أن يواجه الأحداث أو يملأ المنصب الكبير الذى حاول أن يناله .

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٣٦٤ .

(٢) ابن عبيد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٤١٣ ويذكر ابن عبد ربه أن الذى أخرج بنى هاشم من السجن رجال بعث بهم المختار بن أبى عبيد « وانظر كذلك الطبرى ج ٤ ص ٥٤٤ — ٥٥٥ .

والآن نستطيع أن نذكر بايجاز الخطوات التاريخية المتسلسلة للثورة التى قام بها ابن الزبير .

قلنا من قبل إن الناس دَعَوْه عقب قتل الحسين وعقب خطبته ، ليعلن نفسه خليفة ، وكان هذا هو الأمل الذى يتطلع اليه ، فسارع وأعلن خلافته وخلع يزيد وبايع له أهل مكة ، وكان ذلك سنة احدى وستين (١) .

وفى نفس هذا الوقت أو بعده بقليل أظهر أهل المدينة سخطهم على يزيد ثم ثاروا عليه وعزلوه وأخرجوا بنى أمية من المدينة كما قلنا من قبل والعجيب أن أهل المدينة خلعوا يزيد ولكنهم لم يبايعوا لابن الزبير ، وذلك بلا شك دليل سخطهم عليه وعدم اطمئنانهم اليه ، وعلى اثر ثورة المدينة تمت موقعة الحرة حيث أهلك جيش الأمويين بقيادة مسلم بن عقبة خيرة أبناء المهاجرين والأنصار ، وأباح المدينة لرجاله ثلاثة أيام كما سبق القول، والعجيب كذلك أن ابن الزبير لم يحرك ساكنا ، ولم يتقدم لمساعدة أهل المدينة فى صراعهم ضد بنى أمية ، وبقى فى مكة ينتظر دوره وزحف الجيش الأموى عليه ، وذلك فعل النعامة التى تغمض عينيها عندما يقرب منها الخطر ظانَّةً أن فى ذلك سلامتها مع أن فيه حتفها .

وزحف جيش الأمويين المنتصر من المدينة الى مكة ، وكانت قيادته قد آلت الى الحصين بن نمير بعد موت مسلم بن عقبة ، ونزل الحصين أعلى مكة وأرسل خيلا اسفلها ونصب عليها المجانيق وضربها بالحجارة واستمر حصاره لها طيلة الشهور الأربعة الأولى من سنة ٦٤ هـ حتى جاءهم الخبر بهلاك يزيد (٢) ، وفى تلك الأثناء احترقت الكعبة بسبب شرارة تطايرت اليها من النار التى كان يشعلها أنصار ابن الزبير (٣) .

ولما جاء الخبر بموت يزيد أوقف الحصين ضربه وفك حصاره والتقى بعبدالله بن الزبير وأَسَرَّ اليه قائلا : ان يكن هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر ، هلم نبايعك ، ثم اخرج معى الى الشام فان هذا الجند الذى معى هم وجوه أهل الشام وفرسانهم فو الله لا يختلف عليك اثنان ،

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ٣٦٢ .
(٢) الامامة والسياسة ٢ : ١٠ .
(٣) الطبرى جـ ٤ ص ٣٨٣ .

وتؤمن الناس ، وتهدر الدماء التى كانت يوم الحرة ، ولكن عبد الله رد عليه جهرا ردا قاسيا ، فقال الحصين له : قبح الله من يعدك داهية ، أكلمك سرا وتكلمنى جهرا . وأدعوك للخلافة وتعدنى القتل والهلكة ، ثم تركه وعاد للمدينة ، وندم ابن الزبير على الذى صنعه مع الحصين . فأرسل خلفه يطلب بيعته وأن يأخذ له البيعة من أهل الشام على أساس أن يبقى عبد الله فى مكة فرفض الحصين ذلك (١) .

وضعف معاوية بن يزيد عن حمل هذا العبء الثقيل الذى خلفه له أبوه ، واختلف بنو أمية على الخلافة ، وبدأت دلائل النصر تبدو لابن الزبير فقد حقق كثيرا من النجاح فى حربه ضد الخوارج(٢) ، وانهزم جيش ابن زياد الزاحف على العراق وقتله المختار ، ثم دارت الدائرة على المختار وصرعه مصعب ، واتسع ملك ابن الزبير حتى شمل مصر والكوفة والبصرة ومن بالقبلة من العرب وأهل الشام وأهل الجزيرة الا أهل الأردن (٣) .

بـدء النهـاية :

وبدأت نهاية الرجل تلوح عندما استقر الأمر لمروان بن الحكم فى الشام ، فقد سارع هذا وهزم أتباع ابن الزبير فى سوريا فى موقعة مرج راهط ، ثم سار الى مصر ومعه ابنه عبد العزيز فدانت له ، وجاء عبد الملك بن مروان بعد أبيه فبدأ زحفه الى الشرق وبدأ صراعه مع مصعب بن الزبير الذى كان واليا لأخيه على العراقيين ، وهزم مصعب وقتل عند نهر يقال له « الدجيل » سنة ٧١ هـ ولكن هزيمة مصعب فى الحقيقة كانت سياسية أكثر منها حربية . وقد أسهم أخوه عبد الله فى هزيمته ، يروى ابن قتيبة (٤) أن مصعبا جاء بعد قتل المختار حاجا ومعه رؤساء أهل العراق ووجوههم وأشرافهم ، فقدمهم الى أخيه قائلا : يا أمير المؤمنين ، لقد جئتك برؤساء أهل العراق وأشرافهم كل مطاع فى قومه ، وهم الذين

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٣٨٦ .

(٢) سيأتى الحديث عن موقف ابن الزبير من الخوارج عند كلامنا عن الخوارج .

(٣) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٤٠٨ .

(٤) الامامة والسياسة ج ٢ ص ٢٣ .

سارعوا الى بيعتك ، وقاموا باحياء دعوتك ، ونابذوا أهل معصيتك ، ونبعوا في قطع عدوك ، فهب لهم وأعطهم . فقال عبد الله : جئتني بعبيد أهل العراق وتأمر أن أعطيهم مال الله ، لا أفعل ، وأيم الله لوددت أني أصرفهم كما تصرف الدنانير بالدراهم ، عشرة من هؤلاء برجل من الشام . قال رجل منهم : علقناك وعلقت أهل الشام . ثم انصرفوا عنه وقد يئسوا مما عنده . لا يرجون رفده ، ولا يطمعون فيما معه ، فاجتمعوا وأجمعوا على خلعه وكتبوا الى عبد الملك بن مروان أن أقبل الينا .

هذا سبب من الأسباب التي هزمت مصعب ، وهناك سبب آخر هو طبيعة أهل العراق التي كانت تدفعهم دائما للغدر والخيانة في جميع الأحوال وسبب ثالث هو حيلة قام بها عبد الملك بن مروان ، فقد كتب لرؤساء جند مصعب يدعوهم للانضمام اليه ويعد كلا منهم الوعود الخلابة والمال والجاه والسلطان ، وكان ابراهيم بن الأشتر أحد هؤلاء ، فقد تلقى من عبد الملك كتابا مقفلا أدرك ابراهيم ما فيه فأخذه الى مصعب وتولى مصعب فتحه بنفسه . قال مصعب : انه يعدك بالجاه والمال اذا خذلتني . قال ابراهيم : وقد كتب بمثل ذلك الى كل القادة ، والرأي عندي أن تقتل هؤلاء القادة الخونة قبل أن يوجهوا الحرب ضدك . قال مصعب : ما كنت لأفعل ذلك حتى يستبين لي أمرهم . قال ابراهيم : فأخرى . قال مصعب : ما هي ؟ قال : احبسهم حتى يستبين لك ذلك . قال مصعب : ما كنت لأفعل . قال ابراهيم : فعليك السلام والله لا تراني بعد في مجلسك أبدا (١) ، أما القادة الآخرون فسرعان ماتخلوا عن مصعب في أحرج الأوقات ، ولما تحققت هزيمة مصعب وكان بجواره ابنه عيسى أرسل له محمد بن مروان رسولا يعطيه الأمان على أن يكف ، فقال مصعب : ان مثلي لا ينصرف عن هذا الموقف الا غالبا أو مغلوبا . فنادى محمد بن مروان عيسى بن مصعب أن هلم الي يا ابن أخي فما في الحرب الآن من فائدة . قال مصعب لابنه : ان عمك أمنك فامض له ، قال عيسى : والله لا تتحدث نساء قريش أني أسلمتك وتركتك وحدك للقتل ، وصرع عيسى بين يدي أبيه ، وبقي مصعب يكافح وحده حتى

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٤١٠ .

بن المطلب زائدة بن قدامه لثأر كان له عنده (١) ، ودانت العراق لعبد الملك ، وكان ذلك فى ذى القعدة سنة ٧٢ هـ .

ولم يبق أمام عبد الملك الا ابن الزبير فى مكة فأرسل له عبد الملك قائده البطل الحجاج بن يوسف فى عشرين ألفا من أهل الشام ، ولم يخرج ابن الزبير لمواجهة الجيش بل تحصن بالحرم ، فرماه الحجاج بالمجانيق ، وانفض الناس من حول بن الزبير وانفض من حوله ذووه وولداه حمزة وخبيب ، وكان لشدة بخله يجرى على أصحابه فى هذه الأيام نصف صاع من التمر ، فتثاقلوا عنه فقال لهم : أكلتم تمرى وعصيتم أمرى . وقد حاول هو أن يستسلم ، ولكن أمه صاحت به : لا تمكن عبيد بنى أمية منك ، ولضربة سيف فى عز خير من ضربة سوط فى ذل ، قال لها : يا أماه أنى أخاف أن قتلنى هؤلاء القوم أن يمثلوا بى . قالت : يا بنى ان الشاة لا تتألم للسلخ اذا ذبحت . ودنا منها ليعانقها فمست على جسمه الدرع فقالت له : ما هذا صنيع من يريد ما تريد . فخلع درعه وخرج يقاتل حتى قتل سنة ٧٣ هـ . وأرسل الحجاج رأسه الى عبد الملك وصلب جسمه . وبعد بضعة أيام خرجت أمه على الحجاج وهى عجوز عمياء فقالت له : أما لهذا الراكب أن ينزل ؟ فسأل الحجاج من هذه ! فقيل له أنها أسماء أم عبد الله ابن الزبير ، فأنزله الحجاج اكراما لها وأمر بدفنه (٢) .

وقد رآه عبد الله بن عمر وهو مصلوب فقال : يرحمك الله أبا خبيب ، لولا ثلاث كن فيك لقلت أنت أنت : الحادك (٣) فى الحرم ، ومسارعتك الى الفتنة ، وبخل بكفك ، وما زلت أتخوف عليك هذا المركب وما صرت اليه منذ

---

(١) الطبرى ٥ : ٨—٩ واليعقوبى ٣ : ١٠—١١ الامامةوالسياسة٢٣—٢٦

(٢) الطبرى واليعقوبى والامامة والسياسة وابن الاثير والفخرى .

(٣) هكذا فى الاصل ولعلها « لجاجك » اذ لا يمكن ان نصف ابن الزبير بالالحاد ، وربما قصد بالالحاد الانحراف الذى اوردناه من قبل عن توقف ابن الزبير عن الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فى الخطبة .

كنت أراك ترمق بغلات شهبا كن لابن حرب فيعجبك ، الا انه أسـوس لدنياه منك (١) •

وأغلب الظن أنه كان فى ابن الزبير غير هذه العيوب الثلاثة ، ولكنها عادة العرب لا يذمون بأكثر من ثلاث ، ولا يمدحون بأكثر من ثلاث فالثلاث الكريمة عندهم دليل تفوق ، والثلاث الدنيئة دليل تخلف •

مزيد من الدراسة عن عبد الله بن الزبير

خلال يناير سنة ١٩٧٧ كنت أستاذا زائرا بجامعة الامام محمـد بن سعود الاسلامية بالرياض ، والتقيت بطلاب هذه الجامعة ودارت مناقشات حول عدة موضوعات ، وقد كان عبد الله بن الزبير موضوعا لبعض هـذه المناقشات ، فقد قال لى أحد الطلاب انه يعتقد أننى قسوت على عبـد الله ابن الزبير فيما كتبت عنه بالجزء الأول والثانى من هذه الموسـوعة ، فهـو صحابى ولا يمكن أن نصفه بالبخل والأنانية و •••

وأجبت اجابات محددة كالآتى :

أولا — أنا لست صانع التاريخ ولكنى مدوّن" للتاريخ ، فاذا كانت المصادر تقرر أنه كان بخيلا التزمنا بأن نصفه بالبخل ، واذا كانت المصادر تجمع على موقفه من الحسـين ومن آل البيت كان علينـا أن نروى ذلك ، وهـكذا •

ثانيا — سألت طلابى : من هو الصحابى ؟ وأجاب بعضهم بأنه الذى التقى بالرسول وآمن به • وقلت أن هذا التعمـيم خاطىء فان كثيرين من الناس التقوا بالرسول وأعلنوا ايمانهم به ، ثم كانوا منافقين ، وبعضـهم

---

(١) اليعقوبى جـ ٣ ص ١٢ •

لترتد عن الاسلام فى حياة الرسول أو بعد وفاته ، وتخلصت من ذلك الى تقرير الحقائق التالية :

١ — الذين التقوا بالرسول وأعلنوا ايمانهم به لم يكونوا أبدا فى درجة واحدة من المعارف والصفات والمواهب .

٢ — روى عن الرسول صلوات الله عليه أنه تحدث لمعاصريه عن صحابته فقال : .. بأيهم اقتديتم ، ومعنى هذا انه يحث معاصريه على الاقتداء بصحابته ، فكأن « الصحابة » طائفة خاصة تعمقت صلتهم بالرسول ، وقوى انتفاعهم به . وبالمبادىء السامية التى جاء بها ، وقد كانت الوفود تفد للرسول ، وتعلن ايمانها بالاسلام ، وتعيش بالمدينة بضعة أيام ، فاذا حان موعد عودتها بعث الرسول بعض صحابته معهم ، ليقرئهم القرآن ويعلمهم ويؤمهم فى الصلاة ... وفى ضوء هذا التفكير يمكن أن نتعرف على عبد الله بن الزبير ، فقد توفى الرسول وهو فى التاسعة من عمره ، وكان الرسول فى سنِى ما بعد الهجرة منشغلا بين الغزوات وتبليغ التشريع وبناء المجتمع الجديد ، وبالتالى لم تطل لقاءاته مع ابن الزبير الذى كان بين الطفولة ومطلع الصبا طيلة معاصرته للرسول

وربما قنع هؤلاء الطلاب أو أكثرهم بذلك المنطق ، ولكن بقى فى نفسى شىء ، فأنا حريص كل الحرص على الدقة ما استطعت السبيل لذلك وبخاصة أن أحد الطلاب اعترض على الاعتماد على اليعقوبى لتشيعه واحتمال التحامل منه .

وظل هذا الموضوع يشغلنى حتى عدت الى القاهرة ، وفى القاهرة أثرت الموضوع ، وجمعت المصادر المتصلة بابن الزبير لأتدارسه من جديد لعلّى أصل الى أدق الحقائق التاريخية بكل الانصاف والتجرد ، ويشهد

الله أننى كنت مستعدا لأى اتجاه تدفعنى له الدراسة الجديدة ، وقد جعلت من المبادىء التى اتخذتها لاعادة الدرس ألا أعتمد على اليعقوبى الا اذا انفرد بذكر قضية معينة ، وفى هذه الحال نذكرها بصيغة الاحتمال لا بصيغة التسليم والقبـــــول .

وبدأنا الدرس بصبر وأناة ، وأقرر بدقة وعمق أننا لم نجـد فضائل ومفاخر تنسب لابن الزبير خلال الفترة الطويلة التى تمتد من عهد الامام على الى عبد الملك بن مروان ، فيما عدا اشارات الى ورعة وكثـرة صلاته وتعبده وهى أشياء نسلم بها ، أما علاقاته بأهله وبآل البيت وبالناس ، فقد وجدنا عنها مزيدا من الروايات نقدم فيما يلى بعضها :

بخـــل ابن الزبيـــر :

يقول المسعودى (١) : ان ابن الزبير أظهر الزهد فى الدنيا والعبادة مع الحرص على الخلافة ، وكان يقول : أنا العـــائذ بالبيت والمســتجير بالرب ، مع شـــحه بالدنيا على ســـائر الناس ، وفى شحه يقول أبو وجرة مولى الزبير :

ان المــــوالى أمســـت وهى عاتبـــــة
على الخليفـــة تشـــكو الجـــوع والحربا

ويذكر ابن كثير(٢)أن الثورى يروى عن عبد الله بن أبـى بشير عن عبد الله بن مساور أنه قال : سمعت ابن عباس يعـــاتب ابن الزبير عـــلى البخل ويقول له : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . ليس بمؤمن من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم .

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٩٩ .
(٢) البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٣٩ .

(٤) ويقول ابن طباطبا (١) ان عبد الله بن الزبير كان قد إعتصم بمكة وبايعه أهل الحجاز والعراق ، وكان عظيم الشح ولذلك لم يتم أمره .

وذكر ابن الأثير (٢) أنه عندما اشتد القتال بين ابن الزبير وبين الحجاج ، غلت الأسعار عند ابن الزبير غلاء باهظا ، وأصاب الناس مجاعة شديدة ، مع أن بيوت ابن الزبير كانت مملوءة قمحا وشعيرا وذرة وتمرا وكان ابن الزبير يحفظ ذلك ولا ينفق منه ليزيل مجاعات الناس .

ويروى ابن شاكر الكتبى (٣) : ان على بن زيد قال عن عبد الله ابن الزبير انه كانت فيه صفات لا تصلح معها الخلافة ، كان بخيلا ، ضيق العطن ، سيء الخلق ، حسودا ، كثير الخلاف .

سوء علاقته ببعض أهله :

كان يزيد بن معاوية قد ولى الوليد بن عتبة بن أبى سفيان المدينة، فسرح منها جيشا الى مكة لحرب ابن الزبير بقيادة عمرو بن الزبير أخى عبد الله ، وكان عمرو منحرفا عن عبد الله ، وقد هزم جيش عمرو ، وظفر عبد الله بن الزبير بأخيه ، فأقامه للناس بباب المسجد الحرام مجردا ، ولم يزل يضربه بالسياط حتى مات (٤) .

---

(١) الفخرى فى الاداب السلطانية ص ٨٧
(٢) الكامل فى التاريخ : أخبار سنة ٧٣ هـ
(٣) فوات الوفيات : جـ ١ ص ٤٤٨
(٤) المسعودى : مروج الذهب : ص ٩٩ — ١٥٠

وقد وردت هذه القصة ببعض الزيادات والتفاصيل فى ابن الأثير[١] وابن كثير [٢] .

وقد ذكرنا من قبل أنه خذل أخاه مصعب بن الزبير مع بطولته ومكانته العسكرية ، وأن ولديه تركاه وانضما لجيش الحجاج .

ســـوء علاقاته بآل البيت :

يروى المسعودى [٣] : أن ابن الزبير سأل ابن عباس قائلا أنت الذى تؤنبنى ؟ فقال ابن عباس : نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ليس المسلم الذى يشبع ويجوع جاره . فقال ابن الزبير : انى لأكتم بغضكم آهل البيت منذ أربعين سنة .

ويذكر ابن شاكر الكتبى [٤] ان عبد الله بن الزبير أخرج محمد بن الحنفية من مكة ، ونفى عبد الله بن عباس الى الطائف .

ويروى المسعودى [٥] كذلك أن عبد الله بن الزبير قبض على الحسن ابن محمد بن الحنفية ، وحبسه فى السجن المعروف بسجن غارم ، وهو سجن موحش مظلم ، وأراد قتله لولا أن الحسن احتال وتخلص من السجن وهرب مخترقا الجبال حتى وصل « منى » وبها أبوه محمد ابن الحنفية . وفى ذلك يقول ابن كثير :

---

(١) جـ ٤ ص ١٧

(٢) جـ ٨ ص ١٤٩

(٣) مروج الذهب : جـ ٢ ص ١٠٢

(٤) فوات الوفيات : جـ ١ ص ٤٤٨ .

(٥) مروج الذهب : جـ ٢ ص ١٠٠ .

تقــــول مــراء أنــت بالبيــت عـــــائذ
بـل العـــائذ المظــلوم فى ســــجن غــارم

ويـذكر المسعودى كذلك أن ابن الزبير عمد الى من بمكة من بنى هاشم فحصرهم فى الشعب ، وجمــع لهم حطبا عظيما لو وقعت فيـــه شرارة من نار لما سلم من الموت أحد ، وكان فيهم محمد بن الحنفية .

ويستمر المسعودى ليذكر أن المختار بن أبى عبيد أرسل خيلا عظيمة بقيادة أبى عبد الله الجدلى ، لانقاذ آل البيت من الشعب قبــل أن يهلكوا وقد خاف أبوعبد الله أن يعرف ابن‌الزبير خبر هذا الزحف فيعجل بالقضاء على بنى هاشم ، فاختار ثمانمائة ، وزحف بهم فى هدوء ، فما شعر ابن‌الزبير الا والرايات تخفق فوق رأســـه . قال أبو عبد الله : فجئنا الى بنى هاشم بالشعب فأخرجناهم ، وقال لنا محمد ابن الحنفية : لا تقتلوا الا من قاتلكم فلما رأى ابن الزبير جموعنا وقواتنا لاذ بأســـتار الكعبة وقـــال : أنا عائذ بالكعبة (١) .

ويتحدث ابن الأثير والمسعودى أحاديث طـــويلة عن الجهـــود التى بذلها ابن الزبير ليحسّن للامام الحسين أن يخرج من مكة الى الكوفة ليخلو له الحجاز ، ويؤكد هذان المؤلفان أن ابن الزبير لم يكن مخلصا فى نصـــحه ذلك للحسين ولم يرد له الخير (٢) .

ابن الزبير وموقعــة الجمل :

تحدثنا فى الجزء الأول من هذه الموسوعة عن الدور الذى قـــام به

---

(١) المرجع السابق ونفس الصفحة
(٢) الكامل جـ ٤ ص ١٥ ــ ١٦ ومروج الذهب جـ ٢ ص ٨٧

عبد الله بن الزبير حتى حدثت موقعة الجمل التى سقط فيها آلاف المسلمين ونورد هنا بعض الروايات التى تتصل بموقعة الجمل ، حتى تكمل الصورة عن عبد الله بن الزبير :

ماء الجوأب : ذكرنا عند الحديث عن موقعة الجمل أن السيدة عائشة توقفت فى الطريق عندما نبحتها كلاب وقيل لها أنها بموقع يسمى « الجوأب » ... ويروى ابن الأثير (١) أن عبد الله بن الزبير قال لها أن ذلك المكان ليس الحوأب ، وأن من قال ذلك فقد كذب ، فلما تمسكت السيدة عائشة بموقفها جاءها عبد الله من طريق آخر ، اذ صرخ قائلا : النجاة النجاة ، لقد أدرككم على بن أبى طالب ، فارتحلوا الى البصرة .

الزبير والعودة قبل معركة الجمل :

عندما ذكر الامام على الزبير بقول الرسول له : ستحاربه وأنت له ظالم أصر هذا على ترك القتال والعودة ، فقال له ابنه عبد الله لماذا تتركنا ؟ فقال يا بنى : ذكرنى أبو الحسن بأمر كنت قد نسيته . فقال لا والله ولكنك فررت من سيوف بنى عبد المطلب ، فانها طوال حداد تحملها فتية أنجاد . قال : لا والله ، ولكنى ذكرت ما انسانية الدهر فاخترت العار على النار أبالجبن تعيرنى لا أبالك ثم أمال سنانه وشد فى الميمنة . فقال على أفرجوا له فقد هاجوه ثم رجع فشد فى المسيرة ، ثم رجع فشد فى القلب ، ثم عاد الى ابنه فقال : أيفعل هذا جبان ؟ ثم مضى منصرفا (٢) .

---

(١) الكامل ج ٣ ص ٨٢

ينكر القاضى ابو بكر بن عبد العزيز حديث الجواب ويقرر أن الرسول لم يقل هذا الحديث ، ولا جرى هذا الباطل ...

(انظر العواصم من القواصم ص ١٦١) وقد روى الطبرى والمؤرخون من بعده هذا الحديث ولكن الشيخ محب الدين الخطيب يجرح الرواة أو يصفهم بأنهم مجهولون .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٠

اختفاء عبد الله بن الزبير بعد معركة الجمل :

بعد أن سقط الآلاف فى معركة الجمل هتف بعض النسوة فى وجه على بأنه قاتل الأجنة فقال على : لو كنت قاتل الأجنة لقتلت من فى هذا البيت. وأشار الى بيت ذكر انه يعرف أن به مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عامر ، ولكنه لا يريد بهم السوء ، وقد خاف أتباع علـى أن يأخذهم هؤلاء على غرة فأمسكوا بقوائم سيوفهم استعدادا لما قد يحـدث (١) .

ولما عرفت السيدة عائشة أن عليا يعرف مخبأ عبد الله بن الزبير طلبت من على أن يؤمنه فاستجاب لها وأمنه (٢) .

* * *

هذا هو عبد الله بن الزبير بكل الدقة التاريخية والحيـدة ، ولله فى خلقه شـئون .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٤
(٢) المسعودى السابق ونفس الصفحة .

الخــوارج

لون جديد من الحركات الفكرية والثــورية التى حــدثت فى الدولة الأموية والحديث عن الخوارج سيشمل ــ كما اتبعنا فى حديثنا عن الشيعة ــ أفكارهم وتاريخهم ، ولكنا هنا نتساءل هل نبــدأ حديثنا عنهــم بشرح أفكارهم ثم نتحدث عن تاريخهم كما سرنا عند الكلام عن الشيعة ؟ أو نبدأ هنا بذكر تاريخهم ثم نتلوه بشرح أفكارهم ؟

عندي أن النهج الثانى أكثر ملاءمة للخوارج ، فسنرى أن تاريخهم كان أقدم من أفكارهم ، لقد ثاروا عَلَى عَلِيٍّ ثم حاولوا أن يجدوا سببا لثورتهم ، وطالما أعياهم العثور على السبب فعادوا الى على ، ثم عاودهم الحنين الى الانشقاق فعادوا ينشقون عليه ، وذلك بخلاف الشــيعة الذين تكونت أفكارهم قبل أن تبدأ ثوراتهم وحركاتهم ، فاذا كان النهــج الأول لاءم الشيعة فأعتقد أن الثانى يلائم الخوارج .

والخوارج هم الاســم الغالب على هذه الطائفة وقد اشتق هــذا الاسم من الفعل « خرج » لأنهم خرجوا على على بعــد أن كانوا ضــمن أتباعه ، وهم يطلقون على أنفسهم « الشراة » أى الذين شروا آخرتهــم بدنياهم ، كما يطلق عليهم أيضا الحرورية نسبة الى حروراء وهو موضــع على الفرات بقرب الرقة نزلوا به إثر عودة علىٍّ وجيشه من صفين ولــم يريدوا أن يدخلوا الكوفة ، ومن الأسماء التى تطلق عليهم أيضا « المحكمة» أى الذين يقولون لا حكم الا الله .

وقد سبق أن تحدثنا فى الجزء الأول من هذه الموســوعة عن نشــأة الخوارج ولكنا كنا هناك نتحدث على خلافة على ، فاقتصرنا ــ فيما ذكرناه من حــديث الخــوارج على ما يتصــل بعــلى ، ونحن هنــا الآن نتحدث عن الخــوارج أنفســهم ، وذلك يقتضى أن نعــود للــكلام عنهم بشىء من التفصيل .

ففي موقعة صفين كاد على أن يحرز النصر ، ولكن معاوية حينما رأى نفسه أوشك أن ينهزم فى ميدان القتال لجأ الى الميدان الذى لا يجاريه على فيه ، وهو ميدان الدهاء والحيلة ، وكان مع معاوية داهية العرب عمرو بن العاص فصاح به معاوية : هلكنا يا ابن العاص فهلم مخبأتك فأشار عمرو أن يرفع الجنود المصاحف على أسنة الرماح وأن يصيحوا نريد تحكيم كتاب الله .

وأدرك على الخدعة ، ولكن سيوف جنده كانت قد كلت ، وكأنما كانوا ينتظرون هذه الصيحة بصبر وشيك النفاد ، فتراجع كثير منهم واستجابوا لرغبة أعدائهم ، وحاول على أن يحثهم على المضى فى الحرب حتى يكسبوا النصر الذى كان منهم قاب قوسين أو أدنى ، ولكن سلطان على على جيشه كان دائما ضعيفا كما أوضحنا ذلك عند الحديث عن على فلم يذعن هؤلاء له ، وأصروا على وقف القتال ، وتولى قيادة المتمردين الأشعث بن قيس الكندى ومسعر بن فدكى التميمى وزيد بن حصين الطائى ، وصاح هؤلاء بعلى : القوم يدعوننا الى كتاب الله وأنت تدعونا للسيف . فأجابهم على : أنا أعلم بكتاب الله ، انفروا الى بقية الأحزاب ... وحاول على أن يثنيهم أو على الأقل أن يرجىء الاستجابة الى طلبهم ليعطى قائده الأشتر فرصة يتوج بها انتصاراته على جيش معاوية ، اذ لم يكن قد بقى أمام الأشتر الا شرذمة قليلة من أهل الشام على وشك الهزيمة ، ولكن الأشعث بن قيس صاح بعلى : لترجعن الأشتر أو لنفعلن بك ما فعلنا بعثمان (١) ، فأرسل على الى الأشتر يستدعيه ولكن الأشتر أجابه : ليس هذه الساعة تزيلنى عن موضعى ، وقد رجوت أن يفتح الله لى فيها فلا تعجلنى . ولما عرف الأشعث وأصحابه إجابة الأشتر زادت ثورتهم واتهموا عليا بأنه الذى أوعز للأشتر بالاستمرار فى القتال ، وأطلت الفتنة ، فأعاد على الرسول للأشتر وقال له : ويحك : قل للأشتر أن يقبل فان الفتنة وقعت . فعاد رسول على وهو يزيد بن هانى يخبر الأشتر بذلك ولما أحس

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ١٠٥ .

يزيد التردد من الأشتر قال له : أتحب أنك ظفرت هنا وأمير المؤمنين يقتل أو يسْلَم هناك ؟ قال الأشتر : لا والله ، سبحان الله . قال يزيد : هو كذلك ، لقد هددوه بالقتل أو بدفعه لأهل الشام ان لم تعد . فعاد الأشتر وأوقف القتال (١) .

وهكذا انتصر الأشعث بن قيس ورفاقه (٢) ، ولكن هذا الانتصار كان مطلع فرقة ومطلع حروب قاسية ، فان الأشتر وأتباعه هاجموا هؤلاء المتمردين واغلظوا لهم القول وعدوهم خونة (٣) ، على أنه يبدو أن الغالبية من أصحاب على استطابت الى حين هذا الهدوء ونعمت بالراحة التى لم تكحل لهم عينا منذ مطلع خلافة على ، واستأذن الأشعث عليا أن يأتى معاوية ليسأله ماذا يريد برفع المصاحف ، فأذن له على أن يأتيه ، فلما جاءه قال معاوية : لنرجع نحن وأنتم الى ما أمر الله به فى كتابه ، تبعثون منكم رجلا ترضونه . ونبعث منا رجلا ، ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله لا يعدو انه ، ثم نتبع ما اتفقا عليه (٤) .

وبدأت بذلك مرحلة أخرى من الخلاف فى جيش على ، فقد أجمع أهل الشام رأيهم على اختيار عمرو بن العاص داهية العرب ، ورأى على أن يقدم عبد الله بن العباس ، ولكن أصحاب على أبوا عليه ذلك وقالوا ان ابن العباس قريب القرابة منك ، ضنين بأمرك ، فعرض علىّ أن يقدم الأشتر فصاحوا به : وهل سَعَّرَ الأرضَ غيرُ الأشتر ، والعجيب أن هؤلاء لم يسمحوا لعلى أن يختار شخصا قريب الصلة به ، وأصروا على أن يختاروا شخصا محايدا ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك مع معاوية وتركوه يختار شخصا تجتمع فيه كل الصفات التى تسبب رجحان كفته ، فهو قريب من معاوية ،

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٣٤ — ٣٦ .
(٢) سيأتى مزيد من ابراز دور الأشعث عند الكلام عن « سبب حركات الخوارج » بعد قليل .
٤ر٣٥ — ٣٦ .
(٣) انظر خطاب الأشتر لهؤلاء عقب عودته من ميدان القتال : الطبرى
(٤) المرجع السابق ص ٣٦ .

متحد معه فى المصالح ، ثم هو داهية من دواهى العرب . ليت شعرى كيف قبل على هذا الوضع الذليل ؟ ألم يكن فى مقدوره أن يتنازل عن خلافة لا سلطان له فيها ؟ وعلى كل حال فقد قدمت الأغلبية أبا موسى الأشعرى . فقال على لهم : لقد عصيتمونى فى أول الأمر فلا تعصونى الآن ، وليس أبو موسى بثقة لى،فقد فارقنى وخذل الناس عنى،ثم هرب منى حتى أمّنْتُه. ولكن أهل العراق أصروا على رأيهم ، فاستسلم على عن غير رضا (١) وحدد الطرفان دومة الجندل مكانا للاجتماع على أن يكون فى شهر رمضان من نفس العام (٣٧) وكتبت وثيقة بهذا الاتفاق (٢) .

وعاد الجيشان بعد أن استقر الرأى على التحكيم ، ولكن عودة جيش معاوية كانت تعتبر عودة ظافرة لنجاتهم من الهزيمة ، ولوحدة كلمتهم ، وللأمل فى المستقبل ، وكانت عودة جيش على تنبىء بهزيمة لا محيص عنها، فقد عادوا فى صراع وخلاف ومناوشات ، ووصل على الى الكوفة ولكن ببعض جيشه ، أما البعض الآخر فقد اعتزله وخرج عليه وعرج على قرية حروراء، ولم يرد هؤلاء أن يدخلوا الكوفة ، والعجيب أن هؤلاء كانوا ممن أكرهوا عليا على قبول التحكيم .

وذهب على الى هؤلاء الخوارج وحادثهم قائلا : أنشدكم الله ، هل علمتم أن أحدا كان أكره للحكومة منى ؟ قالوا : اللهم لا . قال أفعلمتم أنكم اكرهتمونى عليها حتى قبلتها ؟ قالوا : اللهم نعم . قال : فعلام خالفتمونى ونابذتمونى ؟ قالوا : انا أتينا ذنبا عظيما فتُبْنا الى الله منه ، فتب أنت الى الله منه ، واستغفره نعد اليك . فقال على : استغفر الله من كل ذنب . فرجعوا معه وكان عددهم حوالى ستة آلاف (٣) .

وأشاع هؤلاء فى الكوفة أن عليا اعتبر التحكيم اثما وندم عليه وعاد

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣٦ والامامة والسياسة ج ١ ص ١٢٦ — ١٢٧
(٢) الطبرى ج ٣ ص ٣٨ ، ٤٠ ، ٥٢ .
(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٢٨٨ .

عنه واستغفر الله منه . فجاء الأشعث بن قيس عليا وسأله عن ذلك فقال علي : من زعم أني رجعت عن الحكومة فقد كذب ، ومن رآها ضلالا فهو أضل منها . فخرج عنه الخوارج مرة أخرى ، فأرسل اليهم عبد الله ابن عباس فناظرهم ووضح لهم ما خفي عليهم .

قالوا له : ان عليا أتي عظيما حينما حكم الرجال في الدماء ولا حكم الا لله .

فأجاب : أما علمتم أن الله أمر بتحكيم الرجال في أرنب تساوي ربع درهم تصاد في الحرم ، وفي شقاق رجل وأمرأته ؟ وأما علمتم أن النبي أمسك عن القتال للهدنة بينه وبين أهل الحديبية ؟

قالوا : نعم ولكن علياً محا نفسه من خلافة المسلمين .

فأجاب : وكذلك فعل الرسول ، فقد محا اسمه من النبوة عند صلح الحديبية ولكنه ظل نبياً .

وقبل بعضهم رأي عبد الله بن عباس فرجع الى علي ، وهتف آخرون بعد أن أعياهم الحق : لا تحاجوا هذا ، فانه من القوم الذين قال الله فيهم « بل هم قوم خصمون » (١) ، وقال فيهم أيضا ، « وتنذر به قوما لدا » (٢) ، واستمر هؤلاء في انشقاقهم ولم يريدوا العودة الى علي (٣) .

وجاء أوان التحكيم ، واجتمع الحكمان بدومة الجندل ، ولم يكن أبو موسى كفئا لهذا العمل الخطير ، ولا كان يستطيع أن يكون نظيرا للداهية عمرو بن العاص ، وكان أهل العراق خلف أبي موسى غير متفقين في الرضا عنه كما كانوا متفرقي الكلمة ، وكان أهل الشام

---

(١) سورة الزخرف الاية ٨ .
(٢) سورة مريم الاية ٩٨ .
(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٧ ص ٣٨٩ .

خلف ابن العاص كالبنيان المرصوص ، وكانت نتيجة التحكيم تناسب هذه المقدرات ، كانت هزيمة وخدعة جازت على أبى موسى كما وصفناها فى الجزء الأول من هذه الموسوعة ، والذى يهمنا هنا أنها فتحت باباً جديداً فى الفرقة وقوّت جانب الخارجين على على ، ولم يعد هناك أمل فى عودة الخوارج اليه .

وربما جاز القول بأنه هنا تكوّن حزب الخوارج ، وبدأت أفكارهم تظهر وتتضح مشوبة بمبالغات عنيفة وصلت الى تكفير عثمان وتكفير أصحاب الجمل ، ثم تمادى هؤلاء فعبثوا بأموال الناس وبأرواحهم واستباحوا قتل كل من لم ينضم اليهم من المسلمين ، اذ عدوا من سواهم كفاراً ومرتدين ، وكان من ضحاياهم عبد الله بن خباب ، اذ لقوه وفى عنقه المصحف ومعه زوجته وهى حامل فقالوا له : ان هذا الذى فى عنقك يأمرنا بقتلك : ثم ذبحوه ، وبقروا بطن زوجته ، ولما طالبهم على بقتلته ليقتلهم فيه ، قالوا : كلنا شركنا فى قتله وأمروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبى فخرج بهم الى النهروان ، وهى كورة واسعة بين بغداد الحالية وواسط (١) . وكانت بيعة ابن وهب فى منزل زيد بن حصين ، وتولى بيعته زعماء الخوارج وهم عبد الله الكواء وعروة بن جرير بن عاصم (٢) ، وبدأ بذلك صراع الخوارج الحربى .

موقعة النهروان :

واضطر على ازاء ذلك أن يسير للخوارج بجيشه ، وخطب فيهم على يحثهم على الطاعة والعودة لرحابه وتقديم قتلة عبد الله بن خباب ، وذكرهم أنهم هم الذين أرغموه على قبول التحكيم ، فقالوا له مقالة شنيعة ، قالوا : انا كفرنا بتحكيمنا الرجال ، وتبنا الى الله

---

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٢٥٤ .

(٢) الامامة والسياسة ج ١ ص ٣٧ و ١٤٢ والشهرستانى : الملل والنحل القسم الأول حمص ١٠٧ — ١٠٨ والطبرى ج ٤ ص ١ : ٨٩ .

وعدنا الى الإسلام فاشهد على نفسك بالكفر وتب الى الله كما تبنا وعد الى الاسلام نعد اليك ، وسخر على من هذا الطلب الدنىء وقال لهم : أبعد ايمانى وهجرتى وجهادى مع رسول الله أشهد على نفسى بالكفر ؟ وما دخل الكفر لحظة نفسى منذ آمنت بالله فقالوا لن نخاطبك بشىء غير هذا وبيننا وبينكم الحرب ، فاستعد على لمحاربتهم ونظم جنده ، وقبل أن يلتقى الفريقان أمر علىٌّ أبا أيوب الأنصارى فرفع لهم راية أمان وناداهم : من جاء منكم الى هذه الرواية فهو آمن ، ومن دخل المصر فهو آمن ، ومن انصرف الى العراق فهو آمن ، ومن خرج من هذه الجماعة فهو آمن فانصرف بعضهم وبقى أكثرهم ، ووقف على بجيشه وقفة استعداد وتهيؤ ، ولكنه قال لأصحابه لا تبدءوهم بالحرب حتى يبدءوكم ، وسرعان ما شد الخوارج على أصحاب على فشد هؤلاء عليهم ، ولم تكن الا جولة سريعة حتى خر هؤلاء ، ويقول الثعالبى فى رواية ابن قتيبة (١) : والله ما لبثوا الا فواقاً حتى صرعهم الله كأنهم قيل لهم : موتوا فماتوا ، ويقولون انه لم ينج منهم الا عدد لم يبلغ العشرة ، وما قتل من جيش علىٌّ الا أقل من عشرة (٢) .

وموقعة النهروان ذات نتائج خطيرة أهمها أنه لم يعد هناك أمل فى عودة الخوارج الى صفوف على أو الى صفوف الجماعة على العموم ، وكان الخوارج يتذكرون ما حل باخوانهم فى النهروان فتشتد حماستهم وتتأجج أحقادهم ، ومن نتائج النهروان كذلك أن تفرق الذين نجوا من المعركة فذهب اثنان الى عمان ، واثنان الى كرمان ، واثنان الى سجستان ، واثنان الى الجزيرة وواحد الى اليمن ، وظهرت بدع الخوارج فى هذه المواضع منهم (٣) حيث انضم لهم جمهور من الساخطين .

---

(١) الامامة السياسة جـ ١ ص ١٤٤ .
(٢) الشهرستانى : الملل والنحل : القسم الأول ص ١٠٧ .
(٣) المرجع السابق .

نهـاية عـلى :

ودبر الخوارج مؤامرة للفتك بعلي بن أبى طالب ومعاوية وعمرو بن العاص ، ولكن هذه المؤامرة لم تنجح الا فى القضاء على على ، وكان قتله على يد عبد الرحمن بن ملجم ، وقد عد الخوارج ابن ملجم بطلا مجاهداً واعتبروا عمله هذا وسيلة تقربه الى الله وتضمن له الجنة ، وفى ذلك يقول عمران بن حطان أحد شعراء الخوارج :

يا ضربة من منيب ما أراد بها
الا ليبلغ عند العرش رضوانا

أنى لأذكره يوماً فأحسبه
أوفى البرية عند الله ميزاناً (١)

الخوارج فى عهد الدولة الأموية :

لئن عادى الخوارج علياً وكرهوه فقد كان عداؤهم لبنى أمية أشد وأعمق ، ولذلك نجد صراعهم يطول فى عهد الدولة الأموية ، ونجدهم فى كثير من الأحيان يظفرون ويكونون لأنفسهم سلطة ونفوذاً ، فقد استطاع خوارج العراق أن يستولوا على كرمان وبلاد فارس ويهددوا البصرة ، وقد تصدى لهم المهلب بن أبى صفرة وطال صراعه معهم ، ولولا انشقاقهم على أنفسهم لكان من المحتمل أن يكون لهم الظفر والفوز ، ومن أشهر قادة هذا الفرع نافع بن الأزرق وقطرى بن الفجاءة ، ويعرف هذا الفرع بالأزارقة ، وهناك فرع آخر من الخوارج نال نصيباً من التوفيق وان لم يصل الى مكانة فرع العراق ، ذلك هو الفرع الذى استولى على جنوب الجزيرة العربية والطائف ، ومن أشهر قادة هذا الفرع أبو طالوت نجدة بن عامر وأبو فديك .

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل القسم الأول ص ١٠٩ .

وسنذكر فيما يلى بعض التفاصيل لنشاط الخوارج فى عهد الدولة الأموية :

فى عهد معاوية :

كان تنازل الحسن بن على لمعاوية ، وبيعته وبيعة الحسين اليه ، سببين هامين لهدوء الشيعة فى أثناء عهد معاوية ، وقد دخل معاوية الكوفة وبايعه أهلها سنة ٤١ هـ عقب تنازل الحسن ، ولكن بقى عدو آخر لمعاوية أكثر من الشيعة اخلاصاً لفكرته وأكثر منهم استعداداً للتضحية ، ذلك من الخوارج ، وقد كان بين الخوارج وبين على نوع من الصلات ، فقد كانوا فى يوم من الأيام أتباعه وجنده ولذلك اعتزله بعضهم دون أن يحاربوه ، ولكن عداءهم لمعاوية كان عميق الجذور ، ولذلك أحسوا أن الواجب يدفعهم لمقاتلة هذا الغاصب ، الذى يعيش عيشة الملوك ، ويسكن القصور ، ويلبس الرياش ، ويتخذ الحجّاب .

ومن أجل هذا توالت ثورات الخوارج فى عهد معاوية ، ولعل أول من ثار فى عهد معاوية من الخوارج هو فروة بن نوفل الأشجعى فقد هتف فى الخوارج عقب تنازل الحسن لمعاوية ودخول هذا الكوفة قائلا : قد جاء الآن مالا شك فيه ، فسيروا الى معاوية فجاهدوه ، وقد أرسل اليه معاوية خيلا من أهل الشام فردها مهزومة ، وحينئذ صاح معاوية فى أهل الكوفة : لا أمان لكم عندى حتى تكفوا بوائقكم . فخرج أهل الكوفة يحاربون الخوارج ، فقال لهم الخوارج : ويلكم ما تبغون منا ؟ أليس معاوية عدونا وعدوكم ؟ دعونا حتى نقاتله فإن أصبناه كنا قد كفيناكم عدوّكم ، وإن أصابنا كُفيتمونا ولكن أهل الكوفة استمروا فى قتالهم حتى هزموهم (١) .

وفى العام التالى (٤٢ هـ) تجمع جرحى النهروان والذين اعتزلوا القتال يوم النهروان وتذاكروا صرعاهم الذين ماتوا للدفاع عن مبادئهم ، وجعلوا امارتهم الى المستورد بن علفة وحيان بن ظبيان

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ١٢٦ .

ومعاذ بن جوين ، وكانت القيادة للأول ، وتجمع حول هؤلاء عدد كبير من الخوارج وأصبح لهم سطوه ونفوذ واتعدوا على يوم يخرجون فيه ، ولكن والى الكوفة المغيرة بن شعبة استطاع أن يقبض على بعض زعمائهم قبل اليوم الموعود وفيهم حيان ومعاذ ، ولكن المستورد بن علفة الذى أعطاه الخوارج لقب أمير المؤمنين لم يقبض عليه ، فأعد العدة وخرج بأصحابه ، ولكن المغيرة أرسل له جيشاً كثيفاً بقيادة معقل ابن قيس فاستطاع هذا الجيش أن ينتصر عليهم بعد معارك طويلة (١) .

ولما تم الصلح بين معاوية وزياد بن أبيه عين هذا والياً على البصرة سنة ٤٥ هـ ، وبعد موت المغيرة سنة ٥١ هـ امتدت ولاية زياد فشملت الكوفة أيضاً ، وقد بذل زياد جهداً كبيرا فى حرب الخوارج حتى قلم أظفارهم وأضعف شوكتهم .

ولما مات زياد وتولى البصرة ابنه عبيد الله بن زياد سنة ٥٥ هـ بدأت حركات الخوارج تظهر من جديد ، ولكن عبيد الله قابلهم بشدة وصرامة لا تقلان عن شدة أبيه وصرامته ، فقتل منهم جماعة صبراً منهم عروة ابن أدية أخو أبى بلال مرداس بن أدية (٢) ، كما قتل فى الحروب منهم عدداً كبيراً منهم أبو بلال مرداس (٣) سالف الذكر ، وبعد قتل أبى بلال تجرد عبد الله لاستئصالهم وهلاكهم كما يقول الطبرى (٤) .

الخوارج والمهلب بن أبى صفرة : (عهد ابن الزبير ثم عبد الملك)

يرتبط تاريخ الخوارج فى أزهى عصورهم بالبطل الكبير المهلب بن أبى صفرة ، فقد شهد العقد السادس الهجرى والسنون الأولى من العقد السابع وفاة الأبطال الذين سدوا كل الطرق فى وجه الخوارج ،

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ١٣١ وما بعدها .
(٢) المرجع السابق ص ٢٣١ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٦٠ .
(٤) المرجع السابق ص ٣٦ .

فقد توفى المغيرة بن شبعبة وزياد بن أبيه ومعـاوية وعبيد الله بن زياد ، فكأنما انطلق الخـوارج بذلك من العقال ، وسـاعد على ذلك ذكـرهم للدماء التى أراقها الأمويون منهـم وللأرواح التى ازهقـوها فى شـدة وغلظة ، كمـا ساعد على ذلك أيضاً اضطراب الأحوال بعد موت معاوية ، ثم انه كان قد تهيأ للخـوارج قيـادة رائعة على يـد البطلين الشهيرين نافع بن الأزرق وقطرى بن الفجاءة .

وبينما تطور شأن الخوارج على هذا النحـو ظهرت فى وجـوههم قيادة تشبههم فى البطـولة أو ترجحهم ، تلك هى قيـادة عبد الملك بن مروان والحجـاج والمهلب بن أبى صفرة ، ولهـذا يمكن القـول أنه فى عصر عبد الملك ارتطمت قوتان جبارتان ، وتصارعت جبهتان جـديدتان ، ولولا الانقسام الذى وقع فى صفوف الخـوارج لكان من المحتمـل أن يتغير وجه التـاريخ .

وكان الخوارج بعد موت معـاوية قد انضـموا الى ابن الزبير ، ولكنهم كما سنبيّن فيما بعد (١) عادوا ولاموا أنفسهم على نصرته ورحلوا من مكة ، ولكنهم انقسموا قسمين كمـا ذكرنا من قبـل ، فاتجه الأزارقة الى البصرة واتجه النجـدات الى اليمامة (٢) ، وكان الفرع الأول أقوى وأشـد مراساً كما كان أكثر تأويلا ، فقـد استحل نافع بن الأزرق قتل الأطفال وكفَّر القعـدة وعد مال المخالفين حـلالا لأصحابه (٣) ، ولقى نافـع نجاحاً كبيراً بسبب اضـطراب الدولة الأمـوية آنـذاك فدانت له الأهواز وأصبح له النفوذ فى السواد ، ولكنه بمبادئه السابقة جلب على نفسه كثيراً من الأعـداء حتى أولئك الذين لم يكونوا من أنصـار بنى أمية ، ولذلك اجتمع أهـل البصرة وولـوا عليهم المهلب بن أبى صـفرة الذى تصدى لقتالهم وهزمهم وقتـل قائدهم نافع بن الأزرق ولكنهـم

---

(١) ص ٢٦٤ و ٢٧٣ من هذا الكتاب .

(٢) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ٤ ص ٨٠ .

(٣) انظر شرحه لرايه فى العقد الفريد ج ٢ ص ٣٩٧ — ٣٩٨ .

جددوا نشـــاطهم مرة أخرى فى نواحى كرمان وأصبهان وبخاصة عندما أبعـــد المهلب عن الوقوف فى وجوههم ، اذ امتد نفـــوذ ابن الزبير الى البصرة وعين مصعب المهلب واليـاً على الجزيرة وعين مكانه عمـر بن عبيد الله بن معمر لحرب الخوارج ، ولكن هـذا لم يستطع أن يمـلأ فراغ المهلب فطلب أهل البصرة من مصعب اعـادة المهلب فأعـاده (١) »

قطرى بن الفجـــاءة :

وكانت قيادة الخوارج قد آلت الى بطل شهير هو قطرى بن الفجاءة الذى يقـول :

فصـــبراً فى مجـال المـــوت صـــبراً
فمـــا نيـــل الخـلود بمســـتطاع

ســـبيل المـــوت غـــاية كل حـــى
ودَاعيـــــه لأهـــــل الأرض داع

وما للمــــرء خــــير من حيــــاة
اذا ما عُـــدَّ من سَـــقَطِ المتـــاع (٢)

وانتهى أمر ابن الزبـــير ، وألقى على عاتق الحجــاج وعبـــد الملك حرب الخـــوارج ، فأقرا المهلب ليستمر فى نضاله ضد الأزارقة ، وضما له عبد الرحمن بن مخنف ، ولكن الخـــوارج باغتوا جيش ابن مخنف ليـــلا فأوقعوا به هزيمة بالغة قتل فيها ابن مخنف نفســـه ، واســـتمر المهلب يحاربهم فى شـــدة ممزوجة بالسياسة والفطنة مما كسب له النصر .

وحدث خلاف بين أتباع قطرى فانقسموا قسمين ، بايع أكثـــرهم عبد ربه الكبير وبقى أقلهم مع قطـــرى ، وحارب بعضهم بعضـــاً حـــرب فناء فاضمحلوا ، وكان من سياسة المهلب أن يتركهم يُفنى بعضهم البعض

---

(١) انظر تفاصيل حروب المهلب مع الخوارج فى الطبرى ج ٤ ص ٤٧٨ وما بعدها واليعقوبى ج ٣ ص ، ١ والعقد الفريد ج ٢ ص ٣٩١ .

(٢) الطبرى وترجمة حياة قطرى فى ابن خلكان وانظر العقد الفريد ج ١ ص ١٢٣ .

وقد آذن ذلك بضعف الجمع فاستطاعت جيوش الأمويين قتل قطرى وعبيدة بن هلال وعبد ربه الكبير سنة ٧٧ هـ وهزيمة جيوشهم [١] .

شبيب بن يزيد :

ومن الخوارج الذين هددوا الحجاج وزلزلوا سلطانه ، البطل العظيم شبيب بن يزيد الشيبانى الذى أثر عنه قوله : الليل يكفيك الجبان ونصف الشجاع ، وكان اذا أمس الليل قال لأصحابه : اتاكم المدد[٢] وقد خرج سنة ٧٦هـ وهزم كثيرا من جيوش بنى أمية حتى دخل الكوفة وهدد قصر الحجاج نفسه ، وقد هب الحجاج لمحاربته ودارت بينه وبين الحجاج معارك طاحنة طالما هزمت فيها جيوش الحجاج ، وأخيراً ضعف شبيب وفر ودخل الأهواز ، فأرسل اليه الحجاج جيشاً بقيادة سفيان بن أبرد فطلبه سفيان حتى حاصره فى البحر فأغرقه سنة ٧٨هـ [٣] .

النجدات فى اليمامة وسياسة القعود :

وينبغى أن نوضح أن نجدة وأصحابه ممن اتجهوا الى اليمامة كانوا يميلون الى القعود ، أى عدم الحرب ، ولذلك كان نشاطهم محدوداً فى هذه البقاع ، وينبغى أن نوضح أيضاً أن الضربات الشديدة التى أوقعها بالخوارج عبد الملك والحجاج والمهلب أزالت خطرهم حتى عم الهدوء آخر عهد عبد الملك وشمل الى حد كبير عهدى الوليد وسليمان .

الخوارج وعمر بن عبد العزيز :

هب الخوارج من جديد فى عهد عمر بن عبد العزيز ، وكان خروجهم بالعراق بالقرب من الحيرة ، وكان قائدهم رجلا من بنى شيبان يسمى شوذب ، وقد أرسل عمر للخوارج جيشاً كبيراً أمر عليه

---

(١) الطبرى جـ ٥ ص ١٢٦ .
(٢) العقد الفريد جـ ١ ص ١١٣
(٣) اليعقوبى جـ ٣ ص ١٧ .

مسلمة بن عبد الملك وأمره ألا يحاربهم الا اذا حاربوه أو أفسدوا فى الأرض ، وأرسل فى الوقت نفسه رسولا الى شوذب يدعوه لمناظرته ليريا أين يكون الحق ، فاستجاب له شوذب وأرسل رجلين من رجاله ، والتقيا بعمر ، ودارت بينهما هذه المناقشة :

عمر : ما الذى أخركم علينا ؟

أحد الرجلين : لا ننكر عليك عدلك ولا سيرتك ، ولكن هناك أمراً أخرجنا عليك ، وهو أن أهلك كانوا ظالمين وسميتهم أنت الظلمة ، وسميت أعمالهم مظالم فالعنهم ، فانك إن لعنتهم اتفقنا معك .

قال عمر : لقد حارب أبو بكر المرتدين وسبى نساءهم وذراريهم ، فلما جاء عمر أعاد هؤلاء الى ذويهم ، فهل لعن عمر أبا بكر ، وهل تلعنون أنتم أحدهما ؟

الرجل : لا

عمر : وهل كان فرعون ظالما يستحق اللعن ؟

الرجل : نعم

عمر : متى عهدك بلعنه ؟

الرجل : لا أذكر أنى لعنته

عمر : لا عهد لك بلعن فرعون وتريدنى أن ألعن أهلى ؟

الرجل : وموضوع آخر هو يزيد ، لماذا تقره خليفة من بعدك ؟

عمر : صيره غيرى .

الرجل : أفرأيت لو وليت مالا لغيرك ثم وكلته الى غير مأمون عليه أتراك كنت أديت الأمانة ؟

عمر : أنظرانى ثلاثة أيام .

وانتهت هذه المناظرة باقتناع الرجلين بأن عمر على حق وأنه يحاول بكل جهده أن يعمل لخير الاسلام والمسلمين ، فبقى أحدهما مع عمر وغادر الآخر لينبىء شوذب بما جرى . ويقول الطبرى أن بنى أمية خافوا أن يعزل عمر يزيد فدسوا له السم فمات بعد أيام (١) .

الخوارج فى آخر الدولة الأموية :

نشطت حركات الشيعة مع مطلع القرن الهجرى الثانى ، واتجهت لهم الأنظار ، وبدءوا يحققون انتصارات سياسية ثم عسكرية ، وهذا أخفى نشاط الخوارج فلم يعد لهم كبير شأن ، وقد تجددت على العموم ثورة شوذب بعد موت عمر بن عبد العزيز ، وحقق بعض الانتصارات فى الكوفة وما حولها فتصدى له مسلمة بن عبد الملك وسعيد بن عمر الحرشى فقضيا عليه على الرغم مما أبداه من بطولة فائقة وعبقرية حربية فذة (٢) . وممن ثار فى عهد هشام البهلول بن عمير الشيبانى ، وكانت ثورته بالكوفة فتصدى له خالد بن عبد الله القسرى ، ثم رحل البهلول تجاه الموصل فتبعه جيش خالد حتى قتل ذلك الثائر هناك (٣) وآخر حركاتهم فى عهد الدولة الأموية تلك الحركة التى قام بها أبو حمزة الخارجى بمكة سنة ١٢٩ هـ وقد امتدت انتصاراته الى المدينة سنة ١٣٠ ولكن مروان بن محمد أرسل له جيشاً قضى عليه وعلى أتباعه (٤) .

وسقطت الدولة الأموية بعد أن ضعف شأن الخوارج وكلّت عزيمتهم ولم يبق منهم الا بقية ضئيلة سنرى مرة أخرى ثوراتها ونضالها عند الحديث عن الخلافة العباسية فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة ان شاء الله .

---

(١) اقرأ المناقشة كاملة فى سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٣٠ — ١٣٤ ، واقرأ كتب عمر الى الخوارج ص ٨٣—٨٤ ، ٨٩ — ٩٠
(٢) الطبرى ج ٥ ص ٣٢٦ — ٣٢٧ والعقد الفريد ج ٢ ص ٢ ، ٤ — ٤٠٣
(٣) اليعقوبى ج ٣ ص ٥٤ .
(٤) المرجع السابق ص ٦٦ .

وقد واجه الخوارج ازهى انتصاراتهم فى عهد الدولة الأموية ، وكانوا عرباً الى البداوة أقرب ، كانوا قليلى الصلة بالثقافات الخارجية ، وهذه العوامل جعلت مذهب الخوارج قليل الفلسفة وجعلت أفكارهم قليلة العمق ، فهم لم يدرسوا بعمق من تلقاء أنفسهم ، ولم يفتحوا أبوابهم وقلوبهم لثقافات الخارج كما فعل الشيعة منذ عهدهم الباكر ، ولم يغمرهم طوفان الفلسفة الذى غمر العالم الاسلامى فى خلال الدولة العباسية ، لأن هذا الطوفان لم يكن قد بدأ ابان عنفوان الخوارج ، فلما بدأ طوفان الثقافة والفلسفة يعم العالم الاسلامى كان نجم الخوارج يؤذن بالزوال ، وسنرى فى دراستنا لمبادئهم كيف كانت آراؤهم ضحلة وأفكارهم قليلة العمق .

أفكار الخوارج :

حديثنا عن أفكار الخوارج سيشمل ثلاثة أبحاث :

(أ) سبب حركات الخوارج .

(ب) ملامح الخوارج الغالبة .

(جـ) فرق الخوارج وآراؤها فى السياسة والدين .

وسنتكلم عنها واحداً واحداً .

(أ) سبب حركات الخوارج :

لا يكاد الباحث يجد سبباً حقيقياً جديرا بأن يدفع الخوارج الى اراقة الدماء التى أراقوها وازهاق الأرواح التى أزهقوها ، والى سلب أموال المسلمين وقتل نسائهم وأطفالهم ، وقد هزم الخوارج عدة مرات عندما نوقشت آراؤهم ، هزموا أمام علىّ عندما رفضوا دخول الكوفة ، وهزموا أمام عبد الله بن العباس عندما أرسله على اليهم كما سبق القول ، وناقشهم عمر بن عبد العزيز فهزموا واستسلموا اليه ، ولذلك نقرر أنه لم تكن هناك أسباب حقيقية ذات شأن تدفعهم

لما إرتكبوا من اثم ، وما أراقوه من دماء وما شغلوا من جيوش المسلمين وأضاعوا من جهد القادة والجنود .

تعال بنا نبحث في ثنايا تاريخهم عن الأسباب التي دفعتهم لهذا الحمق الذي سبب لهم وللمسلمين خسارة بالغة .

وأول ما نجده هو أنهم كانوا عرباً ، وليسوا كالشيعة يتحدر أكثرهم من غير العرب ، وطبيعة العربي الثورة لأتفه الأسباب ، واذا درسنا أيام العرب وحروبهم لا نجد سبباً ذا بال يستحق أن تراق له الدماء التي أريقت ، وأن تشهر له السيوف والرماح التي شهرت ، وحسبك أن تتذكر أن حرب البسوس التي استمرت عدة سنوات وسقط فيها عدد ضخم من الضحايا ، تسببت لأن كليب بن ربيعة سيد تغلب الذي كان يحمي مواقع الحيا ، طعن بسهم ناقة لخالة جساس بن مرة من بكر ، فلم يغفرها جساس الأحمق وقتله فيها مع أن أخت جساس كانت زوجة لكليب ، وهبت الحروب بعد ذلك ولاقت الجزيرة العربية منها الأهوال (١) .

ذلك فيما أعتقد سبب هام لثورات الخوارج ، انهم عرب يقاتلون لأتفه الأسباب ، فلا تشغل نفسك بالسؤال : لماذا خرجوا ولماذا يقاتلون ؟ فانه ليمكن القول ان القتال عندهم كان عملا عادياً يوشك أن يكون كالطعام والمشي ، ويقول ابن عبدربه (٢) في ذلك : وكانت الخوارج تقاتل على القدح يؤخذ منها ، والسوط والعلق الخسيس (ما تتبلغ به الماشية من الشجر) أشد قتال ، وسقط في بعض أيامهم رمح من خارجي فقاتلوا عليه حتى كثرت الجراح والقتل ، وصاحب الرمح يرتجز :

---

(١) اقرأ أيام العرب في الأغاني واقرأ أيام العرب في الجاهلية لجاد المولى .

(٢) العقد الفريد جـ ١ ص ٢٦٥ — ٢٦١ .

الليل ليل فيه ويل ويل
وسال بالقوم الشراة السيل
أن يتر للأعداء فينا قول

على أن هذا السبب أسلم لسبب آخر هو أيضاً من عادة العرب ، ذلك هو الأخذ بالثأر ، فقد حارب على الخوارج فى النهروان وقتل أكثرهم ، وهب الخوارج بعد ذلك يتذاكرون ما حصل لاخوانهم فى النهروان ، ويعملون للأخذ بثأرهم ، ويقول الطبرى [١] : انهم كانوا يأتون مصارع اخوانهم فى النهروان فيتوضئون ويصلّون ويتذاكرون إخوانهم ويبكون ثم يهبّون للأخذ بثأرهم .

واعتقادى كذلك أن من الأسباب التى دعت الخوارج للثورة على علىّ ومحاربته أن ولاءهم له لم يكن كاملا ، ويبدو أن اتصالهم بالشيعة ومدعى التشيع فى جيش علىّ نقل اليهم هذا الاتجاه ، وبخاصة أن صلتهم بعلى كانت حديثة بدأت عندما انتقل على الى الكوفة ، وأن علياً لم يغدق عليهم المال والهبات ، فلم تتوثق به صلة الكثيرين الذين يجذبهم متاع الحياة الدنيا .

ويمكن القول كذلك أن بعض من أثاروا الفتن فى وجه على لم يكن ولاؤهم للاسلام كاملا ، وحسبنا أن نذكر الأشعث بن قيس الذى أصر على ايقاف القتال وهدد علياً ان استمر على حرب معاوية ، ولعب دورا كبيرا جلب الهزيمة والفرقة الى جيش على .

من هو الأشعث بن قيس هذا ؟ والى أى حد كان ولاؤه للاسلام ؟ وحبه لاتجاهات هذا الدين ؟

يذكر لنا التاريخ أن الأشعث هذا ارتد عن الاسلام بعد وفاة الرسول وحاربه أبو بكر ، فلما رأى الهزيمة أوشكت أن تحيق به كتب الى أبى بكر

(١) تاريخ الطبرى جـ ٥ ص ٦١ .

يعلن عودته للاسلام ويطلب العفو ... وعفا عنه أبو بكر ولكن أغلب الظن أن الاسلام لم يتعمق فى طيات قلبه (١) .

وللأشعث هذا ابن اسمه محمد وهو الذى أمن مسلم بن عقيل وهتف به : انك لا تُكْذَب ولا تُخْدَع ولا تُغَر ، ودنا محمد من مسلم وقال : لك الأمان . قال مسلم : آمن أنا ؟ قال محمد : نعم . سرعان ما أسلمه محمد الى حتفه ولم يبال بما قدمه له من الوعود (٢) .

وللأشعث هذا حفيد اسمه عبد الرحمن وقد مر بنا انه خرج بجيش الحجاج ، ثم استدار بالجيش يحارب الحجاج .

تلك قصة أسرة أغلب الظن أنها لا تعرف الولاء للاسلام ولا لقادة الاسلام .

ويبدو كذلك أن من اسباب نشأة الخوارج أن يد معاوية لعبت فأحدثت الانقسام فى جيش على وسببت ظهور الخوارج ، يقول اليعقوبى (٣) ، ان أهل الشام لما رفعوا المصاحف قال على : انها مكيدة وليسوا بأصحاب قرآن ، فاعترض الأشعث بن قيس الكندى وقد كان معاوية استماله وكتب اليه ودعاه الى نفسه ، فقال : قد دعانا القوم للحق والقرآن فلا تدعنا للسيف ... » ويذكر ابن قتيبة (٤) أيضا أن معاوية أرسل عتبة بن أبى سفيان الى الأشعث وقال له : ألن الى الأشعث كلاما فانه ان رضى بالصلح رضيت به العامة ، فناداه عتبة وكلمه .

وتاريخ معاوية وذكاؤه ودهاؤه تجعل من الأقرب أنه لم يكتف برفع

---

(١) النووى : تهذيب الأسماء القسم الاول جـ ١ ص ٢٢٢ .
(٢) الطبرى جـ ٤ ص ٢٨٠ .
(٣) تاريخ اليعقوبى جـ ٣ ص ١٣٤ .
(٤) الامامة والسياسة جـ ١ ص ١١٣ .

المصاحف، بل هيأ فى جيش على من يقبل هذه الخدعة، ويؤكد المستشرقون أن الأشعث مثل دور الخيانة فى جيش على ، فقد ألقى فلهوزن Wellhausen وفيل Well ودوزى Dozy وبرنوف Brünnow وملر Müller عبء التهمة الرئيسى عليه ، فيقال ان أهل الشام قالوا له (للأشعث) قبل المعركة : اننا اذا شعرنا بخطر الهزيمة سنرفع المصاحف على أسنة الرماح فاعمل بحيث يوقف القتال • ووفقاً لهذه الخطة عمل الأشعث (١) •

وقد ذكرنا من قبل كيف تحمس الأشعث لوقف القتال ، وهدد علياً بقتله أو تسليمه لأهل الشام ، ولم يرد أن يعطى فرصة قصيرة للأشتر ليكمل بها انتصاراته ، وكل هذا يوحى بثبوت التهمة ضد هذا المارق •

قد يقول قائل : ان هذا الادعاء لا يقبل لأن الخوارج عادوا معاوية وحاربوه ، فكيف نتهم يد معاوية بأنها لعبت أو أثارت الفتن فى جيش علي ؟

والجواب على ذلك واضح فان يد معاوية عندما لعبت لم تلعب مع الجميع بطبيعة الحال ، وانما لعبت مع بعض القادة كالأشعث مثلا وتبعته الجماهير الحمقاء ، واعتقادى أن هذه الجماهير لم تكن تعرف الخدعة بل كانت كراهيتها لمعاوية أكثر من كراهيتها لعلى ، ولذلك استمروا فى حروبهم ضد معاوية كما استمروا فى عدائهم لبنى أمية •

وامتدت حياة الخوارج وكان صراعهم مع بنى أمية عنيفاً قاسياً ، وأغلب الظن أن العصبية القبلية كانت أيضا من دوافع هذه الحروب ، فقد تجددت هذه العصبية التى حاربها الاسلام ، ووجدت بعض القبائل أن من الشين أن تلقى عصا القيادة الى بنى أمية ، فهبوا فى وجوههم •

---

(١) Wellhausen : Al Khawarig and al Shia p. 6.

وكانت البصرة والكوفة مركزا للخوارج ، وفيهما التقى الخوارج طويلا بالشيعة ومدعى التشيع ، وأغلب الظن أنهم أخذوا عنهم حبهم للثورات وميلهم للفتن والعصيان .

وأخيراً فمن أهم الأسباب لحركات الخوارج مبالغتهم فى تقديرهم لرأيهم ، فانهم يرون الرأى فيصبح عندهم عقيدة ولا يحيدون عنه ، وقد يكون ذلك الرأى خطير النتائج أو قاسياً عنيفاً ولكنهم لا يهتمون بذلك ، لقد كانوا عبيداً مخلصين لآرائهم لا يقيمون وزناً لسواها ولا يتوانون فى التضحية من أجلها ، فقد قالوا لعبيد الله بن خباب : ان القرآن الذى على صدرك يأمرنا بقتلك ، وهيهات أن يأمر القرآن بقتل مسلم لم يرتكب جريمة ، ولكن هكذا اعتقد الخوارج وهكذا نفذوا عقيدتهم ، ومما اعتقدوه كذلك على هذا النحو ما ورد أنهم كانوا يستحلون دم المسلم المخالف ولكنهم يحفظون دم الذمى ولا يريقونه ، ويقولون : احفظوا ذمة نبيكم ، ومما روى فى ذلك أن واصل بن عطاء زعيم المعتزلة كان يسير فى رفقة من صحابة فأحسوا الحرورية فذعروا فقال واصل لأصحابه ، لا تكلموهم ودعونى واياهم ، ثم سأله الخوارج ، ما أنت وما أصحابك ؟ قال : مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله . قال الخوارج قد أجرناكم . قال واصل : فعلمونا . فجعلوا يعلمونهم أحكامهم وجعل واصل يقول قد قبلنا ، فسر الخوارج منهم وقالوا لهم : امضوا مصاحبين ما عليكم من بأس . قال واصل : ليس ذلك لكم فان الله يقول : « وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه »(١) ، فنظر الخوارج بعضهم لبعض وقالوا : هذا حق وأرسلوا منهم من أبلغهم مأمنهم (٢) .

وأمامنا الآن وثيقتان هامتان لزعيمين من زعماء الخوارج تبينان لنا كيف كوّن الخوارج آراءهم وبنوا معتقداتهم .

---

(١) سورة التوبة الاية السادسة .
(٢) المبرد : الكامل فى اللغة والأدب جـ ٢ ص ٢٥٤ .

الوثيقة الأولى كتبها نجدة الى نافع بن الأزرق لما بلغه استعراضه(١) للناس وقتله الأطفال واستحلاله الأمانة ، ونص الوثيقة هو كما أوردها ابن عبد ربه (٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم .

أما بعد ، فان عهدى بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم ، وللضعيف كالأخ البر ، لا تأخذك فى الله لومة لائم ولا معونة ظالم ، فلما شريت نفسك فى طاعة ربك ابتغاء رضوانه ، وأصبت من الحق فصه تجرد لك الشيطان ، فلم يكن أحد أسهل وطأة عليك منك ومن أصحابك ، فاستمالك واستغواك ، فغويت ، وكفرت الذين عذرهم الله فى كتابه من قعدة المسلمين وضعافهم ، فقال جل ثناوه وقوله الحق ووعده الصدق « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج اذا نصحوا لله ورسوله » (٣) ، ثم سماهم أحسن الأسماء فقال « ما على المحسنين من سبيل » (٤) ثم استحللت قتل الأطفال وقد نهى رسول الله عن قتلهم ، ويشملهم قوله جل ثناؤه « ولا تزر وازرة وزر أخرى » (٥) وقال فى القَعَدة خيرا ، وفضل الله من جاهد عليهم ولا تدفع منزلة أكثر الناس عملا منزلة من هم دونهم قال تعالى « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى » (٦) فجعلهم الله من المؤمنين وفضل عليهم المجاهدين ، ورأيت من رأيك ألا تؤدى الأمانة الى من يخالفك والله يأمر أن تؤدى الأمانات الى أهلها فاتق الله .

---

(١) اى اعتراضه الناس وقتلهم دون ان يبالى امسلما قتل ام كافرا .
(٢) العقد الفريد جـ ٢ ص ٣٩٦ — ٣٩٧ .
(٣) سورة التوبة الاية ٩١ .
(٤) سورة التوبة الاية ٩١ .
(٥) سورة الانعام الاية ١٦٤ .
(٦) سورة النساء ٩٥ .

أما الوثيقة الثانية فجواب نافع بن الأزرق لنجدة ونصه كما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، فقد أتانى كتابك تعظنى فيه وتذكرنى .... وتعيب على ما دنت به من تكفير القعدة وقتل الأطفال واستحلال الأمانة ، سأفسر لك ذلك ان شاء الله . أما هؤلاء القعدة فليسوا كمن ذكرت ممن كان على عهد رسول الله ، لأنهم كانوا بمكة مقهورين محصورين لا يجدون الى الهرب سبيلا ، ولا الى الاتصال بالمسلمين طريقا ، وهؤلاء قد فقهوا فى الدين وقرءوا القرآن ، والطريق لهم نهج واضح ، وقد عرفت ما يقول الله فيمن مثلهم اذ قال : « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيه كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض . قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » (١) وقال : « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله » (٢) وقال : « وجاء المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم ، وقعد الذين كذبوا الله ورسوله » (٣) : « سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم »(٤) فسماهم بالكفر .

وأما أمر الأطفال فان نبى الله نوحا كان أعرف بالله يا نجدة منى ومنك ، قال : «رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا ، انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا (٥) فسماهم بالكفر وهم أطفال وقبل أن يولدوا فكيف جاز ذلك فى قوم نوح ولا يجوز فى قومنا ... ؟

وأما استحلال الأمانات ممن خالفنا فان الله عز وجل أحل لنا أموالهم كما أحل لنا دماءهم ، فدماؤهم حلال طلق (طيب) وأموالهم فىء للمسلمين فاتق الله يا نجدةوراجع نفسك ... (٦)

---

(١) سورة النساء الآية ٩٧ .
(٢) سورة التوبة الآية ٨١ .
(٣) سورة التوبة الآية ٩٠ .
(٤) سورة التوبة الآية ٩٠ .
(٥) سورة نوح الآية ٢٦ — ٢٧ .
(٦) العقد الفريد جـ ٢ ص ٣٩٧ — ٣٩٨ .

وهكذا كان استدلال نافع ، ومن الواضح أنه استدلال واه ضعيف ، ولكن الازارقة كانوا يرونه سليما كأنه التنزيل ، وكانوا يدينون به ويعملون بمقتضاه ، وقد جلب عليهم هذا سخط الكثيرين حتى أعداء بني أمية ، ولكنهم لم يبالوا بسخط أحد أو رضاه ، وكان كل اهتمامهم أن يسيروا فى الطريق الذى اعتقدوا أنه الحق مهما كانت نتائج سيرهم

(ب) ملامح الخوارج الغالبة :

امتاز الخوارج بملامح وصفات خاصة قل أن توجد فى سواهم ، وسنبرز فى الصفحات التالية خصائص الخوارج وأخلاقهم وسنرى أنها خصائص عربية تختلف عن أخلاق الشيعة الذين كان طابعهم العام غير عربى ، سنرى أن أخلاق الخوارج عربية فى خيرها وشرها ، عربية فى البساطة وعدم العمق ، عربية فى الصراحة والوضوح ، عربية فى الشجاعة وحب الوغى ، عربية فى الفردية وضعف الروح الجماعية ، عربية فى الوفاء، عربية فى عدم تقديس الزعماء . وفيما يلى تفصيل لهذا الاجمال :

وأول ما نبرزه من ملامح الخوارج هو البساطة والسطحية وعدم العمق فى فهم الامور ، وعدم الغور فى تقدير نتائج ما يقدمون عليه ، ولا شك أن من سطحيتهم وأخذهم بالظاهر الخاطىء ما أوردناه آنفا مما استدل به نافع بن الازرق على صحة قتل الاطفال والنساء ، ومما أوردناه كذلك من قتلهم عبد الله بن خباب متأولين حل قتله ، وقصة ذلك أن فى القرآن آية نصها « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون (١) » وآية أخرى نصها « ان الحكم الا (٢) لله » وعلىّ حكّم الرجال وعلى هذا حكموا بكفره ، فلما قدم عليهم عبد الله بن خباب وسألوه رأيه فى علىّ أثنى عليه ومدحه ، قالوا له : ان القرآن الذى فى رقبتك يأمرنا بقتلك . لأن عبد الله يتولى علياً وعلىّ فى نظرهم كافر (٣) .

---

(١) سورة المائدة الآية ٤٤ .
(٢) سورة الأنعام الآية ١٥٧ .
(٣) اقرأ قصة عبد الله مع الخوارج فى العقد الفريد ج ٢ ص ٣٩٠ .

والعجيب أنهم فى الوقت الذى قتلوا فيه عبد الله يأنفون أن يقبلوا هبة صغيرة من نصرانى وأصروا على دفع ثمنها له ، فدهش النصرانى وقال : تقتلون مثل عبد الله بن خباب ولا تقبلون من جنى نخله الا بثمن (١) .

ومن بساطتهم وعدم تعمقهم أنهم يقدمون على ابن الزبير ويحاربون معه وينصرونه حتى تنجلى جيوش الأمويين عن مكة ، وحينئذ فقط يطلبون معرفة كنهه ، وهل يعترف بكفر عثمان وعلى وكفر أبيه الزبير وخالته عائشة ... ومن الطبيعى أن يرفض عبد الله هذا الحمق ، وحينئذ ينفضون عنه ويهاجمونه ويشعلون الحرب فى المناطق التابعة له (٢) .

ومن ملامح الخوارج الغالبة تشددهم فى العبادة ومبالغتهم فيها ، فقد روى أن ابن عباس عندما ذهب اليهم رسولا من على رأى منهم جباها قَرِحَةً لطول السجود ، وأيدياً كثفنات الابل(أى ما يمس الأرض عندما يبرك البعير لغلظ أيديهم من كثرة السجود) وهم مشمرون للعبادة (٣) ، ومما يذكر عن مبالغتهم فى العبادة ما روى أن زياد بن أبيه قتل أحد الخوارج ثم دعا مولاه فقال له : صف لى أمره واصدق : قال المولى : أأطنب أم أختصر ؟ فأجابه زياد : بل اختصر . قال المولى : ما أتيته بطعام فى نهار قط ، ولا فرشت له فراشا بليل قط (٤) .

ويصف أبو حمزة الخارجى أتباعه بقوله فى خطبة ألقاها بمكة : يا أهل مكة تعيروننى بأصحابى ، تزعمون أنهم شباب ، وهل كان أصحاب رسول الله الا شباباً ، شباب والله مكتهلون فى شبابهم ، غضيضة عن الشر اعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة ، وأطلاح سهر (بهم نحافة من

---

(١) المرجع السابق .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٤٣٧ واقرأ المراسلات والمناقشات بين ابن الزبير وبين نافع من الأزرق فى العقد الفريد ج ٢ ص ٣٩١ وما بعدها .

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٢ ص ٣٨٩ .

(٤) الشهرستانى : الملل والنحل القسم الأول ص ١٠٨ .

شدة السهر) نظر الله اليهم فى جوف الليل منحنية أصلابهم على أجـزاء القرآن كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا اليها ، واذا مر بآية من ذكر النار شهق كأنّ زفير جهنم بين أذنيه ، موصول كلالهم بكلالهم كلال الليل بكلال النهار ، قـد أكلت الأرض ركبهـم وأيديهم وأنوفهـم وجباههم واستقلوا ذلك فى جنب الله ، حتى اذا رأوا السهام قد فوقت ، والرماح قد اشرعت ، والسيوف قد انتضيت ، ورعدت الكتيبة بصـواعق الموت وبرقت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ومضى منهم الشباب قدما حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسـه ، وتخضبت بالدمـاء محاسن وجهه ، فأسرعت اليه سباع الأرض ، وانحطت اليه طير السماء ، فكم من عين فى منقار طير طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله ، وكـم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود للـه .

وجماعة فيهم هذا الورع وهـذه التقى لا يتهمـون فى ايمانهـم ، ولا يقال عنهم ما قلنـاه من قبـل فى مدعى التشـيع من أنهم تظاهـروا بدخول الاسلام ليكيدوا له وليخضـدوا شـوكته ، فالخـوارج مسلمون حقيقة ، يسعون لخير الاسـلام ومجـده ، ولكنهم فى سـعيهم ضـلوا الطـريق دون أن يدركوا أنهـم ضلوا ، فواصلوا السير فى طريق الضلال وأوغلوا فيه ، ولقـد وصـفهم عمر بن عبد العزيز أبلغ وصف حـين قال لهم : انكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها (١) .

ويقول Wellhausen ان الخوارج لـم يكونوا بذرة فاسدة بذرها اليهودىّ ابن سبأ سرا ، بل كانوا نبتة اسلامية حقيقية ... ولم يكونوا فرقة تعيش فى الظـلام بل كانوا ظاهرين علنـا على أوسع أساس (٢) .

على أن الخوارج اذا لم يكونوا أعداء للاسلام والمسلمين بطـريق

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٣١ .

(٢) الخوارج والشيعة ص ٢٥ — ٢٦ .

مباشر فقد آل أمرهم ليصبحوا أعداء خطرين على الاسلام والمسلمين ، فقد ابتدعوا فى الاسلام ما ليس منه ، وأسرفوا فى التنكيل بالمسلمين ، وأزهقوا آلاف الأرواح وقضوا باليتم والترمل والثكل على آلاف الأطفال والزوجات والأمهات ثم شغلوا جيوش الدولة فأوقفوا نشاطها وأتاحوا لجيوش الأعداء أن تهدد العالم الاسلامى وأن تزحف على أطرافه .

وليس معنى دفاعنا عن اسلام الخوارج أنهم كانوا جميعا موالين للاسلام ، لا ، فان من فرقهم العجاردة الذين أنكروا كون سورة يوسف من القرآن وزعموا أنها قصة من القصص (١) ، ومنهم اليزيدية الذين زعموا أن الله تعالى سيبعث رسولا من العجم وينزل عليه كتابا قد كتب فى السماء (٢) ، وقد كفر الفريقان بهذا التفكير السقيم .

ومن الملامح البارزة فى الخوارج الشجاعة وحب الوغى والاستهانة بالدنيا دفاعا عن رأى يعتقدونه أو مبدأ يدينون به ، ويحكى الطبرى أن جماعة من الخوارج كسروا سجن الكوفة وخرجوا منه عقب وفاة المغيرة ابن شعبة ثم اجتمع هؤلاء ليتدبروا أمرهم ويتدارسوا شئونهم فخطبهم زعيمهم حيان بن ظبيان وحبب اليهم الموت فى سبيل المبدأ ، وذكر أن لا أمل فى النصر لقلة العدد والعدة ولكنه قال ان حربنا للظلمة يخرجنا من الاثم ، وهتف فيهم : تعالوا الى الموت ، أخرجوا أنفسكم من الفتن ، هلموا الى جنة الخلد ، فأطاعوه ، وأشعلوا ثورة كانوا جميعا ضحية لها وكانوا يعتقدون أنهم سيكونون ضحية (٣) .

وقيل للمهلب بن أبى صفرة : ما أعجب ما رأيت فى حرب الازارقة ؟ فقال : فتى كان يخرج الينا منهم فى كل غداة فينشد :

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل القسم الأول ص ١١٥ .
(٢) المرجع السابق ص ١٢٢ .
(٣) الطبرى ج ٤ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

وســـائلة بالغيـــب عـــنى ولـــو درت
مقـــارعتى الابطـــال طـــال نحيبهـــا

اذا مـــا التقينـــا كنت أول فـــارس
يجـــود بنفس أثقلتهـــا ذنوبهـــا

ثم يحمل فلا يقوم له شيء الا أقعده ، فاذا كان من الغد عـاد لمثـل ذلك (١) .

والمهلب بطل مغـوار يرجع اليه الفضل فى تحطيم صخرة الخوارج وهز سلطانهم ، ومع هذا فالمهلب قاسى منهم كثيرا وعانى من صمودهم له وثباتهم أمام حملاته ، يذكر الطبرى (٢) وابن عبد ربه (٣) أن عبـد الملك بن مروان أعطى للمهلب خراج بلاد فارس وخراج كثير من الكور الأخرى المجاورة ليستعين بها على حرب الخوارج ويبدو أن الحجاج نفس عـلى المهلب ذلك وظن أنه يتهاون فى حرب الخوارج ليبقى له هذا الجاه والغنى، فكتب له يستعجله حربهم فأجاب المهلب : ان من البلية أن يـكون الرأى بيد من يملكه دون من يبصره (٤) ، ولكن الحجاج لم يسكت عنه ، وأرسل اليه البراء بن قبيصة مع خطاب يقول فيه : « لقد اصطلمت هذه الخارجة وأنت تحب طول بقائهم لتأكل الأرض حولك ، فانهض لهم وجاهدهم واياك والعلل والأباطيل » فأخرج المهلب بنيـه فى الكتائب ، وخرج هـو يدير المعركة العظمى وأخرج البراء ليشهد ، فرأى البراء قتالا أشد ما يـكون القتال ، ورأى الرجال تحمل على الرجال فى حرب شعواء ، وتـكرر ذلك المنظر فى عدة أيام ، فقال البراء للمهلب : ما رأيت كبنيك فرسـانا قط ، ولا كفرسانك من العرب فرسانا ، ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك قط أصـبر

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ١ ص ١٢١ .
(٢) تاريخ الطبرى جـ ٥ ص ١٢٠ وما بعدها .
(٣) العقد الفريد جـ ١ ص ١٤٥ والكامل للمبرد جـ ٢ ص ١٧٢ .
(٤) ابن عبدربه : العقد الفريد ١ : ١٤٥ .

ولا اباس ، ووالله ما يعينك عليهم الا الله ، وأنت بهم معذور ، وعاد البراء ليخبر الحجاج بذلك .

وخرج مرداس أبو بلال فى أربعين رجلا أيام عبيـد الله بن زياد ، فأرسل لهم هذا أسلم بن زرعة الكيـلانى فى ألفين ، ودارت معـركة بين الفريقين فى مكان يقال له آسك ، والعجيب أن تدور الدائرة على أسـلم وأصحابه ، فقال أحد شعراء الخوارج فى ذلك :

أألفـــا مـــؤمن منـــكم زعمتـــم
ويقتلهـــم بآســـك أربعونـــــا

كذبتـــم ليس ذاك كمـــا زعمتـــم
ولـــكن الخـــوارج مؤمنـــونا

هـــم الفئـــة القليلـــة قـد علمتـم
عـــلى الفئـــة الـــكثيرة ينصرونا (١)

وتروى عن الخوارج مجموعة ضخمة من المواقف يستعذبون فيهـا الموت حبا للقاء الله ، فمن ذلك أن علىّ بن أبى طالب حمل على خـارجى وضربه بسيفه ضربة قاتلة ، فلما أحس الخـارجى بالموت قـال : حبـذا الروحة الى الجنة . وهناك خارجى آخر طعن برمح ، فجعل يندفع نحـو قاتله ويقول : وعجلت اليك ربى لترضى (٢) .

ولما خرج حوثرة الأقطع يقود جمـاعة من الخوارج فى عهد معاوية استعان معاوية بأبى حوثرة ليرد ابنه ، فجاء الأب يطلب من الابن الكف عن الثورة فلم يجبه ، فقال الأب لحوثرة : أجيئك بابنك لعلك تراه فتحن اليه ؟

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ٢٣٢ وابن عبد ربه جـ ١ ص ٢٥٥ .
(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ١ ص ٢٥٦ .

فقال حوثرة : يا أبت . أنا والله الى طعنة نافذة أتقلب فيها على كعوب الرمح اشوق منى الى ابنى (١) .

ومما قال مرداس أبو بلال بعد أن قتل بعض أصحابه يتعجل الموت للحاق بهم :

أبعد ابن وهب ذى النزاهة والتقى
ومن خاض فى تلك الحرب المهالكا

أحب بقاء أو أرجى سلامة
وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكا ؟

فيارب سلم نيتى وبصيرتى
وهب لى التقى حتى الاقى أولئك (٢)

وكان بين صفوف الخوارج مجموعات كبيرة من النساء ، ولم يكن هؤلاء أقل من الرجال شجاعة واستعدادا للموت ، ومن هؤلاء أم حكم زوجة قطرى بن الفجاءة ، وكانت تشترك فى الحروب بشجاعة فائقة وايمان بالغ ، ومن رجزها وهى تحمل على صفوف الأعداء :

أحمل رأسا قد سئمت حمله
وقد مللت دهنه وغسله
الا فتى يحمل عنى ثقله (٣)

وكان شبيب بن يزيد الشيبانى يخوض حروبه الطاحنة الطويلة ضد جيوش الحجاج ومعه مجموعة من النساء اللائى لم يكن أقل من الرجال

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١ ص ٢٥٣ والكامل للمبرد ج ٣ ص
(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٢ ص ٣٩٩ — ٤٠٠ .
(٣) الأغانى ج ٦ ص ٦ — ٧ .

حماسة وبطولة ، ومن هؤلاء زوجته غزالة وأمه جهيزة ، وقد ماتت زوجته فى ساحة الوغى بين صليل السيوف وطعن الرماح (١).

ومن ملامح الخوارج الوفاء ، يذكر الطبرى (٢) أن عبيد الله بن زياد قبض على مرادس أبى بلال الذى تحدثنا عنه من قبل وأودعه السجن ، ولكن السجان رأى عبادة مرداس وصلاحه ، فكان يأذن له فى مطلع الليل فينصرف الى داره ويعود الى السجن فى مطلع الفجر دون أن يعلم ذلك أحد ، وكان لعبيد الله بن زياد جليس على صلة صـداقة بأسرة مرداس ، فسمع هذا الجليس من ابن زياد ذات ليـلة أنه ينـوى قتل مسـجونى الخوارج اذا أصبح ، وصدرت الأوامر للسجان بتقديمهـم صباحا الى المقصلة ، فعرف مرداس وهو فى بيته ذلك الخـبر من جليس ابن زياد ، وقيل لمرداس : انج بدمك ولا تعد الى السجن . قال مرداس : انى أكـره أن أواجه ربى وأنا خائن . وعزم على أن يعود فى مطلع الفجر كعادته . أما السجان فأمضى ليلة سوء اشفاقا من أن يعلم مرداس الخبر فلا يرجع فلما جاء الوقت الذى يرجع فيه اذا به يعود . فقال له السـجان بعد أن شمله السجن : هل بلغك ما عزم عليه الأمير ؟ قال : نعم . قال : ثم غدوت ؟ قال : نعمولم يكن لى أن أخون ولا أن أقابل احسانك لى بفـرار تعاقب أنت بسببه . وفى الصبح جلس ابن زياد وقدم الخوارج للموت حتى جاء دور مرداس فوثب السجان — وكان ظئرا لابن زياد — وأخذ بقدمه وقال: هب لى هذا وقص قصته فوهبه له وأطلقه .

ومن الملامح شديدة الوضوح فى الخـوارج ما يمـكن أن نسـميه « الفوضى » والاضطراب وعدم الخضوع للنظـام ، ولولا ذلك لـكانت قوتهـم غالبة ، ولـكان من العسير القضاء عليهم ، ومن فوضـاهم أنهم عادوا الناس جميعا ، وأعلنوا الحرب على كل من لم يكن من جماعتهـم ،

---

(١) انظر اليعقوبى ج ٣ ص ١٧ والطبرى ج ٥ ص ٩٥ .
(٢) تاريخ الطبرى ج ٥ ص ٣٣٢ .

ومن فوضاهم أنهم كانوا كثيرى الفرقة . يخرج بعضهم على بعض لأوهى الأسباب ، ويعتبرون الصديق عدوا دون جريرة تذكر ، وكان خروجهم على علىّ نموذجا احتذوه فى جميع تاريخهم فاستسهلوا الخروج على الزعماء فى كثير فى الاحايين وكفروا الرؤساء واستحلوا دماءهم ، والأمثلة على ذلك تزدحم بها كل المراجع التى بين أيدينا وقد مر منها نماذج عديدة ، ومن فوضاهم البالغة أنهم كانوا يحكمون بتكفير الناس لأتفه الاسباب أو بدون سبب ، حتى قال بعضهم ان الامام اذا كفر كفرت الرعية (١) ، وليت شعرى كيف يزول اعتقاد المؤمنين اذا ضل امامهم ؟ ومن فوضاهم مثال أورده الشهرستانى (٢) يدعو للسخرية والضحك ، فقد نقم أصحاب نجدة بن عامر عليه بعض تصرفاته فاستتابوه فتاب ، ثم ندموا على استتابته وقالوا : أخطأنا وما كان لنا أن نستتيب الامام ، وما كان له أن يتوب باستتابتنا اياه ، فتابوا من ذلك وطلبوا منه أن يتوب من توبته والا نابذوه فتاب من توبته ، ولكن ذلك لم يكفهم أيضا فقال بعضهم ان هذا اقرار منه بصحة أحد الذنبين : صحة ذنب تاب منه أولا أو صحة توبة من غير ذنب ، فكفروه ووثبوا عليه وقتلوه .

تلك هى صور من ملامح الخوارج فيها خير وفيها شر ، وذلك لأنه لم تكن لهذه الجماعة مبادىء ثابتة مبنية على دراسات عميقة ، فما أبعدهم عن الدراسات ، وما أبعدهم عن العمق فيها .

(ج) فرق الخوارج وآراؤها فى السياسة والدين :

قلنا فيما سبق إن من ملامح الخوارج حب الفرقة والانقسام وعدم احترام الزعماء ، وقد ظهر لنا ذلك فى عهودهم المبكرة ، فهم يخرجون على علىّ ثم يدعوهم فيعود أكثرهم اليه ، ويخرجون مرة أخرى فيرسل اليهم

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل القسم الأول ص ١١٤ .

(٢) المرجع السابق ص ١١١ — ١١٢ .

عبد الله بن عباس فيتشطرون ويعود شطرهم ويبقى الآخر ، ويحارب بعضهم عليا ويعتزله آخرون دون حرب ، ولكنهم بعد موت على أجمعوا أمرهم على كراهية معاوية وعلى حربه وهتف فيهم زعيمهم فروه بن نوفل الاشجعى قائلا : قد جاء الآن ما لا شك فيه فسيروا الى معاوية فجاهدوه ... (١) وهكذا التقى الخوارج وزال ترددهم وشكهم ، فتكونت منهم قوة جبارة .

ووضع الخوارج برنامجهم ودونوا اتجاههم فى تلك الفترة الاولى من حياتهم ، وكان برنامجا سياسيا جل الحديث فيه عن الخلافة ، فقالوا ان الامامة غير ضرورية ، وعلى الناس أن يتناصفوا فيما بينهم (٢) ، ويجوز لهم أن ينصبوا اماما ، ويلزم أن يختاره المسلمون اختيارا حرا ، ولايشترط فيه أن يكون من قريش ، ويجوز أن يكون حرا أو عبدا أو نبطيا ، وتلزم طاعته ما أطاع الله ورسوله ، فان لم يطع الله وجبت الثورة عليه وعزله وطبق الخوارج هذه النظرية وقد عبر عروة بن أذينة أصدق تعبير عن وجهة نظر الخوارج فى تطبيق هذه النظرية ، فقد سأله زياد بن أبيه عن أبى بكر وعمر فقال فيهما خيرا ، وسأله عن عثمان ، فقال : كنت أوالى عثمان على أحواله فى خلافته ست سنين ثم تبرأت منه بعد ذلك للأحداث التى أحدثها ، وشهد عليه بالكفر ، وسأله عن على فقال : كنت أتولاه الى أن حكم الحكمين ثم تبرأت منه بعد ذلك وشهد عليه بالكفر ، وسأله عن معاوية فسبه سبا قبيحا (٣) .

وهكذا كان الخوارج حتى عهد معاوية قوة واحدة تقريبا ، وحديثهم كله عن نظرية الخلافة سالفة الذكر . وبناء على هذه النظرية يعد معاوية غاصبا ، لأنه لم يتم اختياره بطريقة حرة ، ثم هو بعيد عن العدالة ، قيصرى المظهر ومن ثم كان واجبا عليهم الخروج عليه ففعلوا ، واذا كان

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٢٦ .
(٢) الشهرستانى : الملل والنحل : القسم الأول ص ١٠٧ ، ١١٢ .
(٣) الملل والنحل ص ١٠٨ .

هناك تردد فى عدائهم لعلى فقد جاء فى عهد معاوية مالا شك فيه من الامر، كما ورد فى عبارة عروة السالفة الذكر .

خلافاتهم بعد مساعدتهم عبد الله بن الزبير :

ومضى معاوية وتولى الخلافة بعده ابنه يزيد ، ولم يتولها بانتخاب ، ولا كان فى نظرهم صالحا لها ، ولذلك هبوا فى وجهه كما هبوا فى وجه أبيه، ورأوا عبد الله بن الزبير يحاربه ويخرج عليه فأحبوه لخروجه على الامام الجائر ، ولوقوفه للدفاع عن البيت الحرام الذى كانت جيوش الأمويين تسعى لدكه بعد أن هدمت المدينة المنورة وقتلت صناديدها فقالوا : يجب علينا أن نمنع حرم الله منهم ، ونمتحن ابن الزبير فان كان على رأينا بايعناه ، فلما صاروا اليه عرفوه أنفسهم وما قدموا له ، فأظهر لهم أنه على رأيهم . فساعدوه حتى عادت جيوش الشام ، ثم أقبلوا يلوم بعضهم بعضا ، وقالوا : كيف ننصر هذا الرجل دون أن نعرف كنهه ، تعالوا بنا ندخل على هذا الرجل فننظر ما عنده ، فان قدم أبا بكر وعمر وبرىء من عثمان وعلى وكفّر أباه وطلحة بايعناه ، وإن كانت الأخرى انشغلنا بما يجدى علينا . ولم يوافقهم ابن الزبير على رأيهم ، فخرجوا من مكة ، ولكنهم انقسموا جماعتين كبيرتين لكل منهما رأى واتجاه ، وأخذوا يتكلمون فى اللاهوت فشملت أبحاثهم الجديدة السياسة والدين ، وكانوا من قبل يتكلمون فى السياسة لا يتعدونها . واتجهت الجماعة الاولى الى البصرة وكان على رأسها نافع بن الازرق فسميت الازارقة ، وكان من أصحاب نافع عبد الله بن الصفار وعبد الله بن اباض وحنظلة بن بيهس ، واتجهت الجماعة الثانية الى اليمامة ، وكان من زعمائها عبد الله بن ثور أبو فديك وعطية بن الأسود واليشكرى وأبو طالوت ، ثم اتفقت هذه الطائفة على اختيار نجده بن عامر رئيسا لها فسميت النجدات (١) ، وكان مصدر

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٣٦ وما بعدها — العقد الفريد ج ٢ ص ٣٩٠ وما بعدها .

الانقسام هو بدؤهم الكلام فى اللاهوت واختلافهم فى الرأى ، وقد كان هذا الانقسام نذير انقسامات أخرى كثيرة حدثت لأوهى الأسباب .

ويجدر بنا هنا أن نثبت وثيقة تبين لنا مطلع التفكير الدينى عند الخوارج وأسلوبه وكيف كان ذلك التفكير سببا فى انقسامهم الى فرق وشيع .

يقول الطبرى (١) ان اتباع نافع دخلوا البصرة بعد عودتهم من مكة، ووجدوا فى البصرة تلك الخلافات والاضطرابات التى أعقبت وفاة يزيد فانتهز نافع هذه الفرصة وأعلن الخروج والثورة ، وتبعه أغلب الخوارج ، وتخلف عنه قليل منهم عبد الله بن الصفار وعبد الله بن اباض ورجال معهما لم يروا الخروج ، ونظر نافع بن الازرق ورأى أن ولاية من تخلف عنه لا تنبغى ، وأن من تخلف عنه لا نجاة له ، فقال لاصحابه : ان الله قد أكرمكم بمخرجكم وبصركم بما عمى عنه غيركم ، ألستم تعلمون أنكم انما خرجتم تطلبون شريعته وأمره ، فأمره لكم قائد ، والكتاب لكم امام ، وانما تتبعون سننه وأثره فقالوا : بلى . فقال : أليس حكمكم فى وليكم حكم النبى صلى الله عليه وسلم فى وليه ، وحكمكم فى عدوكم حكم النبى صلى الله عليه وسلم فى عدوه ، وعدوكم اليوم عدو الله وعدو النبى صلى الله عليه وسلم ، كما أن عدو النبى صلى الله عليه وسلم يومئذ هو عدو الله وعدوكم اليوم ؟ فقالوا : بلى . قال : فقد أنزل الله تبارك وتعالى « براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين » (٢) وقال « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » (٣) فقد حرم الله ولايتهم ، والمقام بين أظهرهم ، واجازة شهادتهم وأكل ذبائحهم ، وقبول علم الدين منهم ، ومناكحتهم ومواريثهم ، وقد احتج الله علينا بمعرفة هذا ، وحق علينا أن نعلم هذا الدين ولا نكتم ما أنزل الله ، والله عز وجل يقول : « ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ٣٤٩ وما بعدها .
(٢) سورة براءة الآية الأولى .
(٣) سورة البقرة الآية ٢٢١ .

أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » (١) فاستجاب له الى هذا الرأى جميع أصحابه ، فكتب به الى عبد الله بن الصفار وعبد الله بن اباض ومن قبلهما من الناس ، فلما قرأ عبد الله بن الصفار الكتاب وضعه خلفه ، فقال له ابن اباض : مالك !! لله أبوك ؟ فدفع الكتاب اليه ، فقرأه وقال : أى رأى ؟ صدق نافع لو كان القوم مشركين ، ولكنه كَذَبَ وكَذَّبَنا فيما يقول ، وان القوم كفار بالنعم وهم براء من الشرك . فقال ابن الصفار : برىء الله منك فقد قصرت ، وبرىء الله من الازرق فقد غلا ، برىء الله منكما جميعا . وقال آخر : فبرىء الله منك ومنه وتفرق القوم .

ذلك هو أسلوب تفكيرهم ومطلع خلافاتهم ، وقد انشعب الازارقة بهذا الى ثلاث فرق هى : الازارقة أتباع ابن الازرق ، والاباضية أتباع ابن اباض ، والصفرية أتباع ابن الصفار (٢) ، ويضاف اليهم النجدات سالفة الذكر ، وبهذا تتكون الفرق الاربعة الاولى من فرق الخوارج ، وقد توالت بعد ذلك انقساماتها وتشيعها الى شيع وأحزاب ، وسنتكلم فيما يلى بايجاز عن أهم فرق الخوارج ، ثم نتكلم عن آرائهم فى المشكلات الدينية التى بحثوها .

الأزارقة :

أصحاب أبى راشد نافع بن الازرق الذين خرجوا مع نافع من البصرة الى الاهواز فغلبوا عليها وعلى فارس وكرمان ، وكان مع نافع من زعماء الخوارج عطية بن الاسود (٣) ، وقطرى بن الفجاءة وعبيد ابن هلال اليشكرى وصخر بن حبيب وصالح بن مخراق وعبد ربه الكبير وعبد ربه الصغير ، والازارقة أعظم فرق الخوارج ، وأكثرهم خطرا ،

---

(١) سورة البقرة الآية ١٥٩ .

(٣) انظر العقد الفريد جـ ٢ ص ٣٩١ ، اما الشهر ستانى فيذكر الصفرية وينسبهم الى زياد ابن الاصفر سيأتى الحديث عنهم (انظر الملل والنحل القسم الأول ١٢٣) .

(٢) انشق عنه وعاد الى اليمامة فكان من زعماء النجدات كما سبق القول .

وأبعدهم انتصارات ، وقد هزموا كثيرا من جيوش المسلمين ، وتصدى لهم المهلب بن أبى صفرة ، اختاره أهل البصرة ليذود عنهم وعن حرمهم ، ثم أقره ابن الزبير على حربهم ، وبعد ابن الزبير أقره عبد الملك بن مروان والحجاج ، وقد استمرت الحرب بين المهلب والازارقة تسعة عشر عاما ، ولولا بطولة المهلب وانقسام الازارقة لامتدت هذه الحروب أكثر مما امتدت ، ومن أعظم قادتهم بعد نافع قطرى بن الفجاءة وقد تحدثنا من قبل عن اتجاهات الازارقة الدينية ، ويقول الشهرستانى (١) أن أهم بدعهم هى :

١ — تكفير من سواهم من المسلمين وتخليدهم فى النار واباحة قتلهم ٠

٢ — تكفير القعدة ٠

٣ — اباحة قتل أطفال المخالفين ونسائهم ٠

٤ — اسقاط الرجم عن الزانى اذ ليس فى القرآن ذكره ٠

٥ — الحكم بأن أطفال المشركين فى النار مع آبائهم ٠

٦ — التقية غير جائزة فى قول ولا عمل ٠

٧ — تكفير من ارتكب الكبيرة ٠

النجدات العاذرية :

أتباع نجدة بن عامر ، وكان قد ذهب الى اليمامة بعد خروجه من مكة كما سبق القول ٠ ثم أراد العودة للوحدة مع نافع وتقريب وجهات النظر فسار بعسكره تجاه البصرة فقابله أبو فديك وعطية بن الاسود مع اتباع لهما عائدين من معسكر نافع ، وذكروا لنجدة بدع نافع ، وأعادوه وبايعوه رئيسا لهم ، ونجدة متساهل جدا اذا قيس بالازارقة ٠ فهو لا يكفر القعدة ويبيح التقية ويعذر بالجهالات ، ويرى أن الدين أمران : أحدهما معرفة

---

(١) الملل والنحل : القسم الأول ص ٤٠٩ — ٤١٠ ٠

الله ومعروفة رسوله والاقرار بما جاء من عند الله جملة وهذا واجب على جميع المسلمين ، والأمر الثانى هو ما سوى ذلك والناس معذورون أن جهلوه ، ولذلك سمى هؤلاء العاذرية ، ويرى أن من كذب كذبة صغيرة أو كبيرة وأصر عليها أشرك ، ومن زنى وشرب وسرق دون اصرار لا يشرك(١) •

الإباضية :

أتباع عبد الله بن أباض ويرون صحة مناكحة المخالفين من المسلمين، والتوارث معهم ، وأن دار مخالفيهم من أهل الاسلام دار توحيد الا معسكر السلطان فانه دار بغى ، ويقبلون شهادة مخالفيهم وقالوا ان أفعال العباد مخلوقة لله احداثا وابداعا ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازا ، ولا يسمون امامهم « أمير المؤمنين » ولا يسمون « مهاجرين » ولا يجيزون قتال مخالفيهم الا بعد دعوتهم ، ولم يبق من الخوارج الا طائفة من الاباضية تقيم فى عمان وفى جهات قليلة بشمالى افريقية (٢) • ويكره اباضية عمان أن يسموا خوارج •

العجاردة :

أتباع عبد الكريم بن عجرد ، وهو من تلاميذ عطية بن الاسود من النجدات ، وقيل انه من تلاميذ ابن بيهس ، ولا مانع أن يكون قد تنقل بين هذا وذاك ، ويتوقف العجاردة فى أمر أطفال المسلمين حتى البلوغ فيدعون للاسلام ، أما اطفال المشركين ففى النار مع آبائهم ، ويتولون القعدة ، ويرون الهجرة فضيلة لا فريضة ويكفرون بالكبائر ، ويتضح فى العجاردة الميل للانقسام ، ويذكر الشهر ستانى من أقسام العجاردة سبعة هم : الصلتية والميمونية والحمزية والخلفية والاطرافية والسبعية والحازمية (٣) •

---

(١) انظر الفرق بين الفرق للبغدادى والفصل فى الأهواء والنحل لابن حزم والملل والنحل للشهر ستانى .
(٢) المراجع السابقة .
(٣) المراجع السابقة ايضا .

الصـــفرية :

يختلفون فى نسبة هذه الفرقة من الخوارج فينسبها بعضهم الى زياد بن الاصفر ، وينسبها آخر الى عبد الله بن الصفار ، وتنسب كذلك الى الصفرة لأن أصحابها اصفرت وجوههم من طول العبادة وكثرة الصوم وهى بهذا المعنى تبدأ بصالح بن مسرح الذى كان — كما يقول الطبرى (١) — ناسكا مخبتا مصفر الوجه صاحب عبادة ، ثم خرج يقود فريقا من الخوارج ، ومن أهم رجاله شبيب بن يزيد الشيبانى الذى تنسب له طائفة الشبيبية ، وقد تولى شبيب قيادة الفرقة بعد موت صالح ، ويوضع شبيب فى عالم البطولة مع نافع بن الازرق وقطرى بن الفجاءة ، وقد دوخ شبيب جيوش الحجاج ، وقتل أربعة وعشرين من أمراء هذه الجيوش ، وسجل انتصارات باهرة ، واستطاع أن يدخل الكوفة مرتين ويزعج الحجاج ، ويبث الذعر فى نفوس بنى أمية ، ولكن الحجاج صمد له وأرسل اليه الجيش بعد الجيش حتى استطاع سفيان بن أبرد الكلبى أن يحاصره وهو يعبر نهر دجيل ، وهاجم سفيان السفن واضطرب شبيب وغرق سنة ٧٧هـ أو ٧٨ كما سبق القول .

ومبادىء الشبيبية هى المبادىء العامة للخوارج ، ويحكى أن الاسرى من أصحاب شبيب لما وقفوا بين يدى الحجاج أخذ يضرب رءوسهم واحدا واحدا ، حتى جاء دور واحد منهم فقال : أمهلنى حتى أقول كلمة وأنشد :

أبـــرا الـــى اللـــه من عمـرو وشيعته

ومن عـــلى ومـن أصـــحاب صـــفين

ومن معـــاوية الطـــاغى وشـــيعته

لا بارك اللـــه فى القـــوم الملاعـين

وهو بذلك يسجل مبادىء جماعته (٢) .

---

(١) الطبرى جـ ٥ ص ٥٠ .

(٢) انظر الطبرى و اليعقوبى وكتب الفرق السابقة .

والمشكلة الدينية الوحيدة التى أجمع عليها الخوارج هى اعتقادهم بأن العمل جزء من الايمان ، فليس الايمان هو فقط الاعتقاد والنطق بالشهادتين وانما يلزم — أن يتم مع ذلك — العمل بأوامر الدين كالصلاة والصوم والحج والعدل والصدق •

وفيما سوى هذا المبدأ (العمل جزء من الايمان) نجد الخوارج يختلفون فرقا وشيعا كما مر ، وفيما يلى جدول بموجز آرائهم فى أ المشكلات التى تعرضوا لها :

مرتكب الكبيرة	اطفال المخالفين	القعود	التقية
الأزارقة : كافر كفر ملة يخرج بذلك عن الاسلام	**الأزارقة :** يجوز قتل اطفال المخالفين ونسائهم	**الأزارقة :** يكفر القعدة ومن لم يهاجروا مع نافع	**الأزارقة :** لا تجوز التقية في قول ولا عمل ، ولم يستطع عروة بن اذينة ان يقول بالتقية لينجو من القتل ، فقد ساله زياد بن أبيه قائلا : ما رايك في ؟ فاجاب : ان اولك اريبة ، وآخرك استحلاق وانت فيما بينهما عاص ربك
الاباضية : كافر كفر نعمة فلا يخرج عن الاسلام	**النجدات :** لا يجوز قتلهم	**النجدات :** القعود جائز والخروج افضل	**النجدات :** التقية جائزة مطلقا
الصفرية : ما كان من الأعمال له حد في القرآن سمي مرتكبه باسمه ، فمن ارتكب الزنى سمي زانيا ومن سرق سمي سارقا ، ولا يسمى كافرا ، اما الكبائر التي لم يحدد القرآن عقوبتهما فيكفر بهما مرتكبها كترك الصلاة والفرار من الزحف	**العجاردة :** يوقف الحكم عليهم حتى البلوغ	**الصفرية :** القعود جائز	**الصفرية :** التقية جائزة في القول دون العمل
البيهسية : ما فيه حد يحد صاحبه ، ويسمى باسمه ، وما لا حد فيه فهو مغفور	**الاباضية :** التوقف ولكن يجوز تعذيبهم على سبيل الانتقام		

المعتزلة

والمرجئة والجبرية

المعتزلة لون آخر من الحركات التى قامت ابان عهد الدولة الأموية ولها طابع يختلف عن طابع الحركات التى سبق الحديث عنها ، فهى حركة فكرية محضة ، لم تكوّن جيشا ولم تشْهَر سيفا ، وما روى عن اشتراك بعض قادتها كعمرو بن عبيد فى الهجوم الذى شنه يزيد بن الوليد وسقط به الوليد بن يزيد ، لا يجعلها فرقة ذات مبادىء عسكرية ، لان الثورة ضد الوليد لم تكن ثورة المعتزلة ، وانما كانت ثورة بعيدة الجذور تتصل بكفاءة الخليفة وأخلاقه كما سبق أن شرحنا ، فاشتراك بعض المعتزلة فيها انما هو اشتراك فردى يدخل فى حدود المبادىء العامة التى تثير الناس على حاكم باغ أو حاكم مستهتر .

واذا كانت حركة المعتزلة فكرية دينية ، واذا كانت لم تكون جيشا ، ولم تشهر سيفا ، فانها عندما قويت لم تأنف أن تستعمل الضغط ضد مخالفيها كما شرحنا ذلك عند الكلام عن مشكلة خلق القرآن فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة (١) ، يوم أرغم الخليفة المأمون العلماء على اتباع رأى المعتزلة فى القول بأن القرآن مخلوق ، واقتضت فلسفته أن يعد فاسقا وخارجا على الدين من يقول بأن القرآن ليس مخلوقا (٢) ، وقد عد استعمال الضغط من مواقف المعتزلة المعيبة ، وكان هذا الضغط من أهم الاسباب التى قضت على هذا المذهب .

ذلك هو لون حركة المعتزلة ، حركة فكرية ، بحثت كثيرا من المبادىء الدينية وبحثت كذلك بعض الاحداث السياسية بحثا فكريا كما سيأتى

---

(١) انظر موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية جـ ٣ ص ١٢٩ — ١٣٤ .

(٢) انظر كتابه الى نائبه ببغداد اسحق بن ابراهيم فى جمهرة رسائل العرب للأستاذ صفوت جـ ٢ ص ٥٤٠ — ٥٤٧ .

ايضاحه ، وكان سلاحها فلسفيا عقليا ، فلما اعتنق المأمون بعض مبادئهـا دافع عن عقيدته بالقوة والضغط ، واذا كان هذا قد عيب عـلى المعتزلة ، فانه يمكن الدفاع عنهم بأن هذا كان تصرف الحاكم لا تصرف المعـتزلة ، أما هم فقد ظلوا فى حركاتهم الفكرية والفلسفية دون أن يحملوا سـلاحا أو يثيروا فتنـا عسـكرية ، وبهـذا ظل طابعهم بعيدا عن طابع الشيعة أو طابع الخوارج •

والحديث عن المعتزلة سيقتضينا الكلام ولو بايجاز عن فرق أخرى لها صلة بالموضوعات التى تكلم فيها المعتزلة وذلك كالجبرية والمرجئة وأهل السـنة •

ومذهب المعتزلة يرتبط ارتباطا كبيرا بمذهب الخـوارج الذين سبق أن تحدثنا عنه ، أو قل ان مذهب الخوارج أثار مشكلة كانت سـببا لا فى قيام المعتزلة فحسب بل فى قيام المرجئة والجبرية أيضا • وهذه المشكلة هى مشكلة مرتكب الكبيرة فقد سبق أن ذكـرنا أن الأزارقة أكبر فـرق الخوارج وأهمها قالت بكفر مرتكب الكبيرة كفر ملة أى خروجه من الاسلام وخلوده فى النار ، وهذا القول أثار بحث المفكرين حول حقيقة الايمـان ، وهل تأدية الفرائض والابتعاد عن الكبائر جزء منه أو ليست جزءا ، ومـا مكانة من آمن بالله ورسوله ثم قصر فى تأدية الفرائض أو ارتكب الكبائر وذلك هو ما يدخل ضمن المشكلة المعروفة فى اصـطلاح المتكلمين باسـم « خلق أفعال العباد » وفى هذا البحث ظهرت اتجاهات ثلاثة تكونت حولها مذاهب المرجئة والجبرية والمعتزلة :

راى المرجئـــة :

قالت المرجئة : ان الايمان هو الاقرار بوحدانية الله وبرسالة محمد اقرارا قلبيا • فمن أقر بذلك عن اعتقاد فهو مؤمن سواء أدى الفرائض أو لم يؤدها ، بعد عن الكبائر أو ارتكبها ، ويقول شاعرهم :

ولا أرى أن ذنبـــا بالـــغ أحـــــدا
م النـــاس شركا اذا ما وحدوا الصـــمدا

أما من قصر فى أداء الفرائض أو من ارتكب الكبائر فيرى بعض المرجئة عدم الحكم عليه فى الدنيا وارجاء الحكم الى الله يوم القيامة (١) ، ومن هذا المذهب اتخذت كلمة « المرجئة » من الارجاء أى التأخير . ويـــرى اليونسية أصـحاب يونس بن عون النميرى أن الايمان هـو المعرفة بالله والخضوع له وترك الاستكبار عليه والمحبة بالقـلب ، فمن اجتمعت فيـه هذه الخصال فهو مؤمن ، وما ســوى ذلك من الطاعـة ليس من الايمان ولا يضر تركها حقيقة الايمان ولا يعذب على ذلك اذا كان الايمان خالصا واليقين صادقا (٢) . ويقال ان كلمة « المرجئة » اتخذت من هذا المذهب من أرجأ أى أعطى الرجاء فى العفو ، وعلى هذا المذهب ما روى من قولهم : لا تضر مع الايمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، وما قاله عبيد المكتئب من أن العبد اذا مات على توحيده لا يضره ما اقترف من الآثام واجترح من السيئات (٣) .

وقال غسان الكوفى أحد زعماء المرجئة ، ان الايمان هو المعرفة بالله تعالى وبرسوله ، والاقرار بما أنزل وبما جاء به الرسول ، والايمان لذلك لا يزيد ولا ينقص (٤) . وهذا الرأى يخالف رأى أهل الحديث والسنة ، فانهم يرون أن الايمـان يزيد وينقص بزيادة الطاعات أو نقصـها لقوله تعالى : « واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا (٥) » والذى يقبل الزيادة يقبل النقصان ، ولما سئل صلى الله عليه وسلم : هل يزيد الايمان وينقص

---

(١) الشهرستانى : الملك والنحل ج ١ س ١٢٥ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) المرجع السابق والفصل لابن حزم والفرق بين البغدادى ومقـالات الاسلاميين للأشعرى وانظر كذلك
Nicholson : A Literary History of the Arabs p. 28'.
(٤) المراجع السابقة
(٥) الأنفال : الآية الثانية .

أجاب : نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة ، وينقص حتى يدخل صاحبه النار ، ويوافق أبو حنيفة على رأى غسان السكوفى وله تأويلات فى الأدلة السابقة (١) •

رأى الجبرية :

وقالت الجبرية : ان الافعال التى يأتى بها الانسان ، محامد كانت أو رذائل ، ليست من عمله ، وانما هى من خلق الله أجراها على يد الانسان فالعبد ليس له فعل ولا قدرة على فعل ، ومن ثَمَّ فالمؤمن لا يكفر بما يرتكبه من كبائر لانه مجبر على ارتكابها ، وهو كالريشة المعلقة فى الهواء تتحرك كيفما يحركها الريح • ومن كلام جهم بن صفوان زعيم الجبرية الذى سميت باسمه هذه الفرقة أحيانا فقيل « الجهمية » ما يلى : ان الانسان لا يقدر على شىء ، ولا يوصف بالاستطاعة ، وانما هو مجبور فى أفعاله ، لا قدرة له ولا اختيار ، وانما يخلق الله تعالى الافعال فيه على حسب ما يخلق فى سائر الجمادات ، وتنسب اليه الافعال مجازا كما تنسب الى سائر الجمادات ، كما يقال : أثمرت الشجرة وجرى الماء ، وتحرك الحجر ، وطلعت الشمس وغربت ، وتغيمت السماء وأمطرت ، واهتزت الارض وأنبتت •• الى غير ذلك ، والثواب والعقاب جبر ، كما أن الافعال جبر قال : واذا ثبت الجبر فالتكليف أيضا كان جبرا (٢) •

ويدعم جهم وأصحابه رأيهم فى القول بالجبر بآيات يرونها تؤيد ذلك ، مثل قوله تعالى « انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » (٣) وقوله «ولو شاء ربك لآمن من الأرض كلهم جميعا » (٤) وقوله « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » (٥)

---

(١) انظر محمود البشيشى : الفرق الاسلامية ص ١٦ .

(٢) الشهر ستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٨٠ ومثل هذا ما ورد فى كتب الفرق السابقة .

(٣) سورة القصص الاية ٥٦ .

(٤) سورة يونس الاية ٩٩ .

(٥) سورة البقرة الاية ٧ .

وقوله « ولا ينفعكم نصحى ان أردت أن أنصـح لـكم ان كان الله يريد أن يغويـكم (١) » .

رأى جمهور المسلمين (أهل السنة) :

وقد تصدى القرآن الكريم وجمهور المسلمين للرد على هذا المذهب الخطير ، الذى يدعو للكسل والتوانى ويلغى المسئولية ، واعتمدوا عـلى آيات كريمة من القرآن الكريم ، قال تعالى :

— سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء . كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ ان تتبعون الا الظن ، وان أنتم الا تخرصون . قل: فلله الحجة البالغة (٢) » .

— وقال الذين أشركوا : لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء . كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البلاغ المبين (٣) » .

— واذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله ، قال الذين كفـروا للذين آمنوا : أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ان أنتم الا فى ضلال مبين (٤) » .

— وقالوا : لو شاءالرحمن ما عبدناهم . ما لهم بذلك من عـلم ، ان هم الا يخرصون (٥) » .

وقال تعالى مثبتا أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت :

---

(١) سورة هود الاية ٣٤ .
(٢) سورة الأنعام الاية ١٤٨ .
(٣) سورة النمل الاية ٣٥ .
(٤) سورة يسن الاية ٤٧ .
(٥) سورة الزخرف الاية ٢٠ .

— لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت(١).

— فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره (٢).

— وأن ليس للانسان الا ما سعى وأن سعيه سوف يرى (٣) .

ويقول الامام جعفر الصادق فى هذا الموضوع : ان الله تعالى أراد بنا شيئا ، وأراد منا شيئا ، فما أراده بنا طواه عنا ، وما أراده منا أظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا ، وما بالنا نشتغل بالباطن عن الظاهر ؟ (٤) » .

ويقول الأستاذ الاكبر الشيخ محمود شلتوت شارحا الرأى الصواب فى اختيار الانسان وجبره ما يلى :

نعم ، يعلم الله — بشمول علمه — ما سيكون عليه الانسان باختياره من هدى أو ضلال ، خير أو شر ، وليس فى علم الله بذلك شىء من معانى القهر والالزام ، وانما هو مجرد انكشاف ما وقع وما سيقع على السنة الدائمة التى رسمها الله ، وهى سنة الاختيار التى بنى عليها التكليف والثواب والعقاب (٥) .

ولعل أستاذنا الامام محمد عبده هو أكثر من كتب فى هذا الموضوع توثيقا واحكاما ، ونحن هنا نقتبس بعض ما كتبه ، ففيه — فيما نعتقد — القول الفصل . قال رحمه الله عن أفعال العباد (٦) :

« كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود ولا يحتاج

---

(١) سورة البقرة الاية ٢٢٨ .
(٢) سورة الزلزال الايتان ٧ — ٨ .
(٣) سورة النجم الاية ٣٩ .
(٤) الشهرستانى : الملل والنحل : القسم الأول ص ١٤٧ .
(٥) الاسلام عقيدة وشريعة ص ٤٧ .
(٦) رسالة التوحيد ٥٧ — ٦٢ باختصار .

فى ذلك الى دليل يهديه ولا معلم يرشده ، كذلك يشهد أنه مدرك لأعماله الاختيارية ، يزن نتائجها بعقله ، ويقدم عليها بارادته ، ويقدرها بقدرة ما فيه من حس • ويعد انكار شىء من ذلك مساويا لانكار وجوده فى مجافاته لبداهة العقل •

« وكما يشهد ذلك فى نفسه يشهده أيضا فى بنى نوعه كافة متى كانوا مثله فى سلامة العقل والحواس ، ومع ذلك فقد يريد ارضاء خليل فيغضبه، وقد يطلب نيل رزقه فيفوته ، وربما سعى الى منجاة فسقط فى مهلكة ، فيعود باللائمة على نفسه أن لم يحكم النظر فى تقدير فعله ، ويتخذ من خيبته أول مرة مرشدا له فى الاخرى ، فيعاود العمل من طريق أقوم ، وبوسائل احكم ، ويتقد غيظه على من حال بينه وبين ما يشتهى أن كان سبب الاخفاق فى المسعى منازعة منافس له فى مطلبه فينبرى لمناضلته ، وتارة يتجه الى أمر أسمى من ذلك ان لم يكن لتقصيره أو لمنافسة غيره دخل فيما لقى من مصير عمله ، كأن هبت ريح فأغرقت بضاعة ، أو نزلت صاعقة فأحرقت ممتلكات له ، أو علق أمله بمعين فمات ، أو بذى منصب فعزل ، يتجه من ذلك الى أن فى الكون قوى أسمى من أن تحيط بها قدرته فيخشع ويخضع ، ولكنه يحاول مرة أخرى •

« أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من احاطة علم الله وارادته ، وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار فيما وقع عليه الاختيار فهو من طلب سر القدر الذى نهينا عن الخوض فيه ، واشتغال بما لا تكاد تصل العقول اليه •

« ودعوى أن الاعتقاد بكسب العبد لافعاله يؤدى الى الاشراك بالله ، دعوى من لم يلتفت الى معنى الاشراك على ما جاء به الكتاب والسنة ، فالاشراك اعتقاد أن لغير الله أثرا فوق ما وهبه الله من الأسباب الظاهرة ، وأن لشىء من الاشياء سلطانا على ما خرج من قدرة المخلوقين، وهو اعتقاد من يعظم سوى الله ، مستعينا به فيما لا يقدر العبد عليه ،

كالاستنصار فى الحروب بغير قوة الجيوش ، والاستشفاء من الامراض بغير قوة الادوية التى هدانا الله اليها ، والاستعانة على السعادة الاخروية أو الدنيوية بغير الطرق والسنن التى شرعها الله لنا .

« هذا هو الشرك الذى عليه الدنيويون ومن ماثلهم ، فجاءت الشريعة الاسلامية بمحوه ، ورد الامر فوق القدرة البشرية والاسباب الكونية الى الله وحده ، وتقرير أمرين عظيمين ، هما ركنا السعادة وقوام الاعمال البشرية .

الأول — أن العبد يكسب بارادته وقدرته ما هو وسيلة لسعادته .

الثانى — أن قدرة الله هى مرجع لجميع الكائنات ، وأن لا شىء سوى الله يمكن له أن يمد العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه .

« وواهب الوجود يهب الانواع والاشخاص وجودها ، ويهب لها توابع الوجود ، ومن تابع الوجود فى الانسان أن يكون مفكرا مختارا فى عمله على مقتضى فكره ، فأعمال الانسان حاصلة عن الكسب والاختيار وعلم الله بها ليس بسالب للتخير فى الكسب » .

ونضيف ان ما هو مكتوب علينا ليس الا تسجيلا لما سيحدث وليس أمرا به فاذا كان المؤرخ يدون الماضى فان قدرة الله تحيط بالحاضر والمستقبل احاطتها بالماضى ولذلك سجل على كل انسان ما سيحدث منه دون أن أكون ذلك أمرا باحداثه .

رأى المعتزلة :

وقال المعتزلة : ان الشخص هو الذى يخلق أفعاله بنفسه ، وهو بذلك مستحق للثواب فيما يعمله من خير ، ومستحق للعقاب فيما يرتكبه من آثام ، واستدل المعتزلة على رأيهم بآيات من القران الكريم منها .

— كل نفس بما كسبت رهينة (١) .

— فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (٢) .

— انا هديناه السبيل اما شاكرا وأما كفورا (٣) .

— ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا (٤) .

— من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام العبيد (٥) .

— وأن ليس للانسان الا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الاوفى (٦) .

— ومن يكسب اثما فانما يكسبه على نفسه (٧) .

واذا كان الانسان هو الذى يخلق افعال نفسه وهو لذلك مسئول عنها مسئولية كاملة يثاب على الخير ويعاقب على الشر ، فما مكانة مرتكب الكبيرة عند المعتزلة ؟

الجواب عن هذا السؤال يرويه لنا الشهرستانى (٨) بقوله :

دخل رجل على الحسن البصرى فقال : يا امام الدين ، لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم كفر يخرج به مرتكبها عن الملة ، وهم وعيدية الخوارج ، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر ،

---

(١) سورة المدثر الآية ٣٨ .
(٢) سورة الكهف الآية ٢٩ .
(٣) سورة الدهر الآية ٣ .
(٤) سورة المزمل الآية ١٩ .
(٥) سورة فصلت الآية ٤٦ .
(٦) سورة النجم الآية ٣٩ — ٤١ .
(٧) سورة النساء الآية ١١٠ .
(٨) الملل والنحل ١ : ٥٢ .

والكبيرة عندهم لا تضر مع الايمان ، بل العمل على مذهبهم ليس ركنا من الايمان ، ولا يضر مع الايمان معصية ، كما لا ينفع مع الفكر طاعة ، وهم مرجئة الامة ، فكيف تحكم لنا فى ذلك اعتقادا ؟

فتفكر الحسن فى ذلك ، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء ، أنا لا أقول أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقا ولا كافر مطلقا . بل هو فى منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر .

ويقول الشهرستانى ان واصلا قام من حلقة الحسن ، واعتزل الى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن . فقال الحسن : اعتزل عنا واصل . فسمى هو وأصحابه معتزلة ، ويورد الشهرستانى الايضاح الذى أدلى به واصل لتأييد اتجاهه وهو : أن الايمان عبارة عن خصال خير اذا اجتمعت سمى المرء مؤمنا وهو اسم مدح ، ومرتكب الكبيرة لم يستجمع خصال الخير ، ولا استحق اسم المدح ، فلا يسمى مؤمنا ، وليس هو بكافر مطلقا ، لان الشهادة وأعمال خير أخرى موجودة فيه لا وجه لانكارها ، لكنه اذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة ، فهو من أهل النار خالدا فيها اذ ليس فى الآخرة الا فريقان « فريق فى الجنة وفريق فى السعير » لكن عذابه أخف من عذاب الكفار [١] .

وهكذا كان موضوع « مرتكب الكبيرة » سببا فى الانقسام الذى حصل فى حلقة الحسن البصرى وبالتالى سببا فى قيام المعتزلة ، ولكن الباحث المدقق يدرك أن الخلاف بين الحسن وتلميذه واصل كان قد بدأ قبل بحث موضوع مرتكب الكبيرة ، وفى « الملل والنحل للشهرستانى » ما يؤكد اتجاه واصل وصديقه عمرو بن عبيد الى القول بأن الانسان هو الذى يخلق أفعال نفسه وهو موضوع أوسع من موضوع مرتكب الكبيرة ، وكذلك الى القول بنفى صفات الله ، وكان رأى واصل وعمرو بن عبيد

---

(١) الملل والنحل ١ : ٥٢ .

مخالفا لرأى الحسن فى هذين الموضوعين (خلق الافعال ونفى الصفات) ، ولكن واصلا وزميله ظلا فى حلقة الحسن مع اختلاف الرأى ، فلما جاءت مسألة « مرتكب الكبيرة » وسعت شقة الخلاف وسببت الاعتزال ، يقول الشهرستانى بعد تقريره : اعتزل واصل وتابعه على ذلك عمرو بن عبيد بعد أن كان موافقا له فى القدر وانكار الصفات (١) .

ومن الملاحظ أن واصلا لم ينتظر اجابة الحسن عندما عرض السؤال عن مرتكب الكبيرة ، لأن واصلا كان يعرف اجابة أستاذه ، فالحسن كان من أهل الحديث فى القول بالقضاء والقدر أى بأن الله هو الذى يخلق أفعال العبد ، وليس للعبد فيها الا الاختيار والميل وهو مايسمونه بالكسب، كما كان واصل يدرك اتجاه أهل الحديث الى أن أفعال العبد ليست جزءا من الايمان ، وعلى هذا فقد أدرك واصل أن رأى الحسن سيجعل مرتكب الكبيرة مؤمنا عاصيا . فسارع واصل وأعلن رأيه .

ونشأ بذلك مذهب المعتزلة على كل حال ، وأميل الى الاقتناع بما أوردناه أنفا عن الشهرستانى وهو ما ذكرته كل كتب الفرق التى بين أيدينا من أن تسمية المعتزلة جاءت من اعتزال واصل حلقة الحسن وقول الحسن « اعتزلنا واصل » وقد أورد الأستاذ المرحوم أحمد أمين وجوها أخرى للتسمية ، وضعف هذا الرأى الشهير ، واعتقادى أن ما أورده الاستاذ لم يضعف هذا الرأى الشهير ، وما اقترحه من أسباب أخرى لهذه التسمية لا يرجح أيضا هذا الرأى (٢) .

وهكذا بدأت المعتزلة ، وكان بدؤها مرتبطا بمعارضة رأى الخوارج فى مرتكب الكبيرة كما قلنا ، ولكنها — كما قلنا أيضا — كانت لها آراء أخرى غير الكلام فى مرتكب الكبيرة ، ولما تم استقلال هذه الطائفة بدأ شيوخها يعلنون آرائهم ويقررون اتجاههم ، وكان ذلك فى مطلع القرن

---

(١) انظر الملل والنحل الفصل والفرق بين الفرق ومقالات الاسلاميين .
(٢) فجر الاسلام ص ٢٨٨ — ٢٨٩ .

الهجرى الثانى ، واعتمد المعتزلة على العقل فى تقرير مبادئهم ، ولذلك عنوا بالعقل وأحلوه مكانا ساميا ، ثم اعتمدوا على الفلسفة وبخاصة عندما ظهرت النهضة العلمية فى العالم الاسلامى ، وترجمت فلسفات أمم متعددة الى اللغة العربية ، وكانت الفلسفة سلاح أعداء الاسلام يهاجمونه بها ، فاتخذ المعتزلة هذا السلاح سلاحا لهم ، وتصدوا للدفاع عن الاسلام به ضد كل من يناوىء الاسلام أو يتخطاه ، ويقول الشهرستانى عن نفى المعتزلة لصفات البارى ما يلى : وكانت هذه المقالة فى بدئها غير ناضجة وكان واصل بن عطاء يسير فيها على قول ظاهر وهو الاتفاق على استحالة وجود الهين قديمين أزليين ، قال « ومن أثبت معنى وصفة قديمة فقد أثبت الهين » ولما طالع أصحابه كتب الفلاسفة انتهى نظرهم فيها الى رد جميع الصفات الى كونه عالما قادرا ، ثم الحكم بأنهما صفتان ذاتيتان هما اعتباران للذات القديمة كما قال الجبائى أو حالان كما قال أبو هاشم وميل أبى الحسن البصرى نحو ردهما الى صفة واحدة وهى العالمية هو عين مذهب الفلاسفة (١) .

ويقول الأستاذ أحمد أمين (٢) : والحق أن المعتزلة هم الذين خلقوا علم الكلام فى الاسلام ، وأنهم أول من تسلح من المسلمين بسلاح خصومهم فى الدين ، ذلك أنه فى أوائل القرن الثانى الهجرى ظهر أثر من دخل فى الاسلام من اليهود والنصارى والمجوس والدهرية ، فكثير من هؤلاء أسلموا ورءوسهم مملوءة بأديانهم القديمة ، ولم يزد عليهم الا النطق بالشهادتين ، فسرعان ما أثاروا فى الاسلام المسائل التى كانت تثار فى أديانهم ، وكانت هذه الاديان التى ذكرناها قد تسلحت من قبل بالفلسفة اليونانية والمنطق اليونانى ، ونظمت طريق بحثها وتعمقت فى ذلك فواجهوا الاسلام وهو الدين الذى يمتاز ببساطة عقيدته فأثاروا حوله الشكوك وليس هؤلاء الذين أسلموا هم الذين فعلوا ذلك فقط ، بل كانت

---

(١) الملل والنحل ١ : ٥١ .
(٢) فجر الاسلام ٢٩٩ — ٣٠٠ .

البلاد الاسلامية مملوءة بذوى الأديان المختلفة الذين ظلوا على أديانهم وكان منهم كثيرون فى بلاد الدولة الاموية يشغلون مناصب خطيرة ، هؤلاء وهؤلاء أثاروا مسألة القدر على هذا النمط الفلسفى ، وكانت معروفة فى دينهم ، وأثاروا مسألة صفات الله وخلق القرآن ولها نظير فى النصرانية وأثار الزرادشتيون كثيرا من مسائلهم ، وكل ذلك دعا المعتزلة أن يتسلحوا بسلاح عدوهم مجادلوهم علميا ، وردوا هجمات القائلين بالجبر والمنكرين لله ، كما ردوا ما أثارة اليهود والنصارى والمجوس من شكوك ، ونشطوا لهذا العمل نشاطا بديعا •

مبادىء المعتزلة :

والاعتقادات التى ينضوى تحتها مذهب المعتزلة هى :

١ — العدل : يطلق المعتزلة « العدل » على ما سبق أن شرحناه من أن الانسان يخلق أفعال نفسه خيرها وشرها ، ويستحق — بناء على ذلك — الثواب والعقاب ، والرب منزه عن أن يضاف اليه شر وظلم وفعل هو كفر ومعصية ، لأنه لو خلق الظلم كان ظالما ، واتفقوا على أن الله تعالى لا يفعل الا الصلاح والخير ، ومن أجل هذا المبدأ يطلق على المعتزلة « العدلية » أى الذين كقولون بالعدل ، كما يطلق عليهم من أجله أيضا « القدرية » ، أى الذين يعارضون القضاء والقدر ، ولا يقولون بهما ، وهذا اللقب يكرهه المعتزلة ، ولا يرضون به اسما لهم ويرون أن الأولى أن يطلق هذا اللقب على من يقول بالقدر لاعلى من ينفى القول به ، والسبب فى كراهيتهم لهذا اللقب أنه ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : (القدرية مجوس هذه الامة) ، وقوله : (القدرية خصماء الله فى القدر) ولهذا السبب نجد القائلين بالقدر يلصقونه بالمعتزلة ، والمعتزلة يلصقونه بالقائلين بالقدر [1] •

---

(١) الملل والنحل والفصل والفرق ومقالات الاسلاميين فى اماكن متعددة •

وهذه الأحاديث تفيدنا أن القول فى القدر بدأ منذ عهد الرسول ، وأنه موضوع قديم كثر الحديث فيه ، وينسب دخوله للعالم الاسلامى الى رجل نصرانى أسلم ، وتلقاه عنه معبد الجهنى وغيلان الدمشقى ، وكان هذا الموضوع يطرأ فى المجالس الاسلامية من حين الى آخر ، فلما جاء المعتزلة وقالوا به أكسبوه صبغة علمية وجعلوه أكثر دقة واتقانا •

٢ — التوحيد : يطلق المعتزلة « التوحيد » على ما سبقت الاشارة اليه من نفى المعتزلة لصفات الله ، فانهم قالوا « بنفى الصفات القديمة » أصلا لأنه لو كانت هناك صفات قديمة لتعدد القدماء ، وهذا شرك ، وقالوا ان الله عالم بذاته ، وقادر وحى بذاته ، ومتكلم بذاته ، وبناء على ذلك قالوا بخلق القرآن لأنه ليس هناك قديم الا الله •

ومن أجل هذا المبدأ يطلق أعداء المعتزلة عليهم لقب « المعطلة » لأنهم عطلوا صفات الله وألغوها ، ومن أجل هذا المبدأ كذلك يطلق على من يقول باثبات صفات الله تعالى « الصفاتية » ، ومن أجل المبدأين السابقين يطلق المعتزلة على أنفسهم « أهل العدل والتوحيد » (١) •

٣ — الوعد والوعيد : اتفق المعتزلة على أن المؤمن اذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب ، والتفضل معنى آخر وراء الثواب ، واذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود فى النار ، لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار • وسموا هذا « الوعد والوعيد » (٢) •

٥ — الحسن والقبح العقليان : اتفق المعتزلة على أن العقل يستطيع أن يميز الحسن من القبيح ، فطبيعة كل من الحسن والقبح معروفة ، وعلى الانسان أن يعتنق الحسن ويتجنب القبيح ، ولا يلزم لذلك ارسال الرسل ، وان قصر الانسان فى المعرفة استوجب العقوبة ، ويستوجبها كذلك اذا عرف الحسن ولم يتبعه ، أو عرف القبيح ولم يتجنبه ، وأما

---

(١) و (٢) المراجع السابقة •

ارسال الرسل فكان مزيد عون من الله تعالى « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة (١) .

٦ — وهناك اتجاه لواصل بن عطاء زعيم المعتزلة يبدى به رأيه فى أصحاب الجمل وأصحاب صفين ، فقال أن أحد الفريقين فاسق لا محالة ، لكنه لا بعينه ، وقد عد الشهرستانى ذلك الاتجاه قاعدة عند المعتزلة (٢) .

ولست أراه قاعدة لانه كلام عن حادثة معينة . والقاعدة أو المبدأ يجب أن يكون شيئا عاما يطبق على الاحداث الفردية ، الا اذا قصد الشهرستانى أن واصلا أراد أن أى خلاف أو حرب بين المسلمين يكون أحد الفريقين فيه فاسقا لا بعينه ، بيد أنا لا نعتقد أن واصلا يقول ذلك ، فقد يكون أحد الفريقين معتديا فيعتبر فاسقا بعينه .

تلك خلاصة المبادىء التى قال بها المعتزلة ، وقد بدأت كما قلنا من قبل سهلة يسيرة كما يتضح من سردها آنفا ، ولكنها فى العصر العباسى تعقدت ودخلتها الفروض والتعريفات والشذوذ أحيانا حتى مرقت فى بعض تصرفاتها عن طبيعة الدين الاسلامى ، ونحب هنا قبل أن نطوى صفحة المعتزلة أن نثبت ما أخذ على هذه الفرقة من زلات واخطاء :

فأولا : بالغ المعتزلة فى احترام العقل وتقديره ، والعقول كثيرا ماتزل وتخطىء ، وقد حَمَلَ العقلُ بعضَهم الى القول بأن حركات الخلد تنقطع ، وتصير الجنة والنار ومن فيهما الى سكون دائم خمودا ، وتجتمع اللذات فى ذلك السكون لأهل الجنة ، وتجتمع الآلام فى ذلك لاهل النار . وسبب ذلك القول هو أن العقل هيأ لهم أن ما له أول له آخر والجنة والنار لهما أول فلابد أن يكون لهما نهاية وآخر (٣) .

وثانيا : يمتاز الاسلام بسهولته ويسره ، ولكن المعتزلة عقدوا هذه

---

(١) المراجع السابقة فى عدة امكنة والآية رقم ٤٢ من سورة الانفال .
(٢) الملل والنحل ١ : ٥٢ — ٥٤ .
(٣) الملل والنحل ١ : ٥٤ .

العقيدة السمحة بما أدخلوه عليها من فلسفات ودراسات لاهوتية ، وكونية لم تشرح الاسلام بمقدار ما أضفت عليه من غموض .

ثالثا : نزل المعتزلة محيط الفلسفة ليدافعوا بها عن الاسلام ، ولكن كثيرا منهم طعن نفسه بالسلاح الذى بيده ، أو بعبارة أخرى غرق بعضهم فى هذا المحيط الفلسفى وتخبطوا فيه وضلوا ، حتى قال بعضهم بالتناسخ وبقدرة الله (جلا وعلا) على الكذب والظلم ، ولو كذب أو ظلم كان كاذبا أو ظالما (١) (تعالى الله عن ذلك) .

رابعا : عندما بحث المعتزلة موضوع الفتن التى وقعت فى صدر الاسلام جوز أكثرهم الطعن فى الصحابة ونالوا منهم وهاجموهم هجوما عنيفا لا يناسب ما لهؤلاء من تاريخ حافل بالخير لنشر الاسلام وتأييد الرسول ، ووصل الهجوم الى التشكيك والتفسيق أحيانا (٢) .

كل هذه الأسباب بالاضافة الى تأييدهم استعمال الضغط ضد من لم يقل بخلق القرآن كانت سببا فى انفضاض الناس من حول المعتزلة ، ثم فى تدهور مذهبهم واضمحلال أمره .

وبعد ، ذلك هو العصر الأموى ، عصر حافل بالحركات السياسية والحركات الفكرية ، ولا نزاع أنه لا ينافسه عصر آخر فيما خلد من فتوح وما جذب للاسلام من جموع ، وما نشأت به من أفكار ، ولم تكن الآراء التى ظهرت فى العصر العباسى الا ذات جذور أموية ، فالعصر الأموى لك عصر فريد بين عصور التاريخ الاسلامى ، وهو جدير بأن يكون رة للمسلمين فى جميع البقاع حتى العهد الحاضر .

---

(١) الملل والنحل ص ٦١ ، ٦٧ .
(٢) المرجع السابق ص ٥٩ .

كلمة ختام

الاسلام والفرق

وبعد ، أيها القارىء الكريم ، لقد عشنا معاً جولة طويلة حول ما يسمى « الفرق الإسلامية » ، فهل هذه الفرق هى فعلاً فرق إسلامية ؟ ذلك سؤال مهم نطرحه لأول مرة للمناقشة والنظر .

إن الباحث فى مقارنة الأديان يجد فرقاً كثيرة فى اليهودية والمسيحية والجينية وفى غيرها من الأديان السماوية والوضعية ، ويتضح للباحث أن هذه الفرق لها جذور فى الأديان نفسها ، فلكل منها فهم خاص للقضايا الدينية الكبرى ، أو لقضية منها على الأقل ، ولنضرب لذلك بضعة أمثلة لتوضيح هذه النقطة :

ففى اليهودية يوجد الفرّيسيون والصدّوقيون والقرّاءون ، ولكل من هؤلاء فهم خاص لبعض العقائد اليهودية ، فالفرّيسيون يعتقدون فى البعث وقيامه الأموات وفى وجود الملائكة والعالم الآخر ، كما يعتقدون أن التوراة ليست هى كل الكتب المقدسة التى تشرح اليهودية ، ولكن هناك بجانبها روايات شفوية وشروح وتفاسير تناقلها الحاخامات من جيل الى جيل وتكوّن فيها التلمود ...

أما الصدّوقيون فينكرون البعث والحياة الآخرة وينكرون التلمود ويعتمدون على التوراة فقط وينكرون وجود الملائكة ...

والقراءون ينكرون التلمود ويقولون بالاجتهاد وضرورة تصحيح الأخطاء التى وقع فيها السابقون من اليهود فى بعض صور التشريع كزواج بنت امرأة الأب .

فاذا جئنا للطوائف والفرق المسيحية وجدناها كذلك تفترق فى المعالم الكبرى وينبع خلافها من فهم المصادر الأولى ، فالكنيسة الكاثوليكية

تقول إن روح القدس نشأ عن الله الأب والله الابن معـا ، ولكن الكنيسة الأرثوذكية تقول إن روح القـدس نشـأ عن الله الأب وحـده ، وقالت الكاثوليكية بالمساواة الكاملة بين الله الأب والله الابن ، وقالت الأرثوذكية بأفضلية الله الأب عن الله الابن ...

وقال البروتستانت بأن فهم الكتاب المقدس متروك لكل قادر عليه ، ولكن الكاثوليك والأرثوذكس قالوا بأن فهم الكتاب المقدس وقف" عـلى رجال الكنيسـة دون سواهم .

وفى الجينية وأديان الهند فروق كثيرة ترجع الى أصـول العقائد ، وهـذا واضح لمن يقرأ كتابنا « أديان الهند الكبرى » .

وبهذا يتضح أن الفِرَق والطوائف فى الأديان نشـأت مبكرة" . وكانت نشأتها حول فهم الفـكر الدينى ... ثم هى لذلك لاتزال تعيش حتى الآن .

فماذا نرى عندما نريد أن نطبق هذا التفكير على الفرق الاسلامية ؟

إن الإجابة عن هـذا السؤال توضـح لنا أن الاسـلام ليست به فِرَق" على الإطلاق ، فهـذه الفِرَق التى تدارسـنا تاريخها يتضـح انتماؤها لأفكار غير اسلامية ، فالتشيع كما رأيناه فكر دخيـل ، وأفكار ألـْقـَى بها عبد الله بن سبأ ومن جاء بعده ، وليست لها جذور إسلامية ، حتى أن المفكرين المسلمين اصطلحوا على تسميتها بالرافضـة ، فهى ترفض كثيرا مما اتفق عليه المسلمون ، وهى أيضـا مرفوضة من أكثر المسلمين ، وقـد رفضـها الإمام على نفسه واستنكر ما قاله زعماؤها كمـا روينا ذلك فيما سبق .

والخوارج بدو لا فكر عندهم ، وقـد ذكرنا أنهم حاربوا للرغبة فى الحرب شأن البدو ، وأنهم بعد أن حاربوا تساءلوا : لماذا نحـارب ؟ وقد حاربوا عليـا وأعـداء على ، وحاربوا الأمويين ، كما حاربوا أعداءهم العباسيين ، بل حارب بعضهم بعضا ، وأنكر بعضهم اتجاهات البعض .

والمعتزلة فكر فلسفى وافد من الخارج سرعان ما مات واختفى فى عهد المتوكل سنة ٢٣٢ واختفى معه المرجئة والجبرية .

وبمناسبة الحديث عن اختفاء المعتزلة والجبرية والمرجئة نقرر أن الخوارج اختفوا أيضا وانفض الناس عنهم تماما حتى أن أهل عمان الذين تعيش الاباضية فى بلادهم ينكرون أنهم خوارج ويغضبون إن سُمّوا بذلك ، ويرون أنهم لا يرتبطون بالخوارج الذين خرجوا على الإمام على وإنما يرتبطون بعبد الله بن إباض الذى خرج على عبد الملك بن مروان وهم معتدلون جدا فى مذهبهم ويعتبرون أنفسهم ورثة الفكر الإسلامى الأصيل [1] .

أما الشيعة فاذا أردنا بها التفكير الأساسى لها وهو حب آل البيت فذلك ليس مذهبا ولا فرقة ، وهو اتجاه عادى يكثر فى مصر التى يحب سكانها آل البيت دون أى تغيير فى المبادىء الاسلامية ، ودون أى تمسك بما سمى الإمامة وما تفرع عنها .

أما الشيعة بمبادئهم فى الامامة ، وحق آل البيت فيها ، وامتيازات الإمام ، ... وغير ذلك مما شرحناه فى هذا الجزء فذلك شىء دخيل على الاسلام ، وهى عقائد جلبها عبد الله بن سبأ وأتباعه واستنكرها الإمام على نفسه واستنكرها أبناؤه وأحفاده كما ذكرنا ، ومن هنا فالذين يعتنقون هذا المذهب لا يتبعون مذهبا إسلاميا .

ونصل بذلك الى حقيقة مهمة هى انه لا فِرَق فى الاسلام . وأن الفرق التى ظهرت والتى تحدثنا عنها آنفا كانت أولا ظواهر لانحرافات خاصة ، وكانت ثانيا قصيرة العمر ، إذ انفض عنها كل المسلمين وكم نكون سعداء يوم تتخلى الشيعة عن المبادىء الوافدة لتعود الوحدة التى ننشدها للمسلمين جميعا .

---

(١) انظر ماكتبناه عنهم من الجزء السابع من هذه الموسوعة ص ٢٣٣ وما بعدها من الطبعة الثانية .

مرة أخرى ، إن الباحث فى الديانات يجد أن الفِرَق تتوافر فيها العوامل الآتية :

١ — قديمة النشأة إذ تظهر غالبا مع ظهور الدين •

٢ — اتصالها بالمبادىء الأصلية فى العقيدة •

٣ — بقيت هذه الفرق على مر السنين والقرون •

وهذه العوامل لا توجد فيما يسمى الفِرَق الاسلامية ؛ فهى :

أولا : فرق طارئة تأخرت فى الظهور •

ثانيا : مصدرها ثقافات أجنبية وافدة •

ثالثا : انفض المسلمون عنها من وقت مبكر •

ولم يبق من الفرق الاسلامية إلا الشيعة التى لا تزال مرتبطة بثقافة وافدة ، وهى تحاول أن تربط نفسها بروابط إسلامية كبعض الأحاديث النبوية ، ولكن جمهور المسلمين يردّون هذه الأحاديث •

لقد تحدث بعض المؤلفين الأوائل عن الفرق ، ثم اقتبست الأجيال التالية هذا الحديث دون وقفة تمحيص ، ومن توفيق الله أننى وقفت أمحص وأدرس ، فقادتنى الدراسة لهذه النتيجة الطيبة التى تحمى ديننا من شرور الخلافات ، والتى تنسب ما عانته الأجيال السابقة من صراعات الى الثقافات الوافدة التى كانت فى أكثرها تُكِنّ الشر للإسلام •

ومن الواضح أننا لا ننكر وجود الخوارج والمعتزلة والمرجئة والجبرية ، ولكننا ننكر أنها فرق اسلامية ، إن هؤلاء وأولئك تجمعات تأثرت بثقافات أجنبية وظهرت فى التاريخ مسالمة أو محاربة ، وفطن المسلمون أن هؤلاء لا يمتون بفكرهم الى الإسلام فانفضوا عنهم وسرعان ما اختفوا من أفق التاريخ ، وقد ظهر على منوالهم سواهم كالبابية والبهائية والقرامطة ، وليس من العلم فى شىء أن نطلق على هذه الفرق وأمثالها فرقا اسلامية •

والله أعلم

ثبت المراجـع

ملاحظتـان :

١ — المصادر المذكورة هنا هى التى اعتمـد عليهـا هذا الكتاب ووردت فى ذيل صـفحاته ، اما المراجـع الأخرى التى أسـهمت فى هـذا العمـل بطريق غير مباشر فلم تذكر فى هذه القائمة .

٢ — الطريقة التى اتبعت فى تنظيم هـذه القائمة بنيت على أسـاس عـدم اعتبار الملحقات (ابن — الـ) .

١ — القـرآن الكريم .

٢ — مجموعة من كتب التفسير .

٣ — كتب الأحاديث الستة .

٤ — مجموعة من كتب الفقه .

٥ — Encyclopoedia of Islam

٦ — بعض المجلات العلمية

٧ — ابن الأثير — الكامل فى التاريخ

٨ — احمد امين — فجر الاسـلام

٩ — احمد امين — ضحى الاسلام

١٠ — احمد أمين — يوم الاسـلام

١١ — احمد زكى صفوت — جمهرة رسائل العرب

١٢ — دكتور احمد الساداتى — تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية

١٣ — دكتور احمد شلبى — تاريخ التربية الاسلامية

١٤ — دكتور احمد شلبى — موسوعة التاريخ الاسـلامى (بأجزائهـا المختلفـة)

١٥ — دكتور احمد شلبى — اليهودية من سلسلة « مقـارنة الأديان »

١٦ — دكتور احمد شلبى — السياسة فى الفكر الاسلامى

١٧ — دكتور احمد هيكل — الأدب الأسبانى

١٨ — الأزدى — فتوح الشـام

١٩ — الأزرقى — اخبار مكة

٢٠ — الأشعرى — مقالات الاسلاميين

٢١ — الأصفهانى — الأغـانى

٢٢ — Browne — A Literary History of persia

٢٣ — البلاذرى — فتوح البلدان

٢٤ — البغدادى (عبد القاهر) الفرق بين الفرق

٢٥ — البغدادى (محمد امين) سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب

٢٦ — الأمير تميم — ديوان الأمير تميم (مخطوط)

٢٧ — Thomas Arnold — The Caliphate

٢٨ — Thomas Arnold — The Preacting of Islam

٢٩ — Gibb — Muhammadanism

٣٠ — Gibb — The Arab Conquests in Central Asia

٣١ — Guilliaume — The Traditions of Islam

٣٢ — جورجى زيدان — تاريخ التمدن الاسلامى

٣٣ — ابن الجوزى — تذكرة خواص الأمة

٣٤ — حاجى خليفة — كشف الظنون

٣٥ — ابن ابى الحديد — شرح نهج البلاغة

٣٦ — ابن حزم — الفصل فى الملل والنحل

٣٧ — ابن حزم — المحلى

٣٨ — دكتور حسن ابراهيم — تاريخ الاسلام السياسى

٣٩ — دكتور حسن ابراهيم — الفاطميون فى مصر

٤٠ — دكتور حسن سليمان — ليبيا بين الماضى والحاضر

٤١ — الخضرى — الأمم الاسلامية

٤٢ — ابن خلدون — المقدمة

٤٣ — ابن خلدون — العبر

٤٤ — ابن خلكان — وفيات الأعيان

٤٥ — Dozy — The Muslims in Spain

٤٦ — دوايت دونلدش — عقيدة الشيعة

٤٧ — الذهبى — تاريخ الاسلام

٤٨ — السبكى — طبقات الشافعية

٤٩ — سيديو — تاريخ العرب العام (ترجمة عادل زعتر)

٥٠ — Stanley Lane Poole — The Arabs in Spain

٥١ — Lane - Poole — Muhammadan Dynasties

٥٢ — ابن سعد — الطبقات

٥٣ — Sayid Ameer Ali — A Short History of the Saracens

٥٤ — السيد ماضى ابو العزائم — اسرار القرآن

٥٥ — السيد محمد المهدى — خلاصة الاخبار

٥٦ — السيوطى — تاريخ الخلفاء

٥٧ — د. عبد الهادى شعيرة — ممالك ما وراء النهر

٥٨ — ابن شاكر الكتبى — فوات الوفيات

٥٩ — الشهرستانى — الملل والنحل

٦٠ — صلاح الدين المنجد — خطط دمشق

٦١ — ابن طباطبا — الفخر فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية

٦٢ — الطبرى — تاريخ الامم والملوك

٦٣ — عارف تامر — (ناشر) اربع رسائل اسماعيلية

٦٤ — عباس محمود العقاد — مبادىء الاسلام واباطيل خصومه

٦٥ — عباس محمود العقاد — الصديقة بنت الصديق

٦٦ — عباس محمود العقاد — الحسين سيد الشهداء

٦٧ — ابن عبد الحكم — فتوح مصر

٦٨ — ابن عبد الحكم — سيرة عمر بن عبد العزيز

٦٩ — عبد الحميد العبادى — المجمل فى تاريخ الاندلس

٧٠ — ابن عبدربه — العقد الفريد

٧١ — عبد العزيز سيد الاهل — الخليفة الزاهد

٧٢ — دكتور عبد المنعم ماجد — التاريخ السياسى للدول العربية

٧٣ — ابن العربى — احكام القرآن

٧٤ — ابن العبرى — تاريخ مختصر الدول

٧٥ — ابن عساكر — تاريخ دمشق

٧٦ — على بن حنظلة — عقائد الاسماعيلية

٧٧ — عمر ابو النصر — آل محمد فى كربلاء

٧٨ — الغزالى — الاحياء

٧٩ — غوستاف لوبون — حضارة العرب

٨٠ — فان فلوتن — السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات

٨١ — Parasad — Medieval Mosllm Rule in India

٨٢ — أبو الفـدا — المختصر فى اخبار البشر

٨٣ — Philip Hitti — History of the Arabs

٨٤ — ابن قتيبة — عيون الأخبار

٨٥ — ابن قتيبة — الامامة والسياسة

٨٦ — ابن قتيبة — المعـارف

٨٧ — القزوينى — آثار البلاد وأخبار الأعشى

٨٨ — القلقشندى — صبح الأعشى

٨٩ — ابن كثير — البداية والنهاية

٩٠ — الكلينى — اصول الكافى

٩١ — كيرك — موجز تاريخ الشرق الاوسط (ترجمة عمر الاسكندرى)

٩٢ — كارل بروكلمان — تاريخ الشعوب الاسلامية

٩٣ — Lewis. Pemard — The Origin of Ismaillism

٩٤ — المـاوردى — الاحكام السلطانية

٩٥ — المبرد — الكامل

٩٦ — المجلسى — تحفة الزائرين

٩٧ — محمد صادق الصدر — الشيعة

٩٨ — محمد عبد الله عنان — مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام

٩٩ — محمد عبد الله عنان — تاريخ المؤامرات السياسية

١٠٠ — محمد عبده (الامام) — رسالة التوحيد

١٠١ — محمد احمد جاد المولى — أيام العرب فى الجاهلية

١٠٢ — محمد كرد على — خطط الشـام

١٠٣ — محمد كرد على — الاسلام والحضارة العربية

١٠٤ — محمود شلتوت (الامام) الاسلام عقيدة وشريعة

١٠٥ — محمود البشبيشى — الفرق الاسلامية

١٠٦ — محيى الدين بن العربى — العواصم من القواصم

١٠٧ — المسعودى | مروج الذهب
١٠٨ — مصطفى الرافعى | اعجاز القرآن
١٠٩ — Macdonald | Muslim Theology
١١٠ — المقـرى | نفح الطيب
١١١ — المقريزى | الخطط
١١٢ — المؤيد فى الدين | ديوان المؤيد فى الدين
١٣ — المؤيد فى الدين | المجالس المؤيدية
١١٤ — النعمان بن محمد | المجالس والمسايرات (مخطوط)
١١٥ — النعمان بن محمد | دعائم الاسلام (مخطوط)
١١٦ — النعمان بن محمد | تاويل دعائم الاسلام (مخطوط)
١١٧ — النعمان بن محمد | اسباب التأويل الباطن (مخطوط)
١١٨ — النـووى | تهذيب الأسماء
١١٩ — Nicholson | A Literary History of the arabs
١٢٠ — ابن هانىء | ديوان ابن هانىء
١٢١ — Wells | A Short History of the world
١٢٢ — Wellhausen | Al Khawarig and Al Shiah
١٢٣ — Wellhausen | The Arab Kingdom and its Fall
١٢٤ — الواقـدى | ديوان ابن هانىء
١٢٥ — ياقـوت | معجم البلدان
١٢٦ — اليعقوبى | تاريخ اليعقوبى

فهـرس الأعــلام

ملاحظـــات :

١ — الطريقة التى اتبعت فى تنظيم هذه الأعلام مبنية على عدم اعتبار الملحقات [ابن — الـ] .

٢ — اذا تكرر الاسم فى صفحة واحدة وضعنا رقم الصفحة وبعده حرف « م » أى مكرر .

٣ — لم نورد فى فهرس الأعلام اسماء مؤلفى المراجع التى اعتمدنا عليها اكتفاء بورودها فى ذيل صفحات الكتاب وذلك تحاشيا للاسهاب .

حرف الألف

حرب البـاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاى

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفـاء

حرف القـاف

حرف الكـاف

حرف الـلام

حرف المـيم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف اليـاء

فهـرس الأماكن

حرف الألف

حرف البـاء

حرف التـاء

حرف الجيم

حرف الحـاء

حرف الخـاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

رقم الايداع ٢٣٥٣/١٩٨٤

مطابع سـجل العـرب

HISTORY and CIVILIZATION of ISLAM

A study, in Ten Volumes, on History of MUSLIM NATIONS in All Muslim Ages and Lands

2

The Umayyad Peiod With its Religious and Revolutionary Movements

By

AHMED SHALABY,
B.A. (Hon.) Cairo University,
Ph. D. Cambridge University,
Professor of Islamic History and Civilization
Faculty of Dar El Ulum, Cairo University

Published by :
THE RENAISSANCE BOOKSHOP
9 Adly Street, Cairo.



دكتور أحمد شلبى

- تلقى دراساته فى الأزهر وفى كلية دار العلوم (جامعة القاهرة) وفى جامعة لندن وجامعة كمبردج.
- زار الولايات المتحدة الامريكية كما زار اكثر دول أوربا وآسيا وافريقيا، ومثّل مصر فى عدة مؤتمرات دولية.
- درس مجموعة من اللغات الأجنبية ويجيد الانجليزية والاندونيسية.
- اشتغل بالتدريس بجامعة القاهرة حتى وصل الى درجة أستاذ ورئيس قسم التاريخ الاسلامى والحضارة الأسلامية، وقد حاضر - منتدبا وزائرا ومُعارا - فى جامعة الأزهر، وعين شمس، واندونيسيا، والسودان، وماليزيا، والمملكة العربية السعودية، وليبيا، وفى معهد الدراسات الاسلامية، ومعهد البحوث والدراسات العربية، ومعهد الدراسات الدبلوماسية.
- مؤلفاته تزيد عن خمسين كتابا ظهرت الطبعة الحادية والعشرون من بعضها وأهم هذه المؤلفات:

١ - موسوعة التاريخ الاسلامى فى عشرة مجلدات
٢ - موسوعة الحضارة الاسلامية فى عشرة أجزاء.
٣ - مقارنة الأديان فى أربعة أجزاء.
٤ - كيف تكتب بحثا أو رسالة.
٥ - المكتبة الاسلامية لكل الاعمار (١٠٠ جزء من السّيَر والتاريخ وقصص القرآن للأولاد والشبان والسيدات والرجال.)
٦ - ISLAM: BELIEF, LEGISLATION, MORALS
٧ - HISTORY OF MUSLIM EDUCATION

- كتب بعض كتبه بالانجليزية والاندونيسية، وتُرجمت أكثر مؤلفاته الى الأوردية، والتركية، والاندونيسية، والماليزية والفرنسية، والفارسية.